أ. د. ضاري مظهر صالح



دلالة اللون

في القرآن والفكر الصّوفي

التفسير



أ. د. ضاري مظهر صالح

دلالة اللون
في القرآن والفكر الصوفي





دلالة اللون

في القرآن والفكر الصوفي

الكتاب: دلالة اللون في القرآن والفكر الصوفي

تأليف: أ. د. ضاري مظهر صالح

الطبعة الأولى : 2012



❖ **الناشر: دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع**

دمشق – سوريا : ص. ب 5292

تلفاكس: 00963 11 5626009

موبايل: 00963 932 806808

E.mail: zeman005@yahoo.com

E.mail: zeman005@hotmial.com

Web sit: www.darzaman.net

❖**الناشر** 

للنشر والاعلان

اربيل – شارع المحاكم – تحت بناية فندق شيرين بالاص

هاتف: 2221695 -2230908 -2518138

موبايل:07504605122- 07701387291

E.mail:tafseeroffice@yahoo.com

E.mail:altafseero@hotmail.com

E.mail:tafsseroffice@maktoob.com

web sit: www.al-tafseer.com

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح

الإخراج الداخلي: دار الزمان

الإهداء

إلى أرباب الذوق الرفيع الذين جردوا ذواتهم من التعلق بجهـــة المـــادة ولاذوا بجناب الحق تعالى، فأعطاهم تعالى من خزانة جوده وكرمه ولطفـــه، فهاموا في بحار إطلاقه، وتاهوا في محبة جماله وذابوا حتى لم يعد فيهم من يقول أنا، وتخلصوا من أوصاف بشريتهم بحضور أوصاف الربوبية...إلـــيهم جميعا أهدي هذا الجهد المتواضع.

أ ـ د: ضاري مظهر صالح

مقدمة

الحمد والشكر لله تعالى على تمكينه وعطائه، والصلاة والسلام على بدر البرية الذي أنار الطريق لكل البشرية صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى آله الطيبين الطاهرين الركع السجود الوارثين للكمالات المحمدية المأخوذين من أنفسهم إلى المقامات العلية، فكان مقام التلوين موطنهم، وفي الشؤون الإلهية تقلبهم، قال تعالى: **(يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)** [الرحمن: 29] وبعد...

ما من شك أن دلالة اللون تبقى رهينة خصوصيات الشعوب، وعقائدها، وأعرافها، وتقاليدها من حيث العموم، فاللون الأزرق مثلاً هنا له من الدلالة الحسية ـ العقلية غير الذي نعرفه في أوربا، أو الهند، أو الصين مثلا، غير أن هذا لا يلغي أن هناك دلالة حقيقية روحية لهذا اللون ترتبط ارتباطا وثيقا بالحقيقة المطلقة، وإن هذه الدلالة ثابتة لا يطرأ عليها تغيير لإن عالم الروح هو عالم الحقائق الثابتة في حين أن عالم الحس والماديات هو عالم التغيرات والفساد فكل شيء فيه متغير قابل للفساد.

فلو قدر أن ترتقي الأرواح، وتتسامى في المقامات إلى مستوى تلك الحقيقة المطلقة لكان هناك على الأرجح اتفاقا في الدلالة اللونية شأنها شأن الحقائق الأخرى ولا يوجد خلاف أو تقاطع على أية حقيقة تعرف هناك.

من هنا يتضح أن العقائد السماوية الناطقة بلسان الحقيقة الجامعة هي وحدها التي تحاول أن ترتقي بنا من مستوى محدود إلى مستوى أرقى عازمة على أن تصل بنا إلى مرتبة الفناء في الحقيقة المطلقة لنكون متوحدين بها، قائمين بها، مدركين بها، سائرين بها إلى مطلق الوعي والمعرفة، والعلم في الدارين الدنيا والآخرة.

واللون شأنه شأن الأشياء المجردة التي لا يرقى لها الفهم الحسي ـ العقلي إلا بحدود يتفق عليها اجتماعياً ومكانياً وهي دلائل لا تعبر عن حقيقة

اللون وأسراره ولذلك تبقى هذه الدلائل غير يقينية مثال ذلك أن اللون الأحمر مثلا له دالة الحب والثورة والعنف في حين أن اللون الأحمر من الناحية الروحية له دالة الإلهام وهو لون النفس الملهمة كما أكده الأولياء والعارفين الذين مكنهم الله تعالى من البصيرة الثاقبة، هنا يتضح أن الدلالات التي تمخضت عن بعض المجتمعات للألوان هي ليست يقينية بالمعنى الدقيق ولا يمكن الاعتماد على صحة دلالاتها في تقييم بعض الأعمال الفنية كأعمال الرسم والزخرفة.

هذا يعني أننا أمام إشكالية وأزمة حقيقية تتعلق بعملية الحكم والتقييم وفك رموز الأعمال الفنية من أجل إدراك مضامينها الروحية والعاطفية وما وراء الحس والشعور، وأن الأحكام التي نراها وبعض مؤشرات النقد ما هي إلا محض كلام أقرب إلى الإنشاء وبعيد كل البعد النقد الموضوعي الذي يستند إلى اليقينيات والمكاشفات الروحية.

لقد مهد القرآن الكريم وبعض مكاشفات الأولياء والعارفين الطريق إلى معرفة دلالات الألوان وعلاقتها بالروح وبالمقامات الروحية، ووجدوا أن الألوان تتغير وتتبدل تبعا لترقي الروح من مقام إلى مقام آخر، وحين يكون مقام زيد من الناس لونه أصفر وأن زيد يزاول مهنة الرسم فلابد أن يظهر انعكاس الأصفر على عمله لأن ارتباط اللون الأصفر ملازم لمقامه إلى يتغير المقام تبعاً لذلك، وهذا يعني إن من الواجب علينا أن نتوجه إلى هذه الشريحة من الأولياء، والأخذ عنهم ما يفيد ويعمق الصلة بالحقيقة، قال تعالى: (فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) [النحل: 43] فالإحالة هنا واضحة وصريحة من جهة الحق.

ومن الممكن أن يتوجه الباحث عن الحقيقة إلى تجربة السلوك على يد شيخ ولي كامل، فيتمكن من خلال تجربة السلوك الروحية من الاطلاع على الكثير من الحقائق ومن بينها الاطلاع على دالة اللون الروحية إذ لا يوجد مدخل إلى فهمها وإدراكها بشكل يقيني إلا من خلال الإدراك الروحي الكشفي الذوقي الذي يتأتى من خلال سلوك صوفي ـ ذوقي، وتحت إشراف ولي

مرشد كامل له دراية كاملة بالجانب الروحي، وله من التمكـين مـا يجعلـه مشرفا حقيقيا على تطبيب النفوس بدواء القدرة، وتخليصها مـن الركـون، والوقوف مع جهة الأغيار، والاحتجاب بها عند ذاك ستخرج النفس من سجن خدمة الجسد وتكون حرة من هذا القيد، فتدرك أبجديات عالمها الأصلي الذي جاءت عنه، وهو عالم اللاهوت، الذي يطلق عليه عالم أحسن تقـويم، قـال تعالى: **(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَـاهُ أَسْـفَلَ سَـافِلِينَ)** [التين:4 ـ 5] فدلالات اللون في عالم الحس هي دلالات أسفل سافلين، وهي لا ترقى أن تكون دلالة على حقيقة اللون ؛ لأن اللون ينتمي في حقيقته لعالم أحسن تقويم وهو عالم الأرواح والنفوس الصافية النقية التي تخلـصت مـن أدران الشرك الخفي وتماهت في أصل النور، فمـن أراد أن يعـرف دلالـة اللون على ما هو عليه من حقيقة فليجرب طريق الواصلين ويبدأ رحلته فـي الكشف عن هذه المذاقات الروحية التي لا تقل شأنا عن الموسيقى، والخطوط المجردة. وستكون عند ذاك من الأمور الذوقية المدركة روحيـا، بعـد أن يكون العقل قد استعد للتلقى من جهة الروح ما يخرجه من حدود الحس فينفذ إلى بواطن المعارف الروحية، فتكون عند ذاك معارفه (لبية) كما جـاء فـي قوله تعالى:

(يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيـراً وَمَـا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ) [البقرة: 269]

نحن نعشق اللون، ونشدُّ إليه لكننا غير عارفين حقيقة هـذه المـشاعر مثل ذلك مثل المتلقي للموسيقى المجردة يجد فيها لذة وراحـة لكنهـا غيـر مفسرة، والكثير يقف أمامها عاجزا عن تفسير أسباب الارتيـاح، أو نقيـضه على حد سواء.

إن نظريات علم النفس قد عجزت أن تعطي لنا تفسيرا واضحا لكثير من الإشكالات التي نتذوقها، ولا نعلم أسرار قبولنا لها أو الرفض، غير أن ثلـة قليلة في كل زمان تعمل بشكل خفي على استبطان عالم الروح لتكشف عـن

علوم كثيرة، ومن بين تلك العلوم اللون، والخط، والشكل الهندسي، وغيرها من التجريدات لكنها بقيت في منأى عن الكثير من طلاب الحقيقة، هنا في هذا البحث يحاول الباحث أن يسلط الضوء على تلك المكاشفات التي دونها الصوفية، وتحت سلطة وتأثير خطاب الحق تعالى لعلها تسهم إلى حد ما في توضيح ما غاب عنا في مجال المعرفة الذوقية، وتعد هذه الدراسة الأولى من نوعها في هذا المجال، وقد اعتمد الباحث فيها أسلوب المباحث، فكل لون له مبحث خاص.

كما أن الباحث قد تناول الألوان المهمة الأساسية منها، والثانوية، ولم يتناول الألوان جميعها لأن ذلك يعد من الاستحالات ؛ وذلك لأن الألوان مطلقة في الطبيعة، ولا يمكن حدها وإحصائها، ويكفي الإشارة أن أي لون إذا مزجت معه لون من الأبيض فإنه يعطيك لون غير اللون الذي لم يتم مزجه بالأبيض وهكذا إلى غير نهاية، فكيف الحال مع اشتقاقات الألوان الأخرى.

كما أن هناك ألوان لا تخلوا منها دار الآخرة منها قد ذكرتها الكتب المقدسة ومنها ما لم يذكر بدليل ما جاء في الحديث القدسي: **(وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد)** ولما كانت العين قد اعتادت على رؤية ألوان الطبيعة فإن هناك في الجنة ترى من الألوان ما لم تكن قد رأته وهي في الحياة الدنيا، وهذا دليل على أن الألوان لا يمكن حدها، أو حصرها في عالم دون عالم آخر من عوالم الحق تعالى، فعالم الملك، والملكوت، وعوالم الآخرة كلها غنية بالألوان فسبحان الملك الخلاق الذي أبدعها وسواها لتكون دليلا إليه.

إن الخوض في هذا المجال وإن كان صعبا إلى حد ما، إلا أنه يبقى مثيرا ومحفزا لكل باحث عن الحقيقة، فلنجعلها رحلة نحو مجهول ما، ونستمتع معا في مجال اللون ولغته الروحية عسى أن نجد فيه ما يدعو إلى مزيد من التعمق والبحث، والله من وراء القصد.

الأزرق لغة:

يرى الفيروزابادي: الزرق ــ محركة ــ والزرقة ــ بالـضم -: لـون معروف بين البياض والسواد. زرقت عينه ــ كفـرح ــ زرقـة وزرقانـا. والزرقة أيضا: العمى، ومنه قوله تعالى: **(يَوْمَئِذٍ زُرْقاً)** [طه: 102] أي: عميا عيونهم لا نور لها. (الفيروزابادي: ب ت، ج3، ص 128)

ويرى الراغب: الزرقة: بعض الألوان بين البيـاض والـسواد، يقـال: زرقت عينه زرقة وزرقانا، وقوله تعالى: **(يَوْمَئِذٍ زُرْقاً)** [طه: 102] أي: عميا عيونهم لا نور لها، والزرق طائر، وقيـل زرق الطـائر يـزرق، وزرقـه بالمزارق: رماه به. (الأصفهاني، الراغب: 1437هجري، ص379)

ويعرف الباحث الأزرق: لون من الألوان الأساسية الذي يأتي من تحليل النور الأبيض هو واللون الأصفر، والأحمر، وله من الدلالة الروحية العمى، والأجرام كما جاء في الآية الكريمة: **(يَوْمَئِذٍ زُرْقاً)** [طه: 102].

قال تعالى:

(يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً) [طه:102- 103]

يرى ابن عربي في تأويله للآية الكريمة: **(يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْـشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً)** أي: يوم ينفخ الحياة (في الـصور) الجـسمانية، بـرد الأرواح إلى الأجساد **(وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ)** الملازمين للإجرام **(زُرْقـاً)** عميـا، بيض سواد العيون، أو شوها في غاية قبح المناظر، يحـسن عنـدها القـردة والخنازير، يسرون الكلام لـشدة الخـوف أو عـدم القـدرة علـى النطـق، ويستقصرون مدة اللبث في الحياة الدنيوية لسرعة انقضائها وكـل مـن كـان أرجح عقلا منهم كان أشد استقصارا إياها. (ابن عربي: 2001، ج1، ص34)

وفي تأويل آخر للآية يرى فيه ابن عربي: **(الصُّورِ)** جمع صـورة، وهـو الحضرة البرزخية التي ننتقل إليها بعد الموت ونشهد نفوسنا فيها، ولمـا سـئل

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن الصور: ما هو ؟ قال صلى الله تعالى عليه وسلم: (**هو قرن من نور ألقمه إسرافيل**) فأخبر أن شكله شكل القرن، فوصف بالسعة والضيق، فهو في غاية السعة، لا شيء من الأكوان أوسع منه، وضيقه من أنه لا يجرد المعاني عن المواد أصلا، فلا يقبلها إلا في صورة، واعلم أن الله سبحانه إذا قبض الأرواح من هذه الأجسام الطبيعية حيث كانت والعنصرية، أودعها صورا جسدية في مجموع هذا القرن النوري، فجميع ما يدركه الإنسان بعد الموت في البرزخ من الأمور إنما يدركه بعين الصورة التي هو فيها في القرن وبنورها، وهو إدراك حقيقي، ومن الصور هناك ما هي مقيدة عن التصرف، ومنها ما هي مطلقة كأرواح الأنبياء كلهم وأرواح الشهداء، ومنها ما يكون لها نظر إلى عالم الدنيا في هذه الدار، وكل إنسان في البرزخ مرهون بكسبه، محبوس في صور أعماله إلى أن يبعث يوم القيامة من تلك الصورة في النشأة الآخرة. (ابن عربي: 1431ه، ج3، ص106 ــ107)

لقد جرى حشر المجرين عمي العيون، وقد سيطر عليها اللون الأزرق، ذلك لأنهم لم يستخدموا بصيرتهم في الحياة الدنيا بشكل صحيح، فكانت غاية بصيرتهم تتجه إلى تحصيل اللذات الحسية والمادية، فوقفوا مع الأغيار وجهة الطبع، وتخلوا عن المعاني الروحية والنورانية على الرغم من أن الحق تعالى جعل آياته مبثوثة في الآفاق، وفي أنفسهم، إلا أن بصيرتهم تنأى عن التفكر في الغاية التي تكمن خلف الآيات التي جعلها الحق في الآفاق كما جاء في خطابه الكريم: (**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) [فصلت: 53] فجعلها الحق في الآخرة عمياء زرقاء ؛ لأنها لم تغن صاحبها عذاب يوم القيامة فاستحقت بذلك هذا النوع من العذاب والخزي، فجعل تعال هذه الزرقة في العيون هي سمة يتميز بها المجرم عن سواه، ليرهق صاحبها أشد الإرهاق كما جاء في قوله تعالى: (**سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً**) [المدثر: 17] أي: يبقى في الأسفل إلى أن يشاء الله تعالى فيرحمه، بعد أيام كثيرة من أيام الرب كما جاء في قوله تعالى: (**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**) [المعارج: 4]

كما أن اللون الأزرق هو لون الطينة الآسنة بسبب بقائها لفترة طويلة تحت الماء الآسن الملوث، فتتحول الطينة ذات اللون الأوكر، أو الترابي إلى اللون المزرق الآسن فيخرج منه ريح آسن ليس من السهل تقبله في عملية الاستنشاق، وقد جعله تعالى بهذه الخاصية ليكون آية من آياته تعالى لكل متأمل فيستخلص الحكمة الكامنة خلف هذا الأفق، يقول تعالى: (**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) [فصلت: 53] فكذلك الحال مع كل طينة تنأى عن يد العناية وتهمل، فتتلقفها أيادي الطبع وتجعلها مطية الأهواء، فالغاية من هذا التحول الآسن أن يعتبر الإنسان بذلك، فيلجأ إلى تطهير ذاته من الكدورات، وأن يتجرد من شوائب التعلق بما سوى الله تعالى ليحافظ على نور الاستعداد الكامن في الفطرة السليمة التي جعلها تعالى في حقيقة الروح كما جاء في خطاب الحق تعالى: (**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**) [الروم: 30].

ويرى القشيري في تأويله للآية: (**يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً**) قوم يوم القيامة لهم مؤجل، وهو بعد النفخ في الصور على ما ورد في الكتاب العزيز وفي الخبر المأثور، وللآخرين قيامة معجلة، فيها محاسبة وعليهم فيها مطالبة، وهوان حاضر، وعذاب حاصل، فكما ترد على ظواهر قوم في الآخرة عقوبات، ترد على سرائر آخرين عقوبات في الحياة الحاضرة، والمعاملة مع كل أحد تخالف المعاملة مع صاحبه، قوم (**يتخافتون بينهم**) من تفرغ لعد الأوقات والتمييز بين اختلاف الحالات فنوع غير مستوف في بلائه، وأمره سهل، ومن كان يراد المعنى من حديثه لا يتفرغ إلى نعت الحال، فالأحوال تخبر عنه وهو لا يسأل عن الخبر.(القشيري: 1999، ج4، ص 144)

في حين يذهب البروسوي في تأويله للآية: (**يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ**) بدل من يوم القيامة أو منصوب بإضمار اذكر أي: اذكر يا محمد لقومك يوم ينفخ إسرافيل في القرن الذي التقمه للنفخ (**وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ**) أي: نخرج المتوغلين في الإجرام والآثام المنهمكين فيها وهم الكفرة والمشركون من

مقابرهم ونجمعهم يوم إذ ينفخ في الصور وذكره صريحا مع تعين الحشر لا يكون إلا يومئذ للتهويل (**زُرْقاً**) جمع أزرق والزرقة أسوء ألوان العين وأبغضها إلى العرب فإن الروم الذين كانوا أعدى عدوهم زرق، وقال الإمام في المفردات قوله تعالى: (**يَوْمَئِذٍ زُرْقاً**) أي: عميا عيونهم لا نور لها لأن حدقة الأعمى تزرق يعني أن العين إذا زال نورها ازرقت، (**يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ**) استئناف لبيان ما يأتون، وما يذرون حينئذ، والتخافت إسرار المنطق، وإخفائه أي: يقول بعضهم لبعض خفية من غير رفع صوت بسبب امتلاء صدورهم من الخوف، والهوان، أو استيلاء الضعف (**إِن لَّبِثْتُمْ**) لبث بالمكان أقام به ملازما له أي: أقمتم، ومكثتم في الدنيا أو في القبر(**إِلَّا عَشْراً**) عشر ليال أو عشر ساعات استقصارا لمدة لبثهم فيها لزوالها لأن أيام الراحة قليلة والساعات تمر مر السحاب.(البروسوي: 2003، ج5، ص430)

في حين يرى ابن عجيبة في تأويله: (**يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ**) أي: ذلك اليوم هو يوم ينفخ في الصور، أو: اذكر يوم ينفخ في الصور نفخة البعث، (**وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ**) أي: المشركين (**يَوْمَئِذٍ**) أي: يوم ينفخ في الصور، وأعادة، تهويلا، حال كونهم (**زُرْقاً**) أي: زرق العيون، وإنما جعلوا كذلك، لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب، وكانت تتشاءم بزرقة العين، كما قال الشاعر:

لقد زرقت عيناك يا ابن مكعبر ألا كل ضبي من اللؤم أزرق

وقيل زرقا، أي: عميا، لأن حدقت العين تزرق من شدة العمى، وقيل: عطاشا لأن سواد العين يتغير من شدة العطش ويزرق، (**يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ**) أي: يخفضون أصواتهم ويخفونها، لما علا صدورهم من الرعب والهول، يقول في تلك المخافتة بعضهم لبعض: (**إن لبثتم إلا عشر**) أي: ما لبثتم في الدنيا إلا عشر ليال، استقصار المدة لبثهم فيها، لزوالها، أو لتأسفهم عليها، لما شهدوا الشدائد والأهوال، أو في القبر، وهو الأنسب بحالهم.(الحسني، ابن عجيبة: 2005، ج4، ص 306)

إن الوصف الذي ذكره تعالى في قوله: **(يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً)** [طه: 102] لم يشير به تعالى إلى عمى العيون أو لونها في يوم الحشر بل أشار تعالى به إلى لون الجسم بكامله **(وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً)** ولم يقل تعالى عيون المجرمين، فالمجرمين يحشرون بهذا اللون ليكون ذلك علامة من علامات الخزي في الآخرة، يقول تعالى: **(وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ)** [فصلت: 16] ولا يمكن لهذه العلامة أن تتغير إلا بالنار، فهي من شدة النار تذوب شيئا فشيئا حتى تتلاشى فترجع تلك الطينة كما كانت عليه من قبل صافية وخالية من الكدورات. فاللون الأزرق يحمل هذه الدلالات.

كما أن أهل البصيرة بما مكنهم الله تعالى من نفاذ بصيرتهم إلى عمق الحقائق يرون طيف الروحانيات وألوانها، فيعرفون من خلال هذه البصيرة حقائق حاملي هذه الألوان، فلا تخفى عليهم حقيقة مراتب أصحاب تلك الأنوار أو الألوان، ويطلقون على هذا النوع من المعارف بالمكاشفات أو المشاهدات، فيدركون أن الروحانية التي تحمل اللون الأزرق مثلا هي مرتبة النفس الأمارة بالسوء وما تنطوي عليه هذه النفس من صفات سلبية.

في قوله تعالى: (وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً) إشارة واضحة لنا أن حشر المجرمين باللون الأزرق لم يشمل العينين فقط بل لكل الهيكل الإنساني، ولو أراد الله أن يختص المجرم بصفة العمى فقط لذكر العمى كما جاء في قوله تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [طه: 124]، فالزرقة هنا لا تشمل العينين فقط بل هي شاملة لكل الهيكل الإنساني بما فيه العيون، وكأن الحق تعالى يريد أن يخاطبنا أن هذا الإنسان الموسوم بالزرقة بقي على لون طينته الأسنة على الرغم من التمكين الذي مكنه به تعالى من عقل وروح فهو لم يترق بعد من مستوى أسفل سافلين ليعود إلى مستوى أحسن تقويم، وبما أنه قد اختار سمة السفل ومال إليها فقد بعثناه على الهيأة التي تليق به وهو الطين الآسن الأزرق.

ويرى الصوفية من أرباب الكشف الذوقي، أن اللون الأزرق هـو لـون النفس الأمارة بالسوء وهي أدنى مرتبة من مراتب النفس، وقال فيها تعـالى: **(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُـورٌ رَّحِيمٌ)** [يوسف: 53] والنفس الأمارة بالسوء هي التـي احتجبـت بالغواشـي البدنية، أي وقفت مع متطلبات الحاجة الجسدية، وتخلت تماما عن الحاجـات الروحية، ولم تعد تميل إلى جهة الروح أو الحق تعالى.

ويرى الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره فـي فيوضـاته: (أن الـنفس الأمارة بالسوء، هي دائرة صفات الكفر والعناد فإذا رأى الإنسان فـي رؤيـاه خنزيرا، أو كلبا، أو فيلا،أو عقربا، أو حية، أو فأرة، أو مـن البراغيـث، أو القمل، أو من الحمار، أو من الجمـادات كالمزبلـة، والخمـر، والحـشيش، والأفيون، وأمثال ذلك كالمخمر، والماء الراكد الكدر، والجاري مـن خـواص الأمارة بالسوء فالإنسان إذا كان متصفا بهذه الصفات يكون تابعا لهواء نفـسه، ويحتاج إلى الرياضة، وتصفية النفس، والاشتغال بالذكر، ويرى الكيلانـي أن هذه الرؤى تخبر عن جملة حقائق تختص بالنفس الأمارة بالـسوء، فمـثلا أن رؤية الخنزير في المنام يعني الأكل الحرام، والكلب صفة الغـضب، والفيـل صفة العجب، والحية صفة لسان النفاق، والميمون صفة النمام، والعقرب صفة العذاب، والفأرة أفعال عن الخلق مستورة، وللحق معلومة إنه تابع هواء نفسه، والبراغيث، والقمل ارتكاب المكروهات، والحمار مباشـرة بفعـل لا ينفعـه، والمزبلة صفة ميله إلى الدنيا فإذا شرب خمرا صفته فعل الحـرام، ولـو رأى خمرا، ولم يشربه يكون أفكاره للحرام، وإذا رأى مخمرة كان قلبه متعلقا بأفكار فاسدة، وأمثال هذا يقاس عليه).(الكيلاني، عبد القادر: ب ت، ص 22–23)

ويضيف الشيخ عبد القادر الكيلاني أن من صفات مرتبة الـنفس الأمـارة بالسوء، البخل، والحرص، والجهل، والشر، والحسد، والغـضب، والخـلاص منها بذكر لا إله إلا الله، والنفس الأمارة سيرها يكون في باديء أمرهـا فـي السلوك إلى الله، وإن عالمها الذي تتوقف معه هو عالم الشهادة أي: عالم الدنيا، ومحلها الصدر من طبعها الميل إلى جهة اللذات، وإن الوارد الذي يردها فـي مجال الدين الشريعة، وعادة ما يكون نورها أزرق. (نفسه: ص37–38)

ويتأول الكيلاني هذه الآية فيرى: **(يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ)** لإخراج ما بالقوة إلى الفعل **(وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ)** المشركين **(يَوْمَئِذٍ زُرْقاً)** زرق العيون سود الوجوه، وهما كنايتان عن الحسد والنفاق اللذين هم عليهما في دار الدنيا. (الكيلاني: عبد القادر: 2009، مجلد3، ص163)

هذا يعني أن النفس الأمارة بالسوء تتصف بصفات البخل في كل توجهاتها، سواء كان يستدعي منها ذلك الموقف البخل أو نقيضه، فمراعاة اليتامى، أو المساكين، أو المحتاجين، أو الفقراء، أو ابن السبيل، يتعامل معهم صاحب النفس الأمارة بالسوء بالبخل مثل تعامله مع بقية الأشياء الحياتية الأخرى التي هي فعلا لا تحتاج إلى الإسراف.

كما أن صفة الحرص تأخذ مجالا أوسع مما تستحقه هذه الصفة في التعامل اليومي، مما يؤدي الأمر بمن يتصف في هذه الصفة إلى عملية الإفساد في الأرض لأن حرصه سيؤدي إلى الإخلال في العدالة التي أرادنا تعالى أن نتحقق بها، فأي خروج عن حد العدالة يؤدي إلى الإفساد في الأرض لأنه خروج عن المراد الإلهي وهكذا بقية الصفات الأخرى التي سنأتي على شرحها تفصيليا في هذا المبحث.

ويرى ابن عطاء في تأويله للآية: **(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ)** أي: ما أبريء نفسي بنفسي، إنما أبريء نفسي بربي، لأن النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجري على طبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة، فمن أعرض عن الجهود، فقد أطلق عنان النفس وغفل عن الرعاية. فمهما أعانها فهو شريكها في مرادها. لذلك قال الجنيد: من أعان نفسه على هواها، فقد أشرك في فعل نفسه، لأن العبودية ملازمة الأدب، والطغيان سوء الأدب. (اليسوعي، بولس نويا: 1986، ص، 63)

ويرى الكيلاني في تأويله لقوله تعالى: **(وَمَا أُبَرِّئُ)** وأنزه **(نَفْسِي)** عن الفرطات والغفلات والخواطر القبيحة، والديدنة الشنيعة على مقتضى القوى الشهوية واللذة البهيمية، وكيف أبريء وأنزه **(إِنَّ النَّفْسَ)** المركوزة في الجبلة

الإنسانية (لَأَمَّارَةٌ) مائلة بالطبع (بِالسُّوءِ) والفساد متوجهة نحوه إذا خلى وطبعها (إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ) أي: حفظها الله من كمال رحمته وشفقته من طغيانها ووسوسة الشيطان إليها(إِنَّ رَبِّي) الذي رباني بالعصمة والعفاف (غَفُورٌ) لما صدر عني من الخواطر النفسانية (رَّحِيمٌ) يرحمني بفضله ويعصمني بلطفه عما يبعدني من كنفه وجواره. (الكيلاني:2009، مصدر سابق، مجلد2، ص359 ــ360)

وفي التأويلات النجمية يرى نجم الدين كبرى: خلقت النفس على جبلة الأمارية بالسوء طبعا حين خليت إلى طبعها لا يأتي منها إلا الشر ولا تأمر بالسوء، ولكن إذا رحمها ربها ونظر بنظر العناية يقلبها من طبعها ويبدل صفاتها، ويجعل أماريتها مبدلة بالمأمورية وشريرتها بالخيرية، فإذا تنفس صبح الهداية في ليلة البشرية وأضاء أفق سماء القلب صارت النفس لوامة تلوم نفسها على شر فعلتها، وندمت على ما صدر عنها من الأمارية بالسوء، فيتوب الله عليها فإن الندم توبة، وإذا طلعت شمس العناية من أفق الهداية صارت النفس ملهمة إذ هي تنورت بأنوار شمس العناية فألهمها نورها فجورها وتقواها، وإذا بلغت شمس العناية وسط سماء الهداية وأشرقت الأرض بنور ربها صارت النفس مطمئنة مستعدة لخطاب ربها. (الكيلاني: نفسه، ص 359 ــ 360)

في حين يرى ابن عربي أن النفس ليست أمارة بالسوء من حيث ذاتها، وإنما ينسب إليها ذلك من حيث أنها قابلة لإلهام الشيطان بالفجور، ولجهلها بالحكم المشروع في ذلك، ثم أن قوله تعالى: (إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) ما هو حكم الله عليها بذلك، وإنما الله حكي ما قالته امرأة العزيز في مجلس العزيز، وهل أصابت في هذه الإضافة أو لم تصب هذا حكم آخر مسكوت عنه، فهذا الإخبار عن النفس أنها أمارة بالسوء ما هو حكم الله عليها، ولا من قول يوسف عليه السلام، فبطل التمسك بهذه الآية لما دل عليه الظاهر، والدليل إذا دخله الاحتمال سقط الاحتجاج به، والذي هو للنفس أنها لوامة نفسها إذا قبلت من الشيطان ما يأمرها به، والنفس ما ينسب إليها ذم إلا بعد تصريفها آلاتها في المذموم، وما لم يظهر الفعل على الآلات لم يتعلق بها ذم،

والذي أجرأ النفوس على ارتكاب المحارم والدخول في المـآثم هـو كونهـا ليست على بصيرة من المؤاخذة، فإن الله أدخلها في حكم المشيئة **(إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّـيَ)** إلا من عصم الله، بخوف أو رجاء أو حياء، أو عصمة في علم الله به خارجة عن هذه الثلاثة، ولا خامس لهذه الأربعة المانعة من وقوع المخالفـة والتعرض للعقوبة. (ابن عربي:1431ه، مصدر سابق، ج2، ص 387 ــ388)

ويقال: إنما سميت أمارة لكونها لا تأمر صـاحبها إلا بالـسوء ولا تفعـل الخير إلا مكرهة عليه، ونور هذه النفس أزرق فإذا اشتغل صاحب هذه الـنفس الأمارة بذكر هذه الكلمة **(لا إله إلا الله)** الطيبة تزول عنه الصفات الحيوانيـة، ويتطهر من القاذورات البشرية، وترفع عنه الحجب المانعة عن الوصول إلـى الله تعالى. ويتم ذلك من خلال الإخلاص، والإخلاص أن تخلص عبادتك مـن الشوائب كالرياء، وملاحظة السوى، ولا تحب أن يطلع على عبادتك أحد سوى الله تعالى، ولا يضرك ملاحظة الثواب، وخوف العقاب مادمت في هذا المقام، ومتى نقلك الله منه إلى مقام الإخلاص فحقيقة إخلاصك حيث ينيرك من حولك وقوتك في الأعمال الصالحة، ولا يليق في مقامك طلب الثواب، وخوف العقاب في مقابلة الأعمال الصالحة، لأنك قد اطلعت عليها، وعرفت أنها ليست لـك، وإنما هي لله تعالى، ونسبتها لك مجازا بمحض فضل الله وكرمـه عليـك، إن وفقك لها وأبرزها على يديك، وإن لاحظت الثواب والعقاب فليكن مـن بـاب المنة والفضل، لا من باب المقابلة والعدل قال تعالى: **(فَمَن كَانَ يَرْجُـو لِقَـاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)** [الكهف: 110] فعلى هذا إياك ثم إياك أن تقيم في مقام الإخلاص، وتكلف نفسك فيـه بـل ارتـح منـه بالمجاهدة لهذه النفس الخبيثة حتى تشهد أن الأعمال أبرزتها يد القدرة الأزليـة ويتضح لك بالذوق من قوله تعالى: **(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)** [الصافات: 96] أي: خلقكم وخلق أعمالكم فيظهر لك النور الأزرق، وتذهب صـفات نفـسك الأمارة، وتصير ترى منامات مرضيات كاجتماعها بالأولياء والصالحين وأهل الطاعات والعارفين. (رسائل صوفية مخطوطة : 2007، ص44-46)

ويرى ابن عربي في فتوحاته: لا يترجح أن ننسب الإلهام بالفجور إلى الله، فلم يبق بعد هذا الاستقصاء أن يكون الضمير في ألهمها بالفجور إلا الـشيطان

وبالواو بالتقوى إلا الملك، فمقابلة مخلوق بمخلوق أولى مــن مقابلــة مخلــوق بخالق، وفي قول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بئس الخطيب كفاية لمن أنار الله بصيرته فقد أعلمك برتبة نفسك وأنها ليست بأمارة بالسوء مــن حيــث ذاتها، وإنما ينسب إليها ذلك من حيث إنها قابلة لإلهام الشيطان بالفجور ولجهلها بالحكم المشروع في ذلك كنفس أمرت صاحبها بارتكاب أمر لم تعلم تحريمه في الشرع، أو قامت عندها شبهة بإباحة ذلك فيراه من مذهبه التحريم فيقــول: **(إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)** كشرب النبيذ بين محلله ومحرمه، ونكاح الربيبة التي لم يجتمع فيها الشرطان، ومثل هذا في الشريعة كثير، وكلا المذهبين شرع مقــرر صحيح إذا كانا عن اجتهاد، مع أن أحدهما أخطأ دليل الشارع الذي حكم به في تلك المسألة أو لو حكم فيها، والمجتهدان مأجوران، وقد يكون في المسألة أحــد المجتهدين مصيبا، وقد يكون كل واحد منهما مخطئا، فإن الحكم في تلك المسألة شرعا ليس بمنحصر، ثم أن قول الله تعالى: **(إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)** فما هو حكم الله عليها بذلك، وإنما الله حكي ما قالته امرأة العزيز في مجلس العزيــز، وهل أصابت في هذه الإضافة أو لم تصب هذا حكم آخر مسكوت عنه، بل الذي هو لها أنها لوامة نفسها إذا قبلت من الشيطان ما يأمرها به، فهذا الأخبار عــن النفس أنها أمارة بالسوء، ما هو حكم الله عليها ولا قول يوسف عليــه الســلام، فبطل التمسك بهذه الآية لما دل عليه الظاهر، والدليل إذا دخله الاحتمال ســقط الاحتجاج به. (ابن عربي، محي الدين: 2006، مجلد 1، ص432–433)

ويبدو حين أن هناك علاقة واضحة وصــريحة مــا بــين المكاشــفات الصوفية والعرفانية التي تؤكد أن لون النفس الأمارة بالــسوء لونهــا أزرق، وبين قوله تعالى: **(وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً)** فالمجرم هــو الــذي لــم يتخلى عن مراد هوى النفس حتى لو أدى به الاستدراج إلى الإجرام. كما أن مكاشفات الصوفية لم تختص بجزء من الإنسان دون جزء آخر بل هي شاملة لكل الإنسان حيث يظهر اللون الأزرق واضحا لأهل الكشف في جميع الجسد وليس بجزء منه، وهذا دليل آخر أن الزرقة تشمل النفس كذلك إلــى جانــب الجسد إلا أن زرقة الجسد لا تظهر واضحة إلا بعد النفخ في الصور، أي يوم الحشر فتكون سمة له في عالم الآخرة.

ويرى القشيري في تأويله للآية: (**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ**) لما تمدَّح بقوله: (**ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ**) [يوسف: 52] كأنه نودي في سره: ولا حين هممت؟ فقال: (**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي**) ويقال: قوله: (**لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ**) بيان الشكر على ما عصمه الله، وقوله: (**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي**) بيان العذر لما قصر في أمر الله، فاستوجب شكره زيادة الإحسان، واستحق بعذره العفو. (القشيري: 1999، ج3، ص194)

إن النفس الإنساني لم تكن مخلوقة، وهي مجبولة على التقوى بل هي مخلوقة وجعل فيها تعالى قابلية تبني التقوى، وقابلية تبني الفجور، وأنزلها عالم الدنيا الذي هو عالم الاختبار والبلاء، ولم يتركها دون وسيلة تهديها أو تضلها، فجعل الشيطان إمام الضلالة، وجعل للهداية أئمة يهدون بأمره تعالى كما جاء في قوله تعالى: (**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**) [الأنبياء: 73] فالهداية وفعل الخيرات تجري بأمر الله تعالى، والضلالة والأفعال المشينة تجري بغواية إبليس عليه اللعنة، وللإنسان أن يختار طريق من الطريقين، كما جاء في قوله تعالى: (**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**) [الإنسان: 3] فإذا اختار طريق الهداية والحق التحق بأهل الحق وتنور بنور الحق تعالى، وإذا اختار طريق إبليس فإنه سيحشر معه في جهنم وتلون بلونه الأزرق ليكون ذلك علامة وسمة بارزة تؤكد توليه لطريق الضلالة.

ويرى البروسوي في قوله تعالى: (**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي**) أي: لا أنزهها عن السوء ولا أشهد لها بالبراءة الكلية قاله تواضعا لله تعالى وهضما لنفسه الكريمة لا تزكية لها وعجبا بحاله في الأمانة، ومن هذا القبيل قوله عليه السلام: (**أنا سيد ولد آدم ولا فخر لي**) أو تحديثا بنعمة الله تعالى عليه في توفيقه وعصمته، أي لا أنزهها عن السوء من حيث هي هي، ولا أسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله تعالى (إن النفس) اللام للجنس، أي جميع النفوس التي من جملتها نفسي في حد ذاتها (**لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**) تأمر بالقبائح والمعاصي، لأنها أشد استلذاذا بالباطل والشهوات

وأميل إلى أنواع المنكرات، ولولا ذلك لما صارت نفوس أكثر الخلق مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضاء الشهوة، وما صدرت منها الشرور أكثر من ههنا وجب القول بأن كل من كان أوفر عقلا وأجل قدرا عند الله، كان أبصر بعيوب نفسه ومن كان أبصر بعيوبها كان أعظم اتهاما لنفسه وأقل إعجابا. **(إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي)** من النفوس التي يعصمها من الوقوع في المهالك، ومن جملتها نفسي، ونفوس سائر الأنبياء، ونفوس الملائكة. يقول الفقير: سلوك الأنبياء عليهم السلام وإن كان من النفس المطمئنة إلى الراضية والمرضية والصافية، إلا أن طبع النفوس مطلقا أي سواء كانت نفوس الأنبياء أو غيرهم على الأمارية وكون طبعها عليها لا يوجب ظهور آثار الأمارة بالنسبة إلى الأنبياء، ولذا لم يقل يوسف عليه السلام إن نفسي لأمارة بالسوء بعد ما قال وما أبريء نفسي، بل أطلق القول على الأمارية واستثنى النفوس المعصومة فلولا العصمة لوقع في النفس ما وقع. (البروسوي: 2003، ج4، ص 290-291)

ويرى ابن عجيبة في تأويله: **(إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)** بحيث إنها مائلة بالطبع إلى الشهوات، فتهم بها، وتستعمل القوى والجوارح في نيلها في كل الأوقات، **(إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي)** إلا وقت رحمة ربي بالعصمة والحفظ، أو: إلا ما رحم الله من النفوس فيعصمها من ذلك، وقيل: الاستثناء منقطع، أي: لكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة **(إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ)** يغفر ما همت به النفوس، ويرحم ما يشاء بالعصمة، أو يغفر للمستغفر ذنبه المعترف على نفسه، ويرحمه بالتقريب بعد تعرضه للإبعاد. (الحسني، ابن عجيبة: 2005، ج3، ص285-286)

إن اللون الأزرق وكما أشار إليه الشيخ الكيلاني قدس سره: يشير إلى النفس الأمارة بالسوء ويدل عليها، واللون الأزرق كذلك هو سمة من سمات المجرمين الموصوفين بجملة صفات منها: أولا: البخل: وللبخل هنا ظاهر وباطن، فالظاهر هو جمع المال، وعدم إنفاق نسبة منه في سبيل الله، والظن به، والشح حتى على النفس، ويسمى صاحب هذا الحال بالبخيل، وقد كاشفنا الحق تعالى عن وعيده لمن كانت صفته البخل بقوله تعالى: **(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ**

وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) [التوبة: 34] وكانت الغاية من هذا الوعيد أنه تعالى أراد منا أن لا نكون من الموصوفين بهذه الصفة كما لم يطالبنا تعالى كذلك بالإسراف كما جاء في قوله تعالى: **(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً)** [الإسراء: 29] وإن خير الأمور أوسطها أي: تنفق مما رزقك الله في سبيل الله، ولا تسلك سبل المبذرين أو المسرفين، أما من حيث الباطن، فإن زكاة العلم نشره، فمن الواجب على كل متعلم أو مرشد نشر العلم بتعليم الناس بغية تخليصهم من سمة الجهل، يقول تعالى لأصحاب العلم الحضوري: **(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)** [النحل: 125]، فالبخل هي صفة من صفات المجرمين الذين يحشرون يوم القيامة زرقا أي: عمي العيون لطغيان اللون الأزرق على حدقات العيون وهو كذلك صفة من صفات النفس الأمارة بالسوء، وهو سمة من السمات التي تظهر على أجسام المجرمين يوم الحشر.

أما الصفة الثانية من صفات النفس الأمارة بالسوء ذات اللون الأزرق هي: الحرص: والحرص يعني التمسك بقوة بمباهج الحياة وزخرفها، وتأتي هذه الصفة نتيجة عدم إيمان المرء بمعطيات الدار الآخرة من جنان وما شابه ذلك بسبب احتجابه بالأطر الحسية، واللذات الحسية المادية المحدودة، وعدم تذوقه المعاني، والمذاقات الروحية، فالحرص دلالة على قصر النظر والرؤية وهو شكل من أشكال البخل أو أحد سبل البخل، وهي صفة مذمومة طالما هي وصف لمن تمسك بالدنيا، أما من تمسك بالعقيدة الصحيحة وبالمراد الإلهي وحرص على رضا الحق تعالى فإن هذه صفة محمودة لأنها تؤدي بصاحبها إلى الجنة.

أما الصفة الثالثة من صفات النفس الأمارة بالسوء فهي: الجهل: وأشد أنواع الجهل خطرا على الإنسان هو الجهل بمراد الحق تعالى أو الجهل بالدين لأنه يؤدي بصاحبه إلى الهلاك الأبدي يوم القيامة، والجاهل تكون أعماله قبيحة لعدم علمه ذلك لأن حصانة المرء من الوقوع في دائرة الخطأ هي المعرفة بالله تعالى، فإذا فقدها لا يمكنه بلوغ المستوى الذي يرضي الله تعالى.

وفيما يخص الصفة الثالثة للنفس الأمارة بالسوء التي هي الشر وهي من الصفات التي لا تنأى عن الإجرام الذي وصفه خطاب الحق تعالى، والشر صفة تتناقض مع التواضع، والسلام وكل الصفات الجمالية كما أنها صفة لا تنأى عن صفات الجهل، والبخل، والحرص، وغيرها من الصفات التي تتسم بها النفس الأمارة بالسوء.

أما صفة الحسد فهي كذلك تنجم عن الجهل بالله تعالى، فلو علم العبد أن الحياة الدنيا هي ليست بدار قرار بل هي دار زائلة مآلها للخراب، وإن الحياة الآخرة هي الباقية وإن سعادتها هي السعادة الأزلية الحقيقية التي لا نفاد لها ولا انتهاء، وأن المكرم فيها له مطلق السعادة، لما توجه بالحسد لأي مظهر من مظاهرها وكان من الزاهدين فيها الراغبين بتلك الدار.والحسد صفة مذمومة وإنها تحرق الحسنات كما تحرق النار الحطب، فعلى المرء أن يتجنب هذه الصفة لكي يتجنب الوقوع في أخطر المهلكات، والحسد هي من الصفات البغيضة التي تشكل أهم أركان الإجرام الذي يحشر صاحبها من ضمن الموسومين باللون الأزرق.

أما صفة الغضب التي تتسم بها النفس الأمارة بالسوء، فهي من أسوأ الصفات، والصفة الغضبية هي من الصفات التي يذمها الحق تعالى، كما جاء في قوله تعالى: **(وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)** [الأنبياء: 87]، ذلك لأن صفة الغضب من الصفات الجلالية التي لا تليق إلا بعزته وكبريائه، ولا يجوز أن يظهر بها العبد إلا إذا كان غضبه لله تعالى، أما إذا ظهرت عليه صفة الغضب ثأرا لنفسه، أو لغيره بدون حق، فإنها من الصفات المذمومة التي لا يستحسنها الحق تعالى، والغضب يجب أن يكون بالله تعالى، فيغضب العبد لغضبه، ويرضى العبد لرضاه، يقول تعالى: **(ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ)** [آل عمران: 112].

اللون السمائي وبلوغ مستوى الاطمئنان

اللون السمائي لغة

جاءت تسمية اللون السمائي نسبة إلى لون السماء، والسماء تعني في اللغة كما يراها الراغب: (سماء كل شيء: أعلاه، قال الشاعر في وصف فرس:

وأحمر كالديباج أما سماؤه فريـاً وأما أرضه فمحول

قال بعضهم: كل سماء بالإضافة إلى ما دونها فسماء، وبالإضافة إلى ما فوقها فأرض إلا السماء العليا فإنها سماء بلا أرض، وحمل على هذا قوله: (**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**) [الطلاق: 12] وسمي المطر سماء لخروجه منها.) (الأصفهاني، الراغب: 1437هجري، ص 427)

اللون السمائي اصطلاحاً

يعرفه الباحث إجرائيا: اللون السمائي: هو اللون الذي ينجم عن امتّزاج اللون الأزرق مع اللون الأبيض، وقد ارتبط هذا اللون بدلالته بمدلول السماء، وهو من أكثر الألوان شيوعا في الطبيعة، وله من المدلولات الروحية الشيء الكثير سيعرض لها الباحث في هذا المبحث.

يقول الغزالي: (لقد خلق الله السماء وجعل لونها من أشد الألوان موافقة للأبصار وتقوية لها، ولو كانت أشعة أو أنوارا لأضرت الناظر إليها. فإن النظر إلى الخضرة والزرقة موافق للأبصار، وتجد النفوس عند رؤية السماء في سعتها نعيما وراحة لا سيما إذا انفطرت نجومها وظهر نور قمرها، والملوك تجعل في سقوف مجالسها من النقش والزينة ما يجد الناظر إليه به راحة وانشراحا، لكن إذا داوم الناظر إليه نظره وكرره مله وزال عنه ما كان يجده برؤيته من البهجة والانشراح، بخلاف النظر إلى السماء وزينتها، فإن الناظر إليها من الملوك فمن دونهم إذا ضجروا من الأسباب المضجرة لهم يلجئون إلى ما يشرحهم من النظر إلى السماء وسعة الفضاء، وقد قالت الحكماء: يحذوك عندك من الراحة والنعيم في دارك بمقدار ما عندك فيها من

السماء، وفيها أنها حاملة لنجومها المرصعة ولقمرها وبحركتها تسير الكواكب فتهتدي بها أهل الآفاق وفيها طرق لا تزال توجد آثارها من المغرب والمشرق ولا توجد مجردة ولا مقبلة صورة نور. وقيل: إنها المشار إليها في قوله تعالى: (**وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ**) [الذاريات: 7] قيل: الحبك الطرق، وقيل ذات الزينة فهي دلائل واضحة تدل على فاعلها وصنعته محكمة صمدية تدل على سعة علم بارئها وأمور ترتيبها كما تدل على إرادة منشئها فسبحان القادر العالم المريد، وقيل: في النظر إلى السماء عشر فوائد: تنقص الهم، وتقلل الوسواس، وتزيل وهم الخوف، وتذكر بالله، وتنشر في القلب التعظيم لله، وتزيل الفكر الرديئة وتنفع لمرض السوداء، وتسلي المشتاق وتؤنس الحبين، وهي قبلة دعاء الداعين) (الغزالي، أبي حامد: 2003، ص8)

هذا يعني أن اللون السمائي له من الدلائل ما يقربه من الفوائد العشرة التي ذكرها الغزالي، فمن دلائله أنه مزيل للهم أي يدل على البهجة الروحية، والراحة النفسية، والاطمئنان، وتقليل الوسواس، أي: يساعد اللون السمائي على طرد الأوهام، والخيالات الفاسدة التي يبثها الوسواس الخناس في المخيلة، وكأن اللون السمائي يسهم في طرد الوهم، والخيال الفاسد من الفكر فيغدو صافيا نقيا من الشوائب، ويزيل وهم الخوف، لأن حقيقة الخوف يجب أن يكون من الله تعالى، أما الخوف من غيره فهو ضرب من الوهم، ذلك لأن الضر والنفع قائمان بالله تعالى، فلا ضارة يمكن أن تقع خارج إرادة الله تعالى، وبذلك فإن الخوف يجب أن يكون ملازم للعبد من مقام الحق تعالى على أن يلازم هذا الخوف حسن الظن بالله تعالى بملازمة الرجاء، كما جاء في قوله تعالى: (**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**) [النازعات:40 ـ 41] وقوله تعالى في الرجاء: (**وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً**) [الإسراء: 57].

كما أن من دلائل اللون السمائي من كونه يذكر بالسماء، وسعتها، وعظمتها، وهذا ما يسهم إلى جر الذهن إلى تذكر عظمة الخالق وذكره على الدوام، فإنه يدعوا إلى نوع من المرابطة مع الله تعالى واستدعاء عظمة الحق

في القلب، وهذا مما يؤدي إلى رجم الأفكار الرديئة التـي يبثهـا الوسـواس الخناس في القلب والتي من شأنها تبعد العبد عن المرابطة مع الحق تعـالى، كما أن هذا اللون يذكر بالسعة المضادة للتضيق وهي صفة حسنة إذا لازمت الإنسان واتصف بها في حياته اليومية وفي تعامله مع الآخر وهناك الكثيـر من الفوائد التي يمكن أن يستحضرها الإنسان خلال تأمله وتفكره في السماء أو اللون السمائي، قال تعالى: (**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ**) [آل عمران: 190].

يقع اللون السمائي بين لونين هما اللون الأبيض واللون الأزرق، وبـذلك يعد حاملا لدلالة تتوسط بين دلالة المرتبتين، فالأبيض له من الدلالة الجـود، والتوكل، والحكم، والعبادة، والشكر، والرضا، في حين أن للون الزرق دلالة البخل، والحرص، والأمل، والكبر، والشهرة، والحسد، والغفلة. وهذا يعنـي أن البخل في اللون السمائي قد ترقى صاحبه إلى مستوى معين مـن الكـرم والجود بحيث أصبح متسما بصفات غير صفات البخل، وهـذا ترقـي عـن مرتبة الأزرق ومغادرة له بشكل كامل، فيكون صاحب اللون السمائي أقرب إلى الله ومحبوبا من قبله لتخليه عن صفات الأزرق نتيجة لمحبته بالله، أمـا الحرص في الأزرق، وهي من الصفات الذميمة كذلك فإنها هـي الأخـرى تكون قد أفلت من صاحب اللون السمائي بعد أن اتصف صاحب هذا المقـام بصفات جديدة هي الأقرب إلى الله تعالى، أما الأمل عنـد صـاحب اللـون السمائي فقد تحول من أمل وتمسك بالحياة الدنيا إلى أمل برضـا الله تعـالى ومحبة بالدار الآخرة، أي تمسك بما عند الله تعالى، قـال تعـالى: (**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْـرٌ أَمَلاً**) [الكهف: 46] فالأمل الذي كان متوقفا مع المال وتطويره أصـبح الآن بفعل المقام الذي بلغه العبد من الأشياء التي تستحق الزهد فيها، ومن ثم على العبد أن يتجه إلى الرحمة الإلهية ويسعى إليها ويأمل على التواصل معهـا، وهذا ما يحصل مع صاحب النور السمائي، أما الكبر الذي اتصف به اللـون الأزرق فقد تحول لدى صاحب اللون السمائي إلى مستوى لا بأس بـه مـن التواضع ليكون الأقرب إلى الله تعالى، ذلك لأن التكبر أحد أهم أسباب عمى

البصيرة والتوجه إلى الحق تعالى لأن صاحب هذه الصفة يفوته الشيء الكثير من جهة الحق تعالى، وهذا عين العمى وفقدان البصيرة.

أما الشهرة التي هي من صفات الأزرق الذي يسعى من خلالها التفاخر بين الناس، والظهور بمظهر الاستعلاء، فقد تحولت لدى صاحب اللون السمائي إلى شكل من أشكال الخوف من الله تعالى، وما عاد صاحب الشهرة إلا اللجوء سرا لتبني السبل التي تكفل له رضا الحق تعالى، فيكون عمله في الخفاء إيجابيا.

أما الحسد الذي يؤدي بصاحبه إلى الوقوف مع ملذات الدنيا والاحتجاب بالتعجب بما عند الناس، فيؤدي به هذا الحسد إلى احتراق حسناته كما جاء في الحديث الشريف: (**إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**)، فيتحول لدى صاحب اللون السمائي إلى السمو عن هذه الصفة لتخليه عن مغريات الحياة الدنيا، وتمسكه بما عند الحق تعالى. أما الغفلة التي كانت ترافق صاحب اللون الأزرق نتيجة تمسكه بمغريات الحياة الدنيا، فإنها تتحول لدى صاحب اللون السمائي إلى تذكر قائم بالحق تعالى لا يغفل عن الحق طرفة عين، فيكون من غير الموصوفين بقوله تعالى: (**لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**) [الأعراف: 179].

لقد جعل الله تعالى لون السماء سمائي بهذه المساحة الواسعة لأنه أحب الألوان إليه، وهو يذكر باستمرار بمبدأ السمو والرفعة، فهو أشبه ما يكون من دعوة مفتوحة للناس يدعوهم إلى الترفع والسمو عما يشاهدونه في الحياة الدنيا، وعليهم الاكتفاء بالمهم والضروري منها، والتوجه إلى ما هو عند الحق تعالى.

فالسمائي هو لون الرسالة المفتوحة التي توجهت بها الرحمة الإلهية إلى الإنسانية، والتي تدعوهم وتحثهم باستمرار إلى ضرورة تبني طريق الحق تعالى من أجل تحصيل الكمال اللائق بالسمو من مستوى أسفل سافلين إلى مستوى أحسن تقويم.

الأخضر لغة

يعرفه الفيروزابادي: الأخضر هو لون بين السواد والبياض، وإلى السواد أقرب. ولهذا سمي الأسود أخضر، والأخضر أسود. وسواد العراق للموضع الذي يكثر فيه الخضرة، وسمي الخضرة بالدهمة في قوله تعالى: (**مُدْهَامَّتَانِ**) [الرحمن: 64] أي خضراوان. وخضراء الدمن مفسر في الحديث بالمرأة الحسناء في المنبت السوء. وفي الحديث سمي الخَضِرُ خَضِرا، لأنه جلس في فروة بيضاء، فاهتزت تحته خضراء، والفروة: الأرض البيضاء التي لا نبات فيها. (الفيروزابادي: ب ت، ج2، ص135)

وهذا يعني أن الدهمة هو الأخضر الغامق كما هو معروف في الاصطلاح الحديث، ويضيف الفيروزابادي: والدهمة ـ بالضم ـ سواد الليل، ويعبر بها عن سواد الفرس، وعن الخضرة التامة اللون، كما يعبر عن الدهمة بالخضرة إذا لم تكن تامة اللون، وذلك لتقاربهما في اللون، قال تعالى (**مُدْهَامَّتَانِ**) [الرحمن: 64] وبنائهما من الفعل مفعال، وقد ادهام ادهيماما. (الفيروزابادي: نفسه: ص 612)

ويرى الراغب: (قال تعالى: (**فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً**) [الحج: 63] ويقول تعالى: (**وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ**) [الكهف: 31]، فخضر جمع أخضر، والخضرة: أحد الألوان بين البياض والسواد، وهو إلى السواد أقرب، ولهذا سمي الأسود أخضر، والأخضر أسود قال الشاعر:

قد أعسف النازح المجهول معسفه

في ظل أخضر يدعوا هامه البوم

وقيل: سواد العراق للموضع الذي يكثر فيه الخضرة، وسميت الخضرة بالدهمة، والمخاضرة: المبايعة على الخضر والثمار قبل بلوغها، والخضيرة: نخلة ينتشر بسرها أخضر.) (الأصفهاني، الراغب: 1437هجري، ص285)

الأخضر يعرفه الباحث إجرائيا: هو اللون الذي يتولد من امتزاج اللـون الأصفر الليموني والأزرق بنسب متساوية هذا من الناحية الكيميائية، أما من الناحية الضوئية فهو لون يتولد من تحليل النور الأبـيض خـلال مـروره بموشور زجاجي كما هو الحال في ألوان الطيف الشمسي، وهو من الألـوان الجميلة له دلالات روحانية عديدة في القرآن، والفكر الصوفي سيعرض لهـا الباحث.

قال تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ) [يـس: 80]

وقال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَـا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِـى ثَمَـرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [الأنعام: 99]

وقال تعالى:

(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَـافٌ وَسَـبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) [يوسف: 43]

وقوله تعالى:

(أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِـينَ فِيهَـا عَلَـى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً) [الكهف: 31]

وقوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّـهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) [الحج: 63]

وقوله تعالى:

(مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ) [الرحمن: 76]

وقوله تعالى:

(عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً) [الإنسان: 21]

وقوله تعالى:

(مُدْهَامَّتَانِ) [الرحمن: 64]

في هذه الآيات الكريمة يكون حضور الأخضر خاضعا لحقيقتين، الأولى: يكون الأخضر فيها له وجود مؤقت وزائل لأنه ارتبط ارتباطا وثيقا بالحياة الدنيا، وكأن اللون الأخضر في الحياة الدنيا يطلب منا الحق تعالى أن نتأمله، ولا نقف معه في الحياة الدنيا بل يتعدى طلبنا له إلى الحياة الآخرة أو إلى دار الخلود فالدعوة هنا توجهت لنا من أجل الميل التصاعدي، وذلك على العكس من التجربة التي خاضها أبونا آدم عليه السلام، فهو حين أنزله الحق تعالى في الجنة وشاهد لون خضرتها الدائم لم يدرك حقيقة جمالها إلا عندما أبعده الحق تعالى عنها وأنزله الأرض التي وجد فيها كل شيء مختلف عن حقيقة الجنة التي كان يسكنها فأخذه الندم على كل ذلك، فهام في الأرض حزنا على فعلته وأجرى من الدمع الشيء الكثير حتى غفر له تعالى بقوله تعالى: **(فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)** [البقرة: 37] هذا يعني أن رحلة آدم عليه السلام مع اللون الأخضر قد بدأت من الجنة إلى الأرض وحين أدرك آدم عليه السلام أن الأخضر الأرضي غير دائم وهو زائل ومتغير في الوقت نفسه أصابه الندم على فعلته التي أدت به إلى النزول لعالم الفساد والتغير فعاود البحث مرة أخرى على مخرج يخرجه من عالم أسفل سافلين وما يحدث فيه ليعود إلى عالم الجنة وهو الموطن الأصلي، فاللون الأخضر هنا يمثل لنا دعوة للتخلي والتحلي، أي: نتخلى عن الوقوف مع اللون الأخضر الأرضي لنحصل على اللون الأخضر في الجنان لأصالة الأخير وعدم تغيره أو تعرضه للفساد، فاللون الأخضر هنا أصبح وسيلة

أغراء وأداة جذب باتجاهين، فبالآخرة يدعوك هذا اللــون ويغريــك باتجــاه تحصيله، وفي الدنيا يدعوك هذا اللون ويغريك إلى تحصيله والوقوف معــه، وليس عليك إلا الاختيار الصحيح، فالأخضر الأرضي تأملــه جيــدا وتأمــل المصير الذي يؤول إليه فمصيره إلى الزوال والرجوع إلى أصله الترابي قال تعالى: (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْــأَرْضِ ثُــمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَــابِ**) [الزمر: 21] أي: أن التعلق بالأخضر الدنيوي لا يؤدي بالمرء إلا إلى الخذلان لأنه يرجع إلى أصله الطيني، في حــين أنهــا يجب أن تتعلق الروح بالجهة التي جاءت عنها، وهي الجنة أو عالم اللاهوت ؛ لأن ذلك العالم هو عالمها الأصلي الذي تنزلت عنه،كما أن مــن صــفات الأخضر الدنيوي كونه قابل للنار والإحراق، فزواله، وتحولــه يــتلاءم مــع طبيعة هذه الحياة التي جعلها تعالى دار مؤقتة، فكل شيء فيهــا غيــر دائــم ومتحول، فهي ليست دار قرار، قال تعالى: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**) [فاطر: 5]، فدلالة تغير اللون الأخضر فيها تدريجيا إلى لون التراب هي إشارة وآية منه تعالى لنا تفيد عدم المراهنة على الحيــاة الدنيا أو الوقوف معها، لأنها متغيرة وزائلة كما دلت عليها أشيائها الظــاهرة في الطبيعة.

قوله تعالى: (**الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَــإِذَا أَنــتُم مِّنْــهُ تُوقِدُونَ**) وقوله تعالى: (**وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَــاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً**) وقوله تعالى: (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً**) إن من الملاحظ فــي هذه الآيات التي ارتبطت بالحياة الدنيا أن كل شيء فيها متغير من حال إلــى حال فلا ثبات لشيء فيها، فهي دار التجليات التي لها أولية وآخريــة علــى العكس تماما من دار الآخرة، فإن الأخضر الذي ارتبط ارتباطا وثيقــا بــدار الآخرة، وهي دار السعادة كما جاء في قوله تعالى: (**أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَــدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَــسُونَ ثِيَابــاً خُضْراً مِّن سُندُسٍ**) وقوله تعالى: (**مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْــرَفٍ خُــضْرٍ وَعَبْقَــرِيٍّ**

حِسَانٍ) وقوله تعالى: (**عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً**) وقوله تعالى: (**مُدْهَامَّتَانِ**)، فإن هذا الصنف من الخضار متشابه وغير متشابه مع الخضار الدنيوي متشابه من حيث اللونية، وغير متشابه من حيث الديمومة، متشابه من حيث اللون وغير متشابه من حيث التحولات التي تطرأ على اللون الأخضر في الحياة الدنيا، أي من كونه دائم الخضرة، تماما كما جاء في وصف ثمار الجنة في خطابه تعالى: (**وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) [البقرة: 25] ويمتاز اللون الأخضر في الجنة من كون خضرته تامة كما جاء في وصفها بقوله تعالى: (**مُدْهَامَّتَانِ**) أي: أنه يميل إلى الدكنة.

وكأن الحق تعالى أراد لنا أن نتأمل بشكل جيد ما يقع أمام الحس، وما يصفه تعالى في جناته فنختار الأجمل من كلا الوصفين، وإذا كان الوصف الثاني مغيب عن الحس فهذا لا يعني عدم وجوده، فإن الله تعالى قادر أن يجعل الأرض الصحراء خضراء بعد إرساله للمطر، كما أنه قادر أن يجعل منطقة أخرى رطبة طوال السنة خضراء دائمة الخضرة كما هو الحال في بعض المناطق الشمالية، فكذلك الحال في عالم الآخرة أن يجعل تعالى نباتها موصوفا بهذا الوصف الجميل.

وقد ورد اللون الأخضر في رؤيا الملك، والرؤيا قابلة لتأويلات متعددة وسيعرض الباحث لبعض تأويلات المتصوفة.

يرى القشيري في تأويله لقوله تعالى: (**الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ**) لقد مهد تعالى لهم سبل الاستدلال، وقال إن الإعادة في معنى الإبداء، فأي إشكال بقى في جواز الإعادة في الانتهاء ؟ وإن الذي قدر على خلق النار في الأغصان الرطبة من المرخ والعفار قادر على خلق الحياة في الرمة البالية، ثم زاد في البيان بأن قال: إن القدرة على مثل الشيء كالقدرة عليه لاستوائهما بكل وجه، وإنه يحي النفوس بعد موتها

في العرصة كما يحيي الإنسان من النطفة، والطير من البيضة، ويحي القلوب بالعرفان لأهل الإيمان كما يميت نفوس أهل الكفر بالهوى والطغيان. (القشيري، عبد الكريم: 1999، ج5 ص 229)

أما البروسوي فيذهب في تأويله للآية: **(الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً)** بدل من الموصول الأول وعدم الاكتفاء بعطف الصلة للتأكيد ولتفاوتهما في كيفية الدلالة. والشجر من النبت: ما له ساق والخضرة أحد الألوان بين البياض والسواد وهو إلى السواد أقرب فلهذا سمي الأسود أخضر والأخضر أسود، وقيل سواد العراق للموضع الذي تكثر فيه الخضرة ووصف الشجر بالأخضر دون الخضراء نظرا إلى اللفظ فإن لفظ الشجر مذكر ومعناه مؤنث لأنه جمع شجرة كثمر وثمرة والجمع مؤنث لكونه بمعنى الجماعة، والمعنى خلق من أجلكم ومنفعتكم من الشجر الأخضر، قال الحكماء: لكل شجر نار إلا العناب فمن ذلك يدق القصار الثوب عليه ويتخذ منه المطرقة والعرب تتخذ زنودها من المرخ والعفار وهما موجودان في أغلب المواضع من بوادي العرب يقطع الرجل منهما غصنين كالمسواكين وهما أخضران يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فتنقدح النار بإذن الله تعالى وذلك قوله تعالى: **(فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ)** إذا للمفاجأة والجار متعلق بتوقدون والضمير راجع إلى الشجر أي: تشعلون النار من ذلك الشجر لا تشكون في أنها نار تخرج منه كذلك لا تشكون في أن الله تعالى يحيي الموتى، ويخرجهم من القبور للسؤال، والجزاء، والثواب، والعقاب فإن من قدر على إحداث النار، وإخراجها من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفية كان أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضا فطرأ عليه اليبوسة، والبلى، وعلم منه أن الله تعالى جامع الأضداد ألا ترى أنه جمع الماء والنار في الخشب فلا الماء يطفيء النار، ولا النار تحرق الخشب، وفي الآية إشارة إلى شجرة أخضر البشرية، ونار المحبة فمصباح القلوب إنما يوقد منه، قال بعض الكبار: ظاهر البدن من عالم الشهادة، والقلب من عالم الملكوت، وكما تنحدر من معارف القلب آثار إلى الجوارح التي هي من عالم الشهادة آثار إلى القلب، والحاصل أنه ينقدح

الظاهر بالأعمال فيحدث منها نور يتنور به البال ويزيد الحال. (البروسوي: 2003، ج7، ص436)

ويرى ابن عجيبة الحسني في تأويله للآية: (**الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ**) فيها ذكر وبرهان لإحيائه الموتى (**نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ**) تقدحون، ولا تشكون أنها نار خرجت منه، فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر، مع ما فيه من المائية، المضادة للنار، كان أقدر على إيجاد الحياة والغضاضة فيما غضا ويبس، وهي الزناد عند العرب، وأكثرها من المرخ والعفار، وفي أمثالهم، وكان الرجل يقطع منهما غصنين مثل السواكين، وهما خضراوان، يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ ـ وهو ذكر ـ على العفار ـ وهي أنثى ـ فينقدح النار، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ليس من الشجر شجرة إلا وفيها نار، إلا العناب، لمصلحة الدق للثياب. (الحسني: ابن عجيبة: 2005، ج 6، ص 162)

أما في قوله تعالى: (**وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**) [الأنعام: 99]

فيرى ابن عربي في تأويله: (**وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ**) من سماء الروح ماء العلم (**فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ**) كل صنف من الأخلاق والفضائل (**فَأَخْرَجْنَا**) من النبات هيئة خضرة النفس وزينة حسنة جميلة وبهجة بالعلم والخلق (**نُّخْرِجُ**) من تلك الهيئة والنفس الطرية الغضة أعمالا مترتبة شريفة مرضية، ونيات صادقة يتقوى بها القلب، ومن نخل العقل من ظهور تعلقها معارف وحقائق قريبة التناول لظهورها بنور الروح كأنها بديهية (**وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ**) الأحوال والأذواق وخصوصا أنواع المحبة القلبية المسكر عصيرها وسلافها، وزيتون التفكر، ورمان التوهمات الصادقة التي هي الهمم الشريفة، والعزائم النفسية (**مُشْتَبِهاً**) بعضها ببعض كالتعلقات والتفكرات والمعارف والحقائق والأعمال

والنيات وكمحبة الذات ومحبة الصفات **(وغير متشابه)** كأنواع المحبة مع الأعمال مثلا، أو مشتبها في رتبتها وقوتها وضعفها وجلائها وخفائها وغير متشابه فيه (انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ) وراعوه بالمراقبة عند السلوك وبدء الحال، وليكن نظركم من اللذات إلى هذه الثمرات **(وَيَنْعِهِ)** وكماله عند الوصول بالحضور **(إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)** بالإيمان العلمي، ويوقنون هذه الآيات والأحوال التي عددناها. (ابن عربي: 2001، ج1، ص211)

في حين يرى القشيري في تأويله للآية: أن تجانس الأرض وتوافق أقطار الكون، وتباين النبات في اللون والطعم واختلاف الأشياء، ودل كل مخلوق بلسان فصيح، وبيان صريح أنه بنفسه غير مستقل. (القشيري: 1999، ج2، ص 177)

ويرى البروسوي أن الإشارة في هذه الآية مفادها إن الله تعالى ينزل من سماء العناية ماء الهداية فيخرج به أنواع المعارف والأسرار على حسب مراتب أهل الزهد والفتوى وأهل العشق والتقوى إذ القلب كالروضة ينشأ منه ما هو مستعد له وكل نبت يترجم عن ترابه، والنخل أعلى من غيره، ولهذا يقال إنه إشارة إلى أصحاب الولايات فمن ثمرات ولايتهم ما هو متدان للطالبين والمريدين يعني منهم من يكون من يكون مربيا فينتفع بثمرات ولايته ومنهم من يختار العزلة والانقطاع من المتمسكين به وجملة شؤونهم ناظرة إلى أمر الله تعالى وإذنه لذا لا يطعن فيهم إلا جاهل وهم في خلوتهم وجلواتهم يتفكهون من روضات القلوب ويتلذذون بلذائذ حبات الغيوب وأمرهم مستور عن الخلق وأعينهم. (البروسوي: 2003، ج3، ص79)

في حين يرى ابن عجيبة أن الإشارة في هذه الآية مفادها أن من كحل عينه بإثمد التوحيد، غرق الكائنات كلها في بحر التوحيد والتفريد، فكل ما يبرز لنا من المظاهر والمطالع، ففيه نور من جمال الحضرة ساطع، ولذلك قال ابن الفارض:

عيني لغير جمالكم لا تنظر وسواكم في خاطري لا يخطر

وقال الششتري:

انظر جمالي شاهدا في كل إنسان
كالماء يجري نافذا في أس الأغصان
يسقى بماء واحد والزهر ألوان

وقال صاحب العينية:

تجلى حبيبي في مرائي جماله ففي كل مرئى للحبيب طلائع
فلما تبدى حسنه متنوعا تسمى بأسماء فهن مطالع

فما برز في عالم الشهادة هو من عالم الغيب على التحقيق، فرياض الملكوت فائضة من بحر الجبروت، (**كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان**)، ولا يعرف هذا ذوقا إلا أهل العيان، الذين وحدوا الله في وجوده، وتخلصوا من الشرك جليه وخفيه. (الحسني، ابن عجيبة: 2005، ج2، ص288-289)

أما قوله تعالى:

(**أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ من ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً**) [الكهف: 31]

يرى ابن عربي في تأويل له لهذه الآية الكريمة أن من يعمل الصالحات فلهم أجرهم وإن الأجر يستحق بالعمل دون العلم، إذ به يستحق ارتفاع الدرجة والرتبة (**جَنَّاتُ عَدْنٍ**) من الجنات الثلاث (**يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ**) أي: يزينون فيها بأنواع الحلي من حقائق التوحيد الذاتي ومعاني التجليات العينية الأحدية، إذ الذهبيات من الحلي هي العينيات والفضيات هي الصفاتيات النورانيات كقوله (**حُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ**) [الإنسان: 21] (**وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً**) يتصفون بصفات بهيجة، حسنة نظرة، موجبة للسرور(**مِّن سُندُسٍ**) الأحوال والمواهب لكونها ألطف (**وَإِسْتَبْرَقٍ**) الأخلاق والمكاسب لكونها أكثف (**مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى**) أرائك الأسماء الإلهية التي هي

مباديء أفعاله لاتصافهم بأوصافه وكون الصفة مع الذات هي الاسم المستند هو عليه في جنة الصفات والأفعال (**نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً**). (ابن عربي: 2001، ج1، ص405)

لقد أعطى ابن عربي للون الأخضر دلالة البهجة والحسن والنظرة الموجبة للسرور وهي بلاشك دلالات دائمة ومطلقة لأهل الجنة وهي تختلف عن الخضرة، ودلالاتها في عالم الدنيا مع كونها جميلة، وحسنة، وذات بهجة لكنها مع ذلك تبقى مؤقتة.

ويرى ابن عطاء في تأويله للآية: على أرائك الأنس في القدس في حجاب القرب وميادين الرحمة، مشرفين على بساتين الوصلة، يشاهدون مليكهم في كل حال. (اليسوعي، بولس نويا: 1986، ص83)

ويرى القشيري في تأويل قوله: (**أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ**) أولئك هم أصحاب الجنان، في رغد العيش، وسعادة الجد، وكمال الرقد، يلبسون حلل الوصلة، ويتوجون بتاج القربة، ويحملون على المباسط، ويتكئون على الأرائك، ويشمون رياحين الأنس، ويقيمون في مجال الزلفة، ويسقون شراب المحبة، ويأخذون بيد الزلفة ما يتحفهم الحق به من غير واسطة، ويسقيهم شرابا طهورا يطهر قلوبهم عن محبة كل مخلوق، (**نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً**) نعم الثواب ثوابهم، ونعم الرب ربهم، ونعم الدار دارهم، ونعم الجار جارهم، ونعم الحال حالهم. (القشيري: 1999، ج4، ص64–65)

وهذا يعني أن القشيري قد تطابق إلى حد ما في تحديد ملامح دلالات اللون الأخضر متفقا مع ما ذهب إليه ابن عربي، عادا اللون الأخضر صفة من صفات السعادة الأبدية من كونه اصطبغت به بعض أشياء الجنة، فهو من خلال هذا الوصف لون يوحي للسعادة المطلقة، والسرمدية الهانئة، وهو من ألوان الآخرة، وإن وجوده في الدنيا لا يراد به أن نقف معه، لأن الخضار في الحياة الدنيا قابل للفساد، والخراب، وهو هنا يشكل وجود إحالة، أي: أنه يحيلنا ويغرينا للبحث عن خضار أكثر ديمومة، وأكثر نفعا، وأكثر رقة وهذه

المواصفات لا توجد إلا في الحياة الآخرة من هنا يجب على كل محبي أو طالبي هذا اللون الجميل أن يعملوا في الحياة الدنيا بشكل صحيح ليكفلوا بذلك، ويضمنوا الحصول على مرادهم في الجنة.

ويرى البروسوي في تأويله لقوله تعالى: (**وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً**) ؛ وذلك لأن الخضرة أحسن الألوان، وأكثرها طراوة، وأحبها إلى الله تعالى (**مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ**) ما رق من الديباج، وما غلظ منه، والديباج الثوب الذي سداه ولحمته ابريسم واستبرق ليس باستفعل من البرق كما زعمه بعض الناس بل معرب استبره جمع بين النوعين للدلالة على أن لبسهما مما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين. أعلم أن لباس أهل الدنيا إما لباس التحلي وإما لباس الستر فأما لباس التحلي فقال تعالى في صفته: (يحلون) وأما لباس الستر فقال تعالى في صفته (ويلبسون) الآية فإن قيل ما السبب في أنه تعالى قال في الحلي يحلون على فعل ما لم يسم فاعله والمحلي هو الله أو الملائكة وقال في السندس والاستبرق، ويلبسون بإسناد اللبس إليهم، قلنا يحتمل أن يكون اللبس إشارة إلى ما استوجبوه بعلمهم بمقتضى الوعد الإلهي، وأن يكون الحلي إشارة إلى ما تفضل الله به عليهم تفضلا زائدا على مقدار الوعد، وأيضا فيه إيذان بكرامتهم، وبيان أن غيرهم يفعل بهم ذلك، ويزينهم به بخلاف اللبس فإنه يتعاطاه بنفسه شريفا، وحقيرا، يقول الفقير: لا شك أن لباس الستر يلبسه المرء بنفسه ولو كان سلطانا فلذا أسند إليه وأما لباس الزينة فغيره يزينه به عادة كما يشاهد في السلاطين والعرائس ولذا أسند إلى غيره على سبيل التعظيم والكرامة، قال في التأويلات النجمية: إن لأهل الإيمان والأعمال جزاء يناسب صلاحية أعمالهم وحسنها، فمنها أعمال تصلح للسير بها إلى الجنات وغرفها، وهي الطاعات والعبادات البدنية بالنية الصالحة على وفق الشرع والمتابعة، ومنها أعمال تصلح للسير إلى الله تعالى وهي الطاعات القلبية من الصدق في طلب الحق والإخلاص في التوحيد وترك الدنيا، والإعراض عما سوى الله، والإقبال على الله بالكلية، والتمسك بذيل إرادة الشيخ الكامل الواصل المكمل الصالح ليسلكوا ولا يغتر بالأماني فإن من زرع الشعير لا يحصد حنطة.(البروسوي: 2003، ج5، ص245–246)

ويرى الباحث أن التحلية في الملبس ربما يهبها الحق للذين تخلوا عن زينة الملبس في الحياة الدنيا وتحلوا بثياب الفقراء (كالمرقعة وسواها) ولم يأبهوا بما يفخر به الناس من مظاهر الترف والزينة، وكان هدفهم رضا الحق تعالى في كل شيء، فكان جزاء الحق لهم أن يجعلهم يتحلون بهذا اللباس الأخضر الجميل تمييزا لهم عن سواهم من أهل الجنان.

ويرى ابن عجيبة إن الإشارة في هذه الآية مفادها: إن الذين آمنوا إيمان الخصوص، وعملوا الأعمال التي تقرب إلى حضرة القدوس، وهي تحمل ما يثقل على النفوس، أولئك لهم جنات المعارف، تجري من تحت قلوبهم أنهار العلوم والمواهب، يحلون فيها بمقامات اليقين، ويلبسون ثياب العز والنصر والتمكين، متكئين على سرر الهنا والسرور، وقد انقضت عنهم أيام المحن والشرور، جعلنا الله فيهم بمنه وكرمه. (الحسني، ابن عجيبة: 2005، ج4، ص، 159-160)

وقوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) [الحج: 63]

فإذا أردنا أن نقارن بين لطافة المعاني الموهوبة من لدن الحق تعالى في الدارين فإنه تعالى يهب أوليائه في دار الدنيا من رقائق المعاني، والفيض الأقدس من سماء العندية بمطر اللطائف اللدنية فتصب في قلوب أوليائه، وأصفيائه، وأحبابه فتخضر بأنواع المعاني، والكمالات اللدنية، وألوان الفضائل حتى ليصبح العبد بفضل هذا العطاء الأقرب من مقام الفناء في الوحدة الذاتية، فكذلك الحال مع العطاء الإلهي في الآخرة فهو من هذا القبيل ولديه المزيد ولا راد لكرمه ولطفه تعالى.

إن هذه الآية هي من جملة الآيات التي أراد الحق تعالى أن يريها للناس، وهذا الأفق الحامل للآية هو من جملة الآفاق التي جعل فيها الحق تعالى آياته ليراها الناس فيعتبروا بها ويطلبوا الحق تعالى، قال تعالى: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى**

كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [فصلت: 53] فالخضرة التي تظهر نتيجة المطر بشكل عابر قادر أن يظهرها الحق تعالى في الآخرة بشكل دائم، وإن الجمال الذي تتركه الخضرة فينا بشكل موسمي قادر أن يجعله الحق تعالى في الآخــرة بــشكل دائمي، فعلى الإنسان أن يعتبر بذلك.

ويذهب السلمي في تأويله للآية: أنزل مياه الرحمة من ســحائب القربــة ففتح إلى قلوب أوليائه وعباده عيونا مــن مــاء الرحمــة فأنبــت المعرفــة فاخضرت القلوب بزينة المعرفة وأثمرت الإيمان، وأينعت التوحيد، وأضاءت بالمحبة فهامت إلى سيدها، واشتاقت إلى ربها فطارت بهمتها فأناخــت بــين يديه، وعطفت عليه، وأقبلت إليه، وانقطعت عن الأكوان أجمع إذ ذاك آواهــا الحق إليه، وفتح لها خزائن أنواره، وأطلق لها القتــرة فــي بــساتين الحــق ورياض الشوق والأنس. (السلمي: 2001، ج2، ص 26-27)

أما القشيري فيرى في تأويله: إن ماء السماء يحي الأرض بعد موتهــا، وماء الرحمة يحي أحوال أهل الزلة بعد تركها، وماء العناية يحيــي أحــوال الروح بعــد زوال رونقهــا، ومــاء الوصــلة يحيــي أهــل القربــة بعــد نضوبها.(القشيري: 1999، ج4، ص228)

في حين يرى ابن عجيبة أن الإشارة في هذه الآية مفادها أن الحق يأمر المتلقي فيقول له: ألم تر أن الله أنزل من سماء المعاني ماء علــم الغيــوب، وهو علم أسرار الذات وأنوار الصفات، أعني: التوحيد الخاص، فــإذا نــزل على أرض النفوس، اهتزت وربت، وأخضرت بــالعلوم والمعــارف، إن الله لطيف خبير، لطيف، لسريان معانيه اللطيفة في كل شيء، خبير ببواطن كل شيء، فمن كوشف بلطيف معانيه وإحاطة علمه في كل شيء، وبكل شــيء، حيي قلبه بمعرفة الله، وأخضرت أرض نفسه بــأنواع العلــوم والمعــارف. (الحسني، ابن عجيبة: 2005، ج4، ص، 431)

ويقول تعالى:

(مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ) [الرحمن: 76]

يرى ابن عربي في تأويله للآية: (**مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ**) الرفرف نوع من الثياب عريض، لطيف في غاية اللطافة، والمراد: نور الذات الذي هو في غاية البهجة واللطافة أو نور الصفات حال البقاء بعد الفناء والاستناد إلى صمدية الوجود المطلق والتحقق به (**وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ**) العبقري في اللغة: ثوب غريب منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه بلد الجن، أي: الوجود الموهوب الحقاني الغريب الموصوف بصفاته المتجلية في غاية الحسن الذي هو منسوب إلى عالم الغيب بل غيب الغيب الذي لا يعلم أحد أين هو. (ابن عربي: 2001، ج2، ص309)

ويقال: (**مُتَّكِئِينَ**) حال صاحبه محذوف يدل عليه الضمير في قلبهم (**عَلَى رَفْرَفٍ**) إما اسم جنس أو اسم جمع واحده رفرفة قيل هو ما تدلى من الأسرة من عالي الثياب أو ضرب من البسط أو الوسائد قال في(المفردات): الرفرف ضرب من الثياب مشبه بالرياض انتهى ومن معاني الرفرف الرياض وكان بساط(انوشران) ستين ذراعا في ستين ذراعا يبسط له في إيوانه منظوما باللؤلؤ والجواهر الملونة على ألوان زهر الربيع وينشر إذا عدمت الزهور وفي(القاموس): الرفرف ثياب خضر تتخذ منها المحابس وتبسط وفضول المحابس والفرش وكل فضل فثنى والفراش والرقيق من الديباج (**خضر**) نعت لرفرف جمع أخضر والخضرة أحد الألوان بين البياض والسواد (أو هو اللون الناجم من خلط اللون الأزرق والأصفر) و(**عبقري**) عطف على رفرف والمراد الجنس ولذا وصف بالجمع وهو قوله (**حسان**) حملا على المعنى وهو جمع حسن والعبقري منسوب إلى عبقر و(**عبقري حسان**) وهو ضرب من الفرش جعله الله مثلا لفرش الجنة وفي (**التكملة**) عبقر أسم موضع يصنع فيه الوشي كانت العرب إذا رأت شيئا نسبته إليه فخاطبهم الله على عادتهم وفي (**فتح الرحمن**) العبقري بسط حسان فيها صور وغير ذلك والعرب إذا استحسنت شيئا واستجادته قالت عبقري. (البروسوي: 2003، ج 9، ص312)

في حين يرى ابن عجيبة في تأويله: (**متكئين**) نصب على الاختصاص، (**على رفرف**) هو كل ثوب عريض، وقيل: هو الوسائد، والأظهر من الحديث أنه سرير مفروش بثياب خضر، يركب فيه أهل الجنة، ويسير بهم حيث

شاؤوا، وقوله **(خضر)**، وصف لرفرف، لأنه محلى بثياب خضر، والرفرف: إما أسم جنس، أو اسم جمع، واحدة: رفرفة. **(وعبقري حسان)** أي: طنافس، وهي جياد البسط، كالزرابي وشبهها، والعبقري: وينسوب إلى عبقر. (الحسني، ابن عجيبة: 2005، ج7، ص283)

ويرى الكيلاني، عبد القادر قدس سره تأويل الآية: ثم أنهم أيضا يتنعمون بما ذكر لهم من النعم **(مُتَّكِئِينَ)** متقررين**(عَلَى رَفْرَفٍ)** وسائد وبسط **(خُضْرٍ)** مخضرة بماء إيمانهم الخالص، واعتقادهم الحق **(وَعَبْقَرِيٍّ)** عجيب معجب، يتعجبون من ترتبها على أعمالهم وحسناتهم **(حِسَانٍ)** لا يتبعها قبح وخذلان.(الكيلاني، عبد القادر: 2009، مصدر سابق، مجلد5، ص117)

هذا يعني أن دلالات اللون الأخضر في جميع هذه التأويلات لا تخرج من كونه لون موصوف بالجمال، وإن هذا اللون من الألوان المحببة إلى الله تعالى، وهو لون لطيف يوحي بالحياة الدائمة الأبدية، وهو لون المكرمين من لدن الحق تعالى.

أما في قوله تعالى:

(عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً) [الإنسان: 21]

يتأول ابن عربي هذه الآية فيرى في قوله تعالى: **(عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ)** أي: تعلوهم ملابس سندس الأحوال والمواهب اللطيفة من أنوار الصفات البهيجة. والخضرة عبارة عن البهجة والنضرة وإستبرق الأخلاق الإلهية **(وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ)** أي: زينوا بزينة المعاني المعقولة المنورة بنور الوجدان **(وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً)** من لذة محبة الذات والعشق الحقيقي الصرف الصافي عن كدر الغيرية واثنينية الصفات الطاهر عن دنس ظهور الأنائية والبقية. (ابن عربي: 2001، ج2، ص394)

ويرى صاحب التأويلات النجمية في قوله: **(عاليهم)** يشير إلى اتصاف أهل الجنة بملابس الصفات الإلهية والأخلاق الربانية من خضر أي من الصفات الذاتية واستبرق أي من الصفات الأسمائية وإلى تحليهم بحلي أساور

الأسماء الذاتية والصفاتية الزاهرة الباهرة وسقاهم ربهم بكأس الربوبية والتربية شراب المحبة الذاتية الطاهرة عن شوب كدورة رقبة الأغيار. (البروسوي: 2003، ج10، ص279)

في حين يرى ابن عجيبة أن الإشارة في هذه الآية مفادها: يطوف على قلوبهم وأسرارهم جواهر العلوم، ويواقيت الحكم كأنها اللآليء المنثورة، وإذا رأيت ثم إذا جالت فكرتك، وعامت في بحار الأحدية، رأيت ببصيرتك نعيما من نعيم الأرواح، وهي لذة الشهود والفرح برؤية الملك الودود، وملكا كبيرا، وهي عظمة الذات الأولية والآخرية، والظاهرة والباطنة، وإذا رأيت ذلك كان الوجود كله تابعا لك، ينبسط ببسطك، وينقبض بقبضك، وحكمه حكمك، وأمره عند أمرك، تتصرف بهمتك على وفق إرادة مولاك، عاليهم ثياب العز والبهاء، وثياب الهيبة والجلال، وحلو بأساور من مقامات اليقين، وسقاهم ربهم شرابا طهورا، وهو شراب الخمرة، فإنها تطهر القلوب والأسرار من البقايا والأكدار، وقال الورتجبي: فتلك الكائنات المروقات عن علل الحجاب والعتاب دارت عليها في الدنيا حتى ترجع إلى معادنها من الغيب، ثم قال: فإذا شربوا تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، سقاهم ذلك في الدنيا، في ميدان ذكره، بكأس محبته على منابر من نور بمخاطبة العيان، ويرى ابن عجيبة أن التفريق بين الدنيا والآخرة غير لائق بمقام المحققين من العارفين، فالعارف لم تبق له دنيا ولا آخرة، لم يبق له إلا الله، تتلون تجلياته، فما هناك هو حاصل اليوم، لولا تكثيف الحجاب، ثم يقال لأهل التمكين: إن هذا لكم جزاء على مجاهدتكم وصبركم، وكان سعيكم مشكورا، وحظكم منه موفورا. (الحسني، ابن عجيبة:2005، ج8، ص201-202)

قال تعالى:

(مُدْهَامَّتَانِ) [الرحمن: 64]

يرى القشيري في قوله تعالى: **(مُدْهَامَّتَانِ)** أي: خضراوان خضرة تضرب إلى السواد، فالدهمة السواد، والفعل منه ادهام، والاسم منه مدهام، وللمؤنث مدهامة، ولتثنية المؤنث مدهامتان. (القشيري: 1999، ج6، ص82)

في حين يرى ابن عربي أن الدهمة هي غاية البهجة والحسن والنضارة، فاللون الأخضر الغامق هو من الألوان النضرة الجميلة غاية الجمال لدى ابن عربي، فهو ليس مجرد لون بل له دلالة روحية، ومعنوية، ولـذلك اختاره تعالى ليكون أحد صفات أشجار الجنة. (ابن عربي: 2001، ج2، ص308)

إن من جماليات اللون الأخضر من كونه يذكر بالمتجلي سبحانه، فإن النبتة ما زالت خضراء فهي دائمة العطاء سواء كان هذا العطاء من خلال لونها أو من خلال ثمرها أو من خلال صفاتها أو من خلال مقارنتها بغيرها من الكائنات الجامدة، فاللون الأخر في الشجر له دلالة الديمومة المبدعة الجميلة، فكذلك الحق تعالى فهو دائم التجليات، ولكل تجلي من تجلياته جمال يختص به، من كونه مظهرا لحقائق الحق، فكل تجلي هو أفق من الآفاق، وكل أفق جعله تعالى وسيلة لكشف حقيقة من حقائقه تعالى، ولذلك قال تعالى: (**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) [فصلت: 53] فكل أفق من الآفاق التي ظهر فيها الحق من خلال تجليه تعالى يحمل تبيانا ومعرفة له صلة بالحق تعالى، وتوصل من يسعى إلى الكشف عن حقيقتها إلى حق اليقين، فيتبين له أنه الحق هو المتجلي فيها، وأن الحقيقة هي وصف له لا للتجلي الذي يراه ماثلا أمامه، إذ لولا تجلي الحق فيه لما كان للشيء وجود يذكر،وكما قال الشاعر لبيد العامري: وكل شيء ما خلا الله باطل... فالآفاق مظهرا للحق تعالى،وكذلك أنفسنا، لتكون أنفسنا الدليل اليقيني إلى الكشف عن الآفاق.

ويرى البروسوي: أن في قوله: (**مُدْهَامَّتَانِ**) صفة لجنتان يقال ادهام الشيء يدهام فهو مدهام اسود وفي (تاج المصادر) في باب الأفعيلال الادهيمام لأن الدهمة بالضم السواد والأدهم الأسود ومنه قوله تعالى: (**مُدْهَامَّتَانِ**) أي: سوداوان يعني علا لونهما دهمة وسواد من شدة الخضرة والري، وإن شئت قلت خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة، والنظر إلى الخضرة يجلو البصر كما قال عليه السلام (**ثلاث يجلون البصر: النظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري وإلى الوجه الحسن**) قال ابن عباس رضي الله عنهما: والأثمد عند النوم وهو الكحل الأسود وأجوده الأصفهاني،

وهو بارد يابس ينفع العين اكتحالا ويقوي أعصابها ويمنع عنها كثيرا من الآفات والأوجاع سيما الشيوخ والعجائز. قال في التأويلات النجمية: يشير به إلى غلبة القوة النباتية على أصحاب هاتين الجنتين وهم أصحاب اليمين وإلى غلبة القوة الروحانية على أصحاب الجنتين الأولين لأن فيهما كثرة الأشجار والفواكه وهم المقربون. (البروسوي: 2003، ج9، ص309)

ويقال: مدهامتان شديدة خضرتها، لأن النظر إلى الخضرة أميل، وكذلك أهل العبادة الظاهرية حين يجدون حلاوتها، ويقفون معها ترمقهم أبصار العامة بالتعظيم والتكريم، فربما يجنون بعض جزاء أعمالهم، بخلاف أهل الباطن، أهل الفناء والبقاء، لا ترى منهم إلا النيران، لفرارهم من الخلق، ولخفاء عبادتهم بين فكرة ونظرة. (الحسني، ابن عجيبة: 2005، ج7، ص284)

يقول تعالى:

(يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) [يوسف: 46]

الرؤية طالما تقع في عالم الخيال فهي تحتاج إلى التعبير والتأويل: يقول ابن عربي: (أعلم أيدنا الله وإياك أن إبراهيم الخليل عليه السلام قال لأبنه: **(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)** [الصافات: 102] والمنام حضرة الخيال فلم يعبرها، وكان كبش ظهر في صورة ابن إبراهيم في المنام فصدق إبراهيم الرؤيا، ففداه ربه من وهم إبراهيم بالذبح العظيم الذي هو تعبير رؤياه عند الله وهو لا يشعر، فالتجلي الصوري في حضرة الخيال يحتاج إلى علم آخر يدرك به ما أراد الله بتلك الصورة، وقال الله تعالى لإبراهيم حين ناداه **(نَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا)** [الصافات:104- 105] وما قال له صدقت في الرؤيا أنه أبنك، لأنه ما عبرها، بل أخذ بظاهر ما رأى، والرؤيا تطلب التعبير، ولذلك قال العزيز: **(أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ)** [يوسف: 43] ومعنى التعبير الجواز من صورة ما رآه إلى أمر آخر وكانت البقر سنين في المحل والخصب. (ابن عربي: 2004، ص181-183)

يتضح من خلال هذا أن اللون الأخضر في الرؤيا له دلالة الخير في حين أن دلالة اللون الترابي له دلالة القحط ونقيض الخير كما تراه الصوفية.

ويرى المتصوفة فيما اصطلحوا عليه بالموت (الأخضر) وهو لبس المرقع، وكل ما يقتصر على ما يستر العورة مما لا قيمة له، ولما لم يكن كذلك إلا الخرق الملقاة على المزابل اقتصر صاحب هذا المقام من لباسه على ما يجمعه منها، ويغسله لتصح صلاته، فمن اقتصر في لباسه على هذا القدر، فقد مات الموت الأخضر، ويحيي بجماله الدارين المستغني عن التجمل العرضي المشار إلى ذلك بقولهم:

وما الحلي إلا زينة لنقيصة يتمم حسنا حيث ماء الحسن قصر

فأما إذا كان الجمال موقرا لحسنك لم يحتج إلى أن يؤزر

ولما روى الإمام الشافعي رحمه الله، وعليه ثوب لا قيمة له فعاب عليه من عاب، فأشار إلى ما قلناه من تحقق النفس بجمالها الذاتي منشدا:

لئن كان ثوبي فوق قيمته الفلس فلي فيه نفس دون قيمتها الأنس

فثوبك شمس تحت أضوائه الدجى وثوبي ليل تحت ظلمائه الشمس

(القاشاني، عبد الرزاق: 2004، ص439)

كما وترى الصوفية أن للون مدلولات روحية من كونه يرتبط ارتباطا وثيقا بمراتب النفس ومن جهة أخرى أن لكل مرتبة من مراتب النفس صفات ونعوت تمتاز بها عن سواها من المراتب التي تخص النفس، ويرى الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره أن النور الأخضر هو لون مرتبة النفس الراضية التي ورد ذكرها في الخطاب الإلهي، يقول تعالى:

(ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً) [الفجر: 28]

أي هو لون مرتبة النفس التي ترضى في سيرها طوعا لمرضاة الحق، وطالما أن النفس اتصفت بهذه الصفة أي التطوع في السفر إلى الله تعالى، فإن الحق سيرضيها بأنواع الكمالات، يقول الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره: إذا رأى المريد في رؤياه الملائكة، والولدان، أو الحور، أو البراق، أو

الجنة، أو الحلل ويكون بهذه الصفات، فإن تلك الـرؤى تعنـي أن الحـور، والجنة، والملائكة تدل على كمال العقل، وتمام العقـل، والتقـرب إلـى الله تعالى، والشمس، والقمر يكون قد يحصل له من معارف الله تعالى، ويراجـع المشايخ المرشدين، ويلازمهم. (الكيلاني، عبد القادر: ب ت، ص25–26)

ويرى الكيلاني: أن النفس الراضية سيرها في الله عالمهـا هـو عـالم اللاهوت محلها السرائر حالها الفناء في الله نورها أخضر، وتتصف الـنفس الراضية الزهد، والإخلاص، والورع، وترك ما لا يعنيه من جميع الأشـياء، والوفاء. (نفسه: ص، 37–38)

ويرى صاحب هذا المقام أن جميع الأشياء ذات حيـاة حيـة بحيـاة الله القديمة الأزلية سارية فيها بلا سريان فيذوق معنى قوله تعـالى: **(وَإِن مِّـن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ)**[الإسراء: 44] فيسمع الأشياء تذكر الله بلـسان القـال ذكرا صريحا من غير إشكال فهذا مقام ما هو لأهل الحجاب بل لمن كـشفت الحجب عن عين قلبه، وولج من داخل الباب، وروقت لـه كـؤوس المـدام وارتوى من صرف الشراب واتصف بالفنـاء عـن الفنـاء ورأى الوجـود كالسراب، ففي هذا المقام ينكشف للسالك ملكوت كل شيء فيرث الآيات الدالة على الله تعالى هي عين الوجود الخفي ويضمحل هناك الوجود الخلقي ويسمع تسبيحات الملأ الأعلى ويفقه تسبيحات الأشياء ويرى الملائكة يـدخلون مـن باب عالم الملكوت ويخرجون من باب عالم الشهادة، فمن جد وجد ومن لازم الباب لا يرد وإن أردت أن تكون من أهل هذا المشهد وتسمع نطق الأكـوان بذكر الواحد الأحد فاخرج من الدنيا ولا تجنح إلى أحد سوي من خلق الخلق وتنزه عن النظير، والمثيل، والصاحبة والولد فتذوق حينئذ ما ذقنا وتجد فـي السير كي تلحقنا وإن لم تقدر على إطلاق وثاقك من أسر النفس الأمارة، ثـم أعلم يا أخي وفقني الله وإياك لمرضاته أن السالك في هذا المقام لا يحتاج إلى مرشدين فيه عن هذا المقام لأنه إذا طمع في الترقي ترقية همته بعناية من الله سبحانه وتعالى ومع ذلك لا يقدر السالك لعدم رسوخه في مقام البقـاء بـالله يعطي له في المقام السابع ومن خصوصيات السالك أنه متى دخل فـي هـذا

المقام أحبه جميع الأنام من صالح وطالح ويكرمه جميع الملك فــلا يلتفــت لشيء أصلا لأن الالتفات في هذا المقام إعراض عن الحق، ومتى تجلى لــه الحي باسمه الحي بصفة الحياة القديمة وفني عن الحياة الحادثة فظهــر بــه النور الأخضر. (رسائل صوفية مخطوطة: 2007، ص75-59)

فالزهد: يعرفه الراغب: (الزهيد: الشيء القليل، والزاهد فــي الــشيء: الراغب عنه والراضي منه بالزهيد، أي القليل قال تعالى: **(وَكَانُواْ فِيهِ مِــنَ الزَّاهِدِينَ)** [يوسف: 20] (الأصفهاني، الراغب: 1437ه، ص384)

والزهد: هو نوع من أنواع التخلي من الميول إلى جهة الأغيار و اللذات المادية في الحياة الدنيوية، وبقدر التخلي يكون التحلي بالأخلاق الإلهية ذلــك لأن انقطاع الميل لجهة غير جهة الحق تعالى يقابلها تحلي أو مواصلة السير إلى جهة المعاني الروحية أي: إلى عالم اللاهوت، فإن عدم الوقــوف يعنــي مواصلة السير، وإن عدم الميل والإلتفات إلى جهة غير جهة الحق يعني عدم التوقف مع تلك الجهة وهذا يعني التواصل في السير إلى جهة الحق تعــالى، يقول تعالى: **(عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ)** [القلــم: 32] أي: يكون المطلوب في بداية الأمر الرغبة بما خلق تعالى مــن أشــكال السعادات من حور وقصور وجنان، ومن ثم يتطور الطلب ليكــون مــرادهم رؤية الحق تعالى خالق كل شيء كما جاء في قوله تعالى: **(كَلَّا إِنَّهُــمْ عَــن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ)** [المطففين: 15] فمن طلب الــصنعة ومــال إليهــا حجب بها عن الصانع، ومن طلب الصانع كانت الصنعة دون طلبه فهي لــه دون أن يطلبها، فللزهد مدخلا مهما إلى الصانع جل في علاه.

أما الإخلاص: فيعني لغة كما قال الراغب: (الخالص كالــصافي إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه، والصافي قد يقــال لمــا لا شوب فيه، ويقال: خلصته فخلص، فإخلاص المسلمين أنهم قد تبــرؤوا ممــا يدعيه اليهود من التشبيه، والنصارى من التثليث قال تعالى: **(مُخْلِــصِينَ لَــهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)** [الأعراف: 29] وإن حقيقة الإخلاص: التبري عن كل ما دون الله.) (الأصفهاني، الراغب: المصدر نفسه، ص292-293)

وهو من المقامات العلية التي تنأى بصاحبها عن مكائد الشياطين ذلك لأن صاحب هذا المقام يبصره الحق تعالى ببصيرته تعالى فلا تخفى عليه خافية أو مكيدة أو دسيسة، يقول تعالى: **(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)** [الحجر:39-40] فالإغواء يقع تأثيره على من هم دون مرتبة الإخلاص، والنفس الراضية صاحبة النور الأخضر تتصف بهذه الصفة وهي صفة الإخلاص، وبذلك فإن صاحب هذا المقام يكون في منأى عن هذا الإغواء ولا تنطلي عليه كل المكائد الشيطانية.

كما أن من صفات مرتبة الإخلاص أن صاحب هذه المرتبة لا يميل قلبه لغير الحق ولا يتخذ دينا غير دين الحق تعالى، يقول تعالى: **(قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي)** [الزمر: 14] أي: أن القيم والمباديء التي جاء بها الحق تعالى لا يبدلها بقوانين وقيم تتقاطع معها أو تلغيها بل يتم تبنيها كما أراد الحق تعالى، وهذا يعني الإخلاص لله فيما يحب ويرضى، لأنه الجهة الوحيدة التي تستحق التعلق، والميل، والطاعة، والمحبة.

وفيما يخص الورع: فالورع لغة:هو اجتناب الشبهات خوفا من الوقوع في الحرمات، ويقال: الورع ترك المحظورات كما أن التقوى ترك الشبهات، وقيل الورع: ملازمة الأعمال الجميلة، وقيل الورع: ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك من الكلام، ومن كل شيء. (الشرتوني: ب ت، ج2، ص1444)

والورع هو نوع من أنواع الحذر الذي طالما يتخلق به السالكون إلى الحق تعالى، وفيه شيء من الخوف الدائم من الحق تعالى، أي: من غضب الله وعدم رضاه، لأن غضب الله تعالى يستوجب الطرد، والبعد عن معرفة الحقيقة، يقول تعالى: **(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)** [آل عمران: 175] فالخوف من الحق تعالى يفترض أن يرافقه عدم الخوف من الشيطان وأتباعه، كما يتطلب الأمر الحذر من المواقع التي تكثر فيها شراك ومصائد الشيطان، وهذا عين الورع.

أما الوفاء فيعني لغة: الوفي: هو من تمم العهد ولم ينقض حفظه، واشتقاق ضده، وهو الغدر يدل على ذلك وهو الترك، والقرآن جاء بأوفى. قال تعالى: **(أَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)** [البقرة: 40] فالتوفية: هي بذل المجهود في جميع ما طولب به، مما أشار إليه في قوله: **(إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ)** [التوبة: 111] من بذله ماله بالإنفاق في طاعته، وبذل ولده الذي هو أعز من نفسه للقربان. (الأصفهاني، الراغب: المصدر السابق، ص878)

من خلال ما تقدم يتضح أن اللون الأخضر له كذلك من الدلالات الوفاء والزهد والإخلاص والورع وترك ما لا يعنيه في كل شيء، وهو لون من ألوان الجنة فمن كشف له لون مرتبته هي النور الأخضر فإن ذلك هي بمثابة البشرى له أنه من أهل الجنان كما جاء في قوله تعالى:

(لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [يونس: 64]

اللون الأصفر وتأنيب الضمير

الأصفر لغة

هو لون من الألوان التي بين السواد والبياض، ولذلك قد يعبر بها عن السواد. قال الحسن في قوله تعالى: (**إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**) [البقرة: 69] أي: سوداء، وقال بعضهم: لا يقال في السواد فاقع وإنما يقال فيه حالكة، قال تعالى: (**ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً**) [الزمر: 21] وقال تعالى: (**كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ**) [المرسلات: 33]، قيل: هي جمع أصفر، وقيل بل أراد الصفر المخرج من المعادن، ومنه قيل للنحاس: صفر. (الأصفهاني، الراغب: 1437هجري، ص487)

ويعرفه الباحث إجرائيا: الأصفر: هو لون من الألوان الأساسية الذي لا يمكن أن يكون من مزج لونين، بل هو صبغة أساسية تسهم من خلال مزجها بالألوان الأساسية الأخرى إلى إيجاد ألوان عديدة أخرى كاللون البرتقالي والأخضر وغيرها من الألوان الحارة والباردة، وهو لون من الألوان الحارة، ويأتي هذا اللون من خلال تحليل اللون الأبيض كأحد ألوان الطيف الشمسي السبعة، وللون الأصفر مدلولات روحية كثيرة.

لقد ورد اللون الأصفر في القرآن الكريم في عدة آيات وعلى النحو التالي:

قال تعالى:

(**قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**) [البقرة: 69]

قال تعالى:

(**وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ**) [الروم: 51]

وقوله تعالى:

(**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ**) [الزمر: 21]

وقوله تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) [الحديد: 20]

وقوله تعالى:

(كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ) [المرسلات: 33]

وفي مجال تأويل هذه الآيات يرى الصوفية في قوله تعالى:

(قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) [البقرة: 69]

يرى ابن عربي في تأويله لهذه الآية: **(قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ)** أي: بالغ في الصفرة حسنا وجمالا، يقال أصفر فاقع، وأسود حالك، وأبيض يقق، وأحمر ناصع، وقال: **(تَسُرُّ النَّاظِرِينَ)** أي: يستحسنها من نظر إليها. (ابن عربي:2007، ص 111)

إن اللون الأصفر يبعث في النفس السرور لأنه أقرب لون لعملية الإشراق التي هي نقيض الظلمة، فالشروق آية من آيات الحق لو تأملها العبد بدقة ؛ ذلك لأن الليل وظلمته أضيق على النفس في تأثيره على الرغم من الزينة التي أوجدها تعالى في السماء كما جاء في قوله تعالى: **(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)** [الحجر: 16] فالغاية من التزيين أن يرابط المرء مع جهة المزين، فيكون من خلال هذه المرابطة قد نفذ من ظلمة الاحتجاب، ومداهمة ما يبثه الوسواس الخناس من خيالات، وأوهام فاسدة، وإن اشراقة الشمس تمثل إطلالة حق بصبح يجد تنفسه في قلوب من أحب النور، وتعشق فيه، فاللون الأصفر يبعث السرور في النفس المستعدة التي تنشد الكمال، ويقلقها المكوث مع جهة الظلمة أنا ظهرت، إلى ترى كيف ضرب لنا تعالى مثلا في حكاية البقرة، ووصفها بأنها صفراء تسر الناظرين أي: الذين انتظروا

ما يسفر عنه هذا القربان من نتائج مفرحة من كونها تضع الأمور في نصابها الصحيح، فتحقق لهم مرادهم فأسرهم ذلك، وتبين لهم الحق من الباطل، ولــولا الأصفر لوقعوا في بحر من الظن وما أحسبهم سيرشدون.

وفي تأويل آخر يرى فيه ابن عربي: **(صفراء)** لأن لون الجسم أســود لعدم النورية فيه أصلا، ولون النفس النباتية أخضر لظهور النورانية فيهــا، وغلبة السواد عليها لعدم إدراكاها، ولون القلب أبيض لتجرده عــن الجـسم، وقوة إدراكه، وكمال نورانيته. فلزم أن يكون لــون الــنفس الحيوانيــة فــي الحيوانات العجم أحمر لتركب نورانية إدراكها وســواد تعلقهــا بالجـسم، إذ الحمرة لون بين البياض والسواد ومركب منهما، لكن السواد فيه أكثر، وفــي الإنسان أصفر لغلبة نورية بمجاورة القلب، إذ الصفرة حمرة عليها البيــاض **(فاقع لونها)** لصفاء استعدادها وشعشعان شعاع نور القلــب عليهــا **(تــسر الناظرين)** لقوة نور استعدادها وتشعشعها والناظرون هم الكاملون المطلعون على الاستعدادات لوجــوب محبــتهم للمــستعدين المستبــصرين وذوقهــم بحضورهم. (ابن عربي: 2001، ص39)

ويضيف ابن عربي في فتوحاته تأويل آخر فيرى: أن اللون الأصفر التي اتصفت به بقرة بني إسرائيل كما جاء في قوله تعالى: **(صَفْرَاء فَاقِــعٌ لَّوْنُـهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) (لاشية فيها)** فحيي بها الميت وهو أعظم الآثار إحياء الموات حياة الإيمان وحياة العلم وحياة الحس، وأعظم أثره في زمان الشتاء إذا وقــع فيه شهر صفر في أول الشتاء إلى انتصافه فهو أسرع أثرا منه فــي بــاقي الأزمنة وباقي الشهور، ويكون الثوب صوفا، أو شعرا، أو وبرا لا غير ذلك. (ابن عربي: 2006، مجلد 3، ص181)

أما البروسوي فيرى في تأويله للآية: **(مسلمة)** أي: سلمها الله من العيوب أو معفاة من العمل سلمها أهلها منه أو مخلصة اللون من سلم له كذا إذا خلص له لم يشب صفرتها شيء من الألوان ويؤيده قوله تعالى **(لا شية فيها)** يخالف لون جلدها فهي صفراء كلها حتى قرنها وظلفها، وفــي التــأويلات النجميــة: **(قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا)** يعني ما لون البقرة نفس تصلح للذبح في

الجهاد (**يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ**) إشارة إلى صفرة وجوه أربـاب الرياضـات وسيما أصحاب المجاهدات في طلب المشاهدات (**فَاقِـعٌ لَّوْنُهَا**) يعني صـفرة زين لا صفرة شين كما هي سيما الصالحين) تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) من نظـر إلـيهم يشاهد في غرتهم بهاء قد ألبس من أثر الطاعات ويطالع مـن طلعـتهم آثـار شواهد الغيب من خمود الشهوات حتى أمن من أحوال البشرية بوجدان آثـار الربوبية. (البروسوي: 2003، ج1، ص162–163)

أن اللونية هنا هي سمة مميزة للذين يجاهدون أنفسهم بأنواع المجاهـدات وذلك من أجل أن تقيد ميولها إلى جهة اللذة الحسية، أو الأرتماء في أحـضان الأغيارعسى أن تجد طريقها للسفر إلى عـالم الحقـائق والجمـال المطلـق، فالصفرة هنا علامة لمن يذبح نفسه الأمارة بالسوء فيرقى إلى مرتبـة الـنفس اللوامة، فإذا ما تم لها ذلك فإن هذه العلامة تسر الكاملين من المـشايخ الـذين يشرفون على تربية، وتزكية المريد الذي يظهر عليه هذا اللون ؛ فإن فيه أيضا ثمرة لغرسهم الروحي والمعنوي، وبذلك يسرون ؛ لأن جهودهم لم تذهب سدا.

يقول تعالى:

(**وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ**) [الروم: 51]

الصفار هنا يقود بعض الناس إلى اللوم لما يجدوه مـن قاهريـة الحـق تعالى لهم حين طالت هذه القاهرية أرزاقهم المادية، ليدرك البعض مـنهم أن هذه القاهرية سببها سوء عملهم، إن هذه القاهرية هي أقرب ما تكـون مـن الإنذار للناس لعلهم يتذكرون ما كان ينبغي عليهم من عمل وتوجـه للحـق تعالى، وإلا فإن عذاب الحق تعالى سيطالهم في الدارين.

هذا يعني أن مكاشفات الصوفية التي تنص على أن النور الأصفر هـو سمة من سمات أصحاب النفس اللوامة صحيح إلى حد كبيـر، وإن الـريح المصفرة، هي أشبه ما تكون من رسالة مفتوحة من جهة الحق تعـالى إلـى هؤلاء الناس ؛ لأن فيهم عزم واستعداد للترقي إلى أفق أعلى وهو مـستوى النفس الملهمة، فالإشارة هنا جاءت صريحة ومباشرة ومعلنة لتقابـل قوابـل أهل هذا المستوى من النفس (النفس اللوامة) فالأصفر هنا إشارة غير معقـدة

لهذا الصنف من البشر، ولذلك نجد أن الكثير من الناس حين يرون هذه الظاهرة يقولون: هذا غضب من الله علينا، وهذا يعني أنهم أدركوا هذه الإشارة، وبقي عليهم العمل بما يرضي الحق تعالى، من أجل أن يحضون بقبول الحق تعالى بدلا من سخطه.

يرى البروسوي في تأويله لقوله تعالى: **(وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ)** اللام موطئة للقسم دخلت على حرف شرط، والريح ريح العذاب كالبور ونحوها، والفاء فصيحة، والضمير المنصوب راجع إلى أثر الرحمة المدلول عليه بالآثار دلالة الجمع على واحده، أو النبات المعبر عنه بالآثار فإنه اسم جنس يعم القليل والكثير، والمعنى وبالله لئن أرسلنا ريحا مضرة حادة باردة فأفسدت زرع الكفار فرأوه **(مصفراً)** من تأثير الريح، أي: قد أصفر بعد خضرته، وقرب من الجفاف والهلاك، والصفرة لون من الألوان التي بين البياض والسواد، وهو إلى الأبيض أقرب، وفي الآية إشارة إلى أن ريح الشقاوة الأزلية إذا هبت من مهب القهر، والعزة على زروع معاملات الأشقياء وإن كانت مخضرة أي: على وفق الشرع تجعلها مصفرة يابسة تذروها الرياح كأعمال المنافق فيصيرون من بعد الإيمان التقليدي بالنفاق يكفرون بالله وبنعمته وهذا الكفر أقبح من الكفر المتعلق بالنعمة فقط بالله نعوذ من درك الشقاء وسوء الحال وسيئات الأقوال والأفعال. (البروسوي: المصدر السابق، ج7، ص55-56)

يرى ابن عجيبة الحسني في تأويله للآية: ولئن أرسلنا ريحا لتعذيبهم، فرأوا سحابة صفراء، لأن اصفراره علامة على أنه لا مطر فيه، لظلوا، أي: للجوا من بعد ذلك على كفرهم وطغيانهم، لانهماكهم، قال البيضاوي: وهذه الآية ناعية على الكفار، لقلة تثبتهم، وعدم تدبرهم، وسرعة تزلزلهم، لعدم تفكرهم، وسوء رأيهم، فإن النظر السوي يقتضي أن يتوكلوا على الله، ويلتجئوا إليه، بالاستغفار، إذا احتبس القطر عنهم، ولا ييأسوا من رحمته، وإن يبادروا إلى الشكر واستدامة الطاعة إذا أصابهم برحمته، ولم يبطروا بالاستبشار، وأن يصبروا على بلائه، إذا ضرب زرعهم بالاصفرار، ولم يكفروا نعمه، قال النسفي: ذمهم الله تعالى بأنهم، إذا حبس عنهم المطر،

قنطوا من رحمته، وضربوا أذقانهم على صدورهم، مبلسين، فـإذا أصـابهم برحمته، ورزقهم المطر، استبشروا، فإذا أرسل الله ريحا فضرب زروعهـم بالصفار ضجوا، وكفروا بنعمه، وهم في جميع هذه الأحـوال علـى صـفة مذمومة، وكان عليهم أن يتوكلوا على الله، فقنطـوا، وأن يـشكروا نعمتـه ويحمدوه عليها، ففرحوا وبطـروا، وأن يـصبروا علـى بلائـه، فكفـروا. (الحسني، ابن عجيبة: 2005، ج5، ص356)

فاللون الأصفر هنا له دلالة القهر، أو الجلال، والابتلاء للعباد تماما على عكس دلالة السرور، وهذا يعني أن لهذا اللـون ثنائيـة الدلالـة الـسرور، والتعاسة، الجمال، والجلال، فهو جامع لهذه الثنائية، ويشير إليها، وهو على كل حال، وكما أشرنا من قبل، يفيد ويعود على النفس بـاللوم، ويحـاول أن يحيلها إلى جادة رضا الحق تعالى، ويحرض النفس بعدم الوقوع في الخطـأ، فيؤدي بها في النتيجة إلى مواصلة الترقي، وقطع المقامـات وصـول إلـى كمالات النفس، وفنائها في الحق تعالى.

يقول تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ) [الزمر: 21]

تحيلنا هذه الآية بوضوح إلى أن التمسك بجمال الدنيا الزائل ليس ورائه إلا الخذلان، والزرع أفق من آفاق الحق تعالى جعله آية لنا، فهو جميل ولكن إلى حد معين تقل وتنتهي نظارته وحسنه فيعود إلى ما كان عليه من حقيقـة ترابية، فكل شيء يرجع إلى أصله وحقيقته، وعلى المرء أن يدرك.أن جوهر نفسه حقيقة إلهية ولطيفة ربانية، لذا وجب عليه أن يصحو من غفلتـه التـي ظن فيها أن حقيقته طينية وراح يلاحق أوهام الظلال التي تظهر في الكـون، ونسي، وجهل أن حقيقة الظل يتبع صاحب الظل، فالظل وهم إذا ما نظـرت إلى حقيقة صاحب الأثر، وصاحب الأثر هو الحق تعالى، فـالحق أولـى أن يتبع وليس الظل، قال تعالى: **(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ**

سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً) [الفرقان: 45] فالظل الممدود جاء من جهة الرب، والظل ما هو إلى صورة وهمية لحقيقة صاحب الظل، فلو حجبنا عن الشخص مصدر الضوء لما وجدنا للظل من أثر، لذا من الواجب أن يبحث الإنسان عن حقيقة صاحب الظل ولا يقف مع وهم الظل.

يرى القشيري في تأويله للآية: أخبر سبحانه أنه ينزل من السماء المطر فيخرج به الزرع فيخضر، ثم يأخذ في الجفاف، ثم يصير هشيما، والإشارة من هذا إلى الإنسان، يكون طفلا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا ثم يصير إلى أرذل العمر ثم في آخره يخترم. ويقال إن الزرع ما لم يأخذ في الجفاف لا يؤخذ منه الحب، فالحب هو المقصود منه، كذلك الإنسان ما لم يحصل من نفسه وصول لا يكون له قدر ولا قيمة، ويقال: إن كون المؤمن بقوة عقله يوجب استفادة له بعلمه إلى أن يبدو منه كمال يمكن من أنوار بصيرته، ثم إذا بدت لائحة من سلطان المعارف تصير تلك الأنوار مغمورة. فإذا بدت أنوار التوحيد استهلكت تلك الجملة. (القشيري: 1999، ج5، ص281)

ويرى صاحب التأويلات النجمية: أن الحق تعالى يشير بقوله **(ألم تر)** إلخ، إلى إنزال ماء الفيض الروحاني من سماء القلب **(فسلكه ينابيع)** الحكمة **(في الأرض)** البشرية. **(ثم يخرج به زرعا)** من الأعمال البدنية **(مختلفا ألوانه)** من الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد **(ثم يهيج)**، يشير إلى أعمال المرائي تراها مخضرة على وفق الشرع، ثم تجف من آفة العجب والرياء.**(فتراه مصفرا)** لا نور له. **(ثم يجعله)** من رياح القهر إذ هبت عليه **(حطاما)** لا حاصل له إلا الحسرة، وقوله (إن في ذلك، إشارة إلى أن السالك إذا جرى على مقتضى عقله وعلمه يظهر منه آثار الاجتهاد، ثم إذا ترقى إلى مقام المعرفة تضمحل منه حالته الأولى، ثم إذا بدت أنوار التوحيد استهلكت الجملة، فالتوحيد كالشمس ونورها، فكما أنه بنور الشمس تضمحل أنوار الكواكب، فكذا بنور التوحيد تتلاشى أنوار العلوم والمعارف ويصير حالها إلى الأفول والفناء، ويظهر حال أخرى من عالم البقاء. (البروسوي: 2003، ج8، ص105)

أما ابن عجيبة فيرى في تأويله: **(ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ)** أي: أصنافه، من بُر، وشعير، وغيرها، أو كيفياته من الألوان، كالصفرة، والخضرة، والحمرة، والطعوم، وغيرهما، **(ثم)** للتراخي في الرتبة والزمان، وصيغة المضارع: لاستحضار الصورة البديعة، **(ثم يهيج)** أي: يتم جفافه، ويشرف على أن يثور من منابته، ويستقل على وجه الأرض، سائرا لها، **(فتراه مصفرا)** من بعد خضرته ونضرته، **(ثم يجعله حطاما)**، فتاتا متكسرة، كأن لم يغن بالأمس، فمن قدر على هذا قدر على أنشاء الخلق بعد فنائهم ومجازاتهم، وقيل المراد من الآية تمثيل الحياة الدنيا، في سرعة الزوال، وقرب الاضمحلال، بما ذكر من أحوال الزرع، ترغيبا من زخارفها وزينتها، وتحذيرا من الاغترار بمن سر بها. (الحسني، ابن عجيبة: 2005، ج6، ص252-253)

فالصفرة هنا لها دلالة اليباس والنضوج الذي يعقبه وفرة البذور الذي تكاثر من البذرة الواحدة، أي: أن البذرة تباركت، وتكاثرت فكانت سببا لتوفر الغذاء، أو سببا لتوفر البذور التي تصلح للزرع في الموسم التالي، وفي كل الأحوال فالصفرة التي لها لون، ونور النفس اللوامة لها من الدلالة البركة، والنضوج، والفائدة التي تعم صاحبها بالخير والفلاح إذا استمر في السلوك كما يستمر الفلاح في تطوير زرعه في المواسم اللاحقة.

قال تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) [الحديد: 20]

يرى القشيري في تأويله للآية: الحياة الدنيا معرضة للزوال، غير لابثة ولا ماكثة، وهي في الحال شاغلة عن الله، مطمعة وغير مشبعة، وتجري على غير سنن الاستقامة كجريان لعب الصبيان، فهي تلهي عن الصواب واستبصار الحق، وهي تفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد **(كَمَثَلِ غَيْثٍ**

أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً) الكفار: الزراع، هو في غاية الحسن ثم يهيج فتراه يأخذ في الجفاف، ثم ينتهي إلى أن يتحطم ويتكسر، **(وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ)**لأهله من الكفار، **(وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ)** لأهله من المؤمنين **(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)** الدنيا حقيرة – وأحقر منها طالبها وأقل منه خطرا المزاحم فيها، فما هي إلا جيفة، وطالب الجيفة ليس له خطر، وأخس أهل الدنيا من بخل بها، وهذه الدنيا المذمومة هي التي تشغل العبد عن الآخرة. (القشيري: المصدر السابق، ج6، ص، 110-111)

ويرى الشيرازي في تأويله للآية: **(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)** فيطلب منا أن نحذر كل الحذر أن نبقى من طالبي الحياة الدنيا ومن طالبي الكمال بها فنكون من جملة ممن يقولون: **(نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)** [الأعراف: 53] أو تبقى في البرزخ إلى يوم يبعثون، ومن أين لهم أن يشعرون أيان يبعثون، أو تبقى في الحساب والمناقشة: **(فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)** [المعارج: 4] ما دامت النفس ساهية لاهية مقبلة على الشهوات الجسمانية واللذات الجرمانية والزينة الطبيعية والغرور والأماني في هذه الحياة الحسية المذمومة التي ذمها رب العالمين. (الشيرازي، محمد بن إبراهيم: 1422ه، ص564)

وفي تأويل آخر للشيرازي يقول فيه: زهد الله سبحانه الناس عن الركون إلى الحياة الدنيا ورهبهم عن التورط في مشتهياتها بأبلغ وجه وآكده حيث بين أن محقرات مشتهياتها ومختصرات لذاتها ليست في الواقع وعند أولياء الله الذين نظرهم على حقائق الأمور وبواطنها إلا أمور وهمية باطلة زائلة، وهي اللهو، واللعب، والزينة، والتفاخر، والتكاثر، لا أنها كذلك من باب التجوز، والتشبيه لعلاقة الاشتراك بينهما في عدم البقاء، فإن ذلك بحسب النظر

الجليل، وإدراك أهل الحجاب، ولأنها بحسب المبالغة والتخييل كما هو عـــادة الشعراء وأهل القصص ـ بل هي بحسب التحقيق ليست إلا هذه المذكورات، وليست إلا متاع الغرور كما مثل الله تعالى: **(كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْـآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً)** [النور: 39] وكما أن أمور الدنيا ليست إلا أوهام محضة، وخيالات صرفة فأمور الآخرة بعكس ذلك، إذ ليست إلا أمورا عظيمة ثابتة إلهية ؛ لأنها بواطن الأشياء، وحقائقها التي لا تبيد، ولا تنقص، وقيل(اللعب) ما رغب في الدنيا،(واللهو) ما ألهى عن الآخرة و(الزينة) مـا يتزينون بها في الدنيا ويتحلون في أعين أهلها ثم يتلاشى، ومنشأ التفاخر بين الناس هو القوة الغضبية، والهيئة السبعية التي لا تزال توجب التفـوق علـى الأقران، والترفع على الأشباه، ومنشأ التكاثر هو القوة الـشهوية، والـصفة البهيمية التي لا تزال تطلب تزايد المـشتهيات. (الـشيرازي، محمـد بـن إبراهيم:1380ه ش، ج6، ص 236–237)

في حين يرى البروسوي في تأويله لقوله تعالى: **(ثم يهيج)** أي: يجـف بعد خضرته ونضارته بآفة سماوية، أو أرضية يقال: هـاج النبـت يهـيج، وهيجانا، وهياجا بالكسر يبس، والهائجـة أرض يـبس بقلهـا، أو أصـفر، وأهاجه: أيبسه، وأهيجها: وجدها هائجة للنبات **(فتراه مصفرا)** بعدما رأيتـه ناضرا مونقا، وإنما لم يقل فيصفر إيذانا بأن اصفراره مقارن لجفافه وإنمـا المرتب عليه رؤيته كذلك . (البروسوي: 2003، ج7، ص369)

تشير دلالة الأصفر هنا في هذه الآية على أن الارتباط بمغريات الحيـاة مثلها مثل الزرع الذي يبس فيكون عرضة لتهديد ريح الأقدار، ومن أجل أن يحصل المرء على نضارة الزرع الذي لا يقبل هذا التحول عليـه أن يعمـل على ترقية نفسه من مستوى مرتبة الأمارة بالسوء إلى مرتبة النفس اللوامـة وهكذا صعودا، أما إذا احتجبت رغبته ومال إلى جهة الدنيا، فـإن حاصـل تحصيل هذا الميل قد كاشفنا به الحق تعالى في هذه الآية لذا يجب أن يكـون اختيارنا للأصفر الذي لا يخضع لقوانين الحياة الدنيا، ليشكل لنا معبرا إلـى عالم الآخرة ومؤدي إليها.

فالأصفر بدلا من أن يكون نتيجة لتعلقنا بالحياة، يصبح خطوة أولى للسفر إلى عالم الحقيقة، وبدلا من أن يكون تمسكنا بصبغة صفراء واهية يجب أن يكون تمسكنا بنور أصفر تسعد به الروح في أول رحلة لها إلى عالم الحقيقة، هذه الثنائيات من الدلالات للون الأصفر تمنحنا مستوى من الخيار، ولنا أن نختار أما الميل لحياة قصيرة محدودة اللذة والمتعة، وأما لحياة خالدة هانئة سرمدية ليس لها نهاية.

يقول تعالى:

(كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ) [المرسلات: 33]

يرى الراغب: الجمالات: جمع جِمالة، والجمالة: جمع جمل، وقريء: **(جُمَالات)** بالضم، وقيل: هي القلوص، والجامل: قطعة من الأبل معها راعيها، كالباقر، وقولهم: اتخذ الليل جملا فاستعاره، كقولهم: ركب الليل، وتسمية الجمل بذلك يجوز أن يكون لما قد أشار إليه بقوله **(وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)** [النحل: 6] لأنهم كانوا يعدون ذلك جملا لهم، وجَملتُ الشحم: أذبته، والجميل: الشحم المذاب، والاجتمال: الادهان به، وقالت امرأة لبنتها: تجملي وتعففي، أي: كلي الجميل واشربي العفافة. (الأصفهاني، الراغب: المصدر السابق، ص203)

يرى البروسوي في تأويله للآية: **(كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ)** أي: كل شرر كقصر من القصور في عظمتها كما دل هذا التفسير قوله: **(كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ)** فالشرر جمع شرارة وهي ما تطاير من النار في الجهات متفرقا كالنجوم، كما قال في (القاموس): الشرار والشرر ككتاب وجبل ما يتطاير من النار واحدتهما بهاء انتهى. وكالقصر في موضع الصفة للشرر والقصر مفرد وهو البناء العالي ووصفه به الجمع باعتبار كل واحد من آحاده والقصر أيضا الحطب الجزل ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: هي الخشب العظام المقطعة وكنا نعمد إلى الخشب فنقطعها ثلاثة أذرع ودونه وندخره للشتاء فكنا نسميها القصر أي: لكونها مقصورة مقطوعة من الممدودة الطويلة تأمل في أن نارا دخانها وشررها هكذا فما بالك بحال أهلها،

(**جمالة صفر**) جمع جمل كحجارة في جمع الحجر والتاء لتأنيث الجمع أو اسم جمع، والجمل ذكر الأبل والناقة أنثاه وإذا لم يكن في جماعة الأبل أنثى يقال: جمالة بالكسر، والصفر جمع أصفر، والمعنى كأن كل شررة جمل أصفر، وقيل: بل أراد به الصفر المخرج من المعادن ومنه قيل للنحاس صفر، وفي التأويلات النجمية: كل صفة من الأوصاف البهيمية والسبعية والشيطانية بحسب الغلظة والشدة كالقصور المرتفعة والبروج المشيدة أو كأنه جمالة صفر عظيمة الهيكل طويلة الأشر من شدة قوة النار في ذلك الشرر وهي القوة الغضبية. (البروسوي: المصدر السابق، ج 10، ص291–292)

في حين يذهب ابن عجيبة في تأويله لقوله تعالى: (**كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ**) فإن الشرار لما فيه من النار يكون أصفر، وقيل: الضمير في (إنه) يعود إلى القصر، فيذهب به إلى تصوير عجيب وتطوير غريب، شبهت الشرارة حين تنقض من النار في العظم بالقصر، ثم شبه القصر المشبه به، حين يأخذ بالارتفاع والانبساط، بأن ينشق عن أعداد لا نهاية لها بالجمالات المتكاثرة، فيتصور فيها حينئذ العظم أولا، والانشقاق مع الكثرة والصفرة والحركة ثانيا فيبلغ بالتشبيه إلى الذروة العليا. (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، ج 8، ص210–211)

اللون الأصفر هنا جاءت دلالته إلى صفة من صفات دركات جهنم، أي وصف لشكل من أشكال العذاب في الآخرة وكأنه يذكر أصحاب النار أن هذا العذاب هو نتيجة طبيعية للذين احتجبوا بالحياة الدنيا، وباللذات الحسية المحدودة عن تلك اللذة الروحية المطلقة، فاللون الأصفر هنا هو ما يؤول إليه الاحتجاب بالغواشي وجهة الطبع، وبما أن مآل أهل الجنان إلى الكمال بالله، والفناء فيه وإن ليس للكمال لون يتميزون به سوى النور الإلهي، فالنور ليس له لون وهذا هو غاية كل متقي، في حين أن اللون الأصفر وهو لون النفس اللوامة هو لون بعد الزرقة، وكأن اللون الأصفر هنا هو على الرغم من إنه أول طريق الوصول غير إن أصحاب النار لم يجاهدوا أنفسهم حتى يتم لهم الوصول إليه فجعله تعالى شكل من أشكال العذاب لكل من وقف دون مرتبة النفس اللوامة ذات اللون الأصفر.

ويرى الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره أن صاحب مرتبة النفس اللوامة يرى في منامه وميله وتخيلاته أشكال عديدة منها الغنم، والبقر، والجمال، والسمك، والحمام، والوز، والدجاج، والنحل، ومن الجمادات مثل الأطعمة المطبوخة، والثمار وإذا رأى ثيابا مخيطة، أو فرسا بلا سرج أو شمعا بلا شعلة، أو أفرانا، أو دكاكين، أو العمارات، أو القصور، أو البيوت، أو السقيفة، وأمثال هذا مثل السكر، والعسل، والأشربة يقال لها اللوامة، ويمكن تأويل تلك الصفات والرؤى والمنامات، فالغنم صفة الحلال، والبقر صفة نفع الإنسان، والجمل يكون حمالا للأذى كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: **(شرط المؤمن أن يحمل الأذى، ويترك الأذى)** والسمك من كسب من الحلال، والوز، والدجاج، والحمام وأمثال هذه تدل على الحلال، ونحل العسل يدل على الأخلاق الحميدة، والأطعمة المطبوخة إشارة لطبيعة نفسه، والثمار إصلاح وإخلاص نفسه من الكلام والكدورات، والبيوتات والدكاكين تدل على سكون نفسه. (الكيلاني، عبد القادر: ب ت، ص22–23)

ويضيف الشيخ عبد القادر قدس سره: إن من الصفات التي تتصف بها النفس اللوامة الهوى، والمكر، والعجب، والتمني، والقهر، كما وتتصف النفس اللوامة بنورها الأصفر، وأن سيرها ينزع لله حالها المحبة، يأتيها من الوارد علم الطريقة، ولها من الصفات اللوم، والفكر، والقبض، والعجب، والاعتراض، وهذه كلها تعد دلالات للون الأصفر هذا إلى جانب الدلالات الإيجابية التي ذكرت من قبل . (نفسه: ص37– 38)

ويقال: سميت لوامة لكونها تارة تميل للطاعات، وتارة تميل للمعاصي، ومتى وقعت في معصية لامت نفسها، وندمت على فعلها، وتابت إلى الله تعالى بالإقلاع عنها، وتلازم الطاعة، ثم بعد حين تقع في معصية أخرى، ثم تتوب وهلم جرى، فهذا مقام الأبرار، والاسم المختص بتزكيتها: (الله) ثم اعلم أنه لا بد للذاكر أن يقول الله الله الله حتى يضيق نفسه، ويتنفس، ثم يستأنف الذكر كما تقدم، وإن أمكنه التنفس على الفرد يعني يكون وقوفه في كل مرة على الوتر على الشفع فيكون أحسن، وهكذا يكون ذكره دائما. ومن علامات قطع هذه

النفس اللوامة وخرق حجبها أن تذهب عنك الصفات الذميمة ويظهر لك النـور الأشقر والأصفر فتراه في بعض الأوقات يلمع كالبرق وأنت في حالة الـذكر مغمض العينين وتسمع سائر الكائنات تذكر الله تعـالى بهـذا الاسـم العظـيم الأعظم، وتسمع الذكر من قلبك بأذني رأسك وتصير ترى مقامـات تخـتص بعالم الأرواح والأسرار الإلهية فهذه علامات قطع هذه النفس وخرق حجبهـا، ولكن لابد لك أولا من ذكر هذا الاسم الشريف باللسان جهرا حتى ينزل الذكر من اللسان للقلب، فتراه مكتوبا بالنور في سويداء القلب، وتترك ذكر اللـسان، وتذكر بالقلب. (رسائل صوفية مخطوطة: 2007، ص47-48)

ويرى صاحب الإبريز: أن أنوار الآيات القرآنية ثلاث أقسام: أبيض وهو الذي يقولونه العباد ويسألونه من ربهم عز وجل، وأخضر وهو ما يقوله الحق سبحانه وتعالى، وأصفر وهو ما يتعلق بأحوال المغضوب عليهم، ففي الفاتحـة الأخضر، وهو الحمد لله، لأنه من قول الله سبحانه وتعالى، وفيها الأبيض وهو من رب العالمين إلى **(غير المغضوب)** وفيها الأصفر، وهو مـن **(المغـضوب عليهم)** إلى آخرها وهذه الأنوار الثلاثة في كل سورة إلا أن بعضها قـد يقـل وبعضها قد يكثر كما ترى في الفاتحة، وسبب اختلاف هذه الأنـوار الثلاثـة اختلاف الأوجه الثلاثة التي للوح المحفوظ، فإن له وجها إلى الدنيا أي متعلقـا بالدنيا وأحوال أهلها وقد كتب فيه كل ما يتعلق بها وبأهلها وله وجه آخر إلـى الجنة، وقد كتب فيه أحوالها وأحوال أهلها وصفاتهم وله وجه آخر إلى جهـنم وقد كتب فيه أحوالها وأحوال أهلها وصفاتهم أعاذنا الله من جهـنم وعـذابها، فالوجه الذي إلى الدنيا نوره ابيض، والذي إلى الجنة نوره أخضر، والذي إلى جهنم نوره أصفر، وهو أسود في الحقيقة وإنما صار أصفر في نظر المـؤمن لأن نور بصيرته إذا وقع على شيء أسود صيره أصفر في نظره، حتـى إن المؤمن إذا كان في المحشر وكان له من النور الخارق ما كتب له وكان علـى البعد منه كافر أحاط به سواد عظيم وظلام كثير، فإنه أي المؤمن يراه أصـفر فيعلم أن ذلك الشبح المرئي شبح كافر، ويضيف الدباغ أما الكافر فإنه لا يـرى شيئا ويحجبه الظلام الذي غشيه من كل جهة، فهو لا يرى إلا سـوادا علـى سواد. (الدباغ، عبد العزيز: 1998، ص، 198)

الأحمر والنفس الملهمة

الأحمر لغة:

الحمرة: من الألوان، وقيل: (الأحمر والأسود) للعجم والعرب اعتبارا بغالب ألوانهم، وربما قيل: حمراء العجان، والأحمران: اللحم والخمر، اعتبارا بلونيهما، والموت الأحمر أصله فيما يراق فيه الدم، وسنة حمراء: جدبة، للحمرة العارضة في الجو منها، وكذلك حمارة القيظ: لشدة حرها، وقيل: وطأة حمراء: إذا كانت جديدة. (الأصفهاني، الراغب: 1437ه، ص 256-257)

وفي الصحاح: الحمرة: لون الأحمر وقد (أحمر) الشيء و(أحمار) بمعنى ورجل (أحمر) والجمع (الأحامر) فإن أردت المصبوغ بالحمرة قلت أحمر والجمع (حمر)، وأهلك الرجال، ويقال: أتاني كل أسود وأحمر، ولا يقال وأبيض ومعناه جميع الناس عربهم وعجمهم. (وموت أحمر) يوصف بالشدة. ومنه الحديث (كنا إذا أحمر البأس) وسنة (حمراء) شديدة. (الرازي، محمد بن أبي بكر: 1983، ص153-154)

الأحمر يعرفه الباحث إجرائيا: هو أحد الألوان الثلاثة الأساسية، وهو من الألوان الحارة، له من الدلالات الروحية الشيء الكثير سيعرض لها الباحث، والنور الأحمر هو لون النفس الملهمة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم بقوله تعالى: **(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)** [الشمس:7- 8]، ولقد ورد ذكر اللون الأحمر في القرآن في الكثير من الآيات.

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ) [فاطر: 27]

وقوله تعالى:

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ) [المدثر: 50]

وقوله تعالى:

(فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) [الرحمن: 37]

يرى البروسوي في تأويله لقوله تعالى: **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)** **(ألم ترى)** الاستفهام تقريري والرؤية قلبية أي: ألم تعلم يعني قد علمت يا محمد أو يا من يليق به الخطاب **(أن الله أنزل)** بقدرته وحكمته **(من السماء)** أي: من الجهة العلوية سماء أو سحابا **(ماء)** مطرا **(فأخرجنا به)** أي: بذلك الماء. والإلتفات من الغيبة إلى التكلم إظهار كمال الاعتناء بفعل الإخراج لما فيه من الصنع البديع المنبىء عن كمال القدرة والحكمة، ولأن الرجوع إلى نون العظمة أهيب في العبارة **(ثمرات)** جمع ثمرة وهي أسم لكل ما يطعم من أحمال الشجر **(مختلفا ألوانها)** وصف سببي للثمرات أي: أجناسها من الرمان، والتفاح، والتين، والعنب وغيرها، أو أصنافها على أن كلا منها ذو أصناف مختلفة كالعنب، فإن أصنافه تزيد على خمسين، وكالتمر فإن أصنافه تزيد على مائة، أو هيئاتها من الصفرة والحمرة والخضرة والبياض والسواد وغيرها **(ومن الجبال جدد)** مبتدأ وخبر، والجدد جمع جدة بالضم بمعنى الطريقة التي تخالف لونها ما يليها سواء كانت في الجبل أو في غيره والخطة في ظهر الحمار تخالف لونه وقد تكون للظبي جدتان مسكيتان تفصلان بين لوني ظهره وبطنه، ولما لم يصح الحكم على نفس الجدد بأنها من الجبال احتيج إلى تقدير المضاف في المبتدأ أي: ومن الجبال ما هو ذو جدد أي: خطط وطرائق متلونة يخالف لونها لون الجبل، فيؤول المعنى إلى أن من الجبال ما هو مختلف ألوانه فلا من القرينة المتوسطة بينهما من ارتكاب الحذف ليؤول المعنى إلى ما ذكر فيحصل تناسب القرائن، وفي (المفردات) أي طرائق ظاهرة في قولهم طريق مجدود أي: مسلوك مقطوع ومنه جادة الطريق **(بيض)** جمع أبيض صفة جدد **(وحمر)** جمع أحمر، لقد حمل صاحب (كشف الأسرار) الجدد على الطرائق المسلوكة والظاهر هو الأول لأن المقام لبيان ما هو خلقي على أن كون الطريقة بيضاء لا يستلزم كون الجبال كذلك إذ للجبال عروق لونها يخالف لونها وكذا العكس وهو أن كون الجبل أبيض لا يقتضي كون الطريقة كذلك فمن موافق ومن مخالف **(مختلف ألوانها)** أي: ألوان تلك الجدد إلا أن قوله مختلفا ألوانها صفة لكل

واحدة من الجدد البيض وكذا حمرة الجدد الحمر يتفاوتان بالشدة والضعف فقوله: **(بيض وحمر)** وإن كان صفة لجدد فرب أبيض أشد بياضا من أبيض آخر وكذا رب أحمر أشد حمرة من أحمر آخر فنفس البياض مختلف وكذا نفس الحمرة فلذلك جمع لفظ ألوان مضافا إلى ضمير كل واحد من البيض والحمر فيكون كل واحد منهما من قبيل الكلي المشكك، ويحتمل أن يكون قوله مختلف ألوانها صفة ثالثة لجدد فيكون ضمير ألوانها للجدد فيكون تأكيدا لقوله: **(بيض وحمر)** ويكون اختلاف ألوان الجدد بأن يكون بعضها أبيض وبعضها أحمر فتكون الجدد كلها على لونين بياض وحمرة إلا أنه عبر عن اللونين بالألوان لتكثير كل واحد منهما باعتبار محاله. يقول الفقير: من شاهد جبال ديار العرب في طريق الحج وغيرها وجد هذه الأقسام كلها فإنها وجددها مختلفة متلونة **(وغرابيب سود)** عطف على بيض فيكون من تفاصيل الجدد والصفات القائمة بها كالبيض والحمر كأنه قيل ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود غرابيب، وإنما وسط الاختلاف لأنه علم من الوصف بالغرابيب أنه ليس في الأسود اختلاف اللون بالشدة والضعف، ويجوز أن يكون غرابيب عطفا على جدد فلا يكون داخلا في تفاصيل الجدد بل يكون قسيمها كأنه قيل ومن الجبال مخطط ذو جدد ومنها ما هو على لون واحد وهو السواد، فالغرض من الآية إما بيان اختلاف ألوان طرائق الجبال كاختلاف ألوان الثمرات فترى الطرائق الجبلية من البعيد منها بيض ومنها حمر ومنها سود وإما بيان اختلاف ألوان الجبال نفسها وكل منها أثر دال على القدرة الكاملة، والغرابيب جمع غربيب كعفريت يقال: أسود غربيب أي شديد السواد الذي يشبه لون الغراب وكذا يقال: أسود حالك كما يقال: أصفر فاقع وأبيض يقق محركة وأحمر قان لخالص الصفرة وشديد البياض والحمرة والسود جمع أسود.) (البروسوي: 2003، ج7، ص340-342)

ويرى الفيروزابادي في قوله تعالى: **(وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ)** جمع جدة أي طريقة ظاهرة، من قولهم: طريق مجدود أي مسلوك مقطوع، ومنه جادة الطريق، وسمي الفيض الإلهي جدا، قال تعالى: **(وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا)** [الجن: 3] أي: فيضه، وقيل: عظمته وهو يرجع إلى الأول، وإضافته إليه على سبيل

اختصاصه بملكه، وسمي ما جعله الله للإنسان من الحظوظ الدنيوية جدا وهو البخت فقيل جددت وحظظت. (الفيروزابادي: ب ت، ج2، ص370–371)

أن هذه الآية يمكن تأويلها على المحمل التالي: (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**) أي: أن الله تعالى هو المتجلي في الوجود ظاهرا وباطنا، ويراد بالماء هو الإيجاد وظهور المراد الإلهي في التجليات (**فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا**) أي: من خلال الماء حين جعل فيه تعالى إرادة الإيجاد بحسب مقتضى الأمر الإلهي المجعول في الماء، وإن الثمرات التي اختلفت طعومها وألوانها ما هي إلا نتيجة استجابة هذه الأشياء للظهور بحسب الأمر الذي اقتضاه المراد الإلهي، والأحمر منها دلالة على ظهور وتنوع قدرة الحق تعالى في الوحدة، فالماء واحد، والتربة وحدة وأظهر تعالى من خلال هذه الوحدة الكثرة المتنوعة (وَ) كذلك هو الذي أظهر بفضل الماء النازل من السماء، الذي مسح به سطح الصخور المكونة للجبال، فأظهر من خلال هذه العملية ما تخفيه الصخور من قيم لونية، كاللون الأسود، والأبيض، والأحمر، وغيرها من الألوان التي نشاهدها في الطبيعة الجبلية أثناء وخلال عملية المطر(**مِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ**).

ويمكن تأويل الآية على النحو التالي: إن الله تعالى أنزل من الغيب ماء التعيينات من الأرزاق الروحانية على مشايخ الطرق الذي نهجوا في طرقهم ألوان مختلفة من المناهج، فمنهم من انتهج أسلوب المجادة في الملبس الخشن، ومنهم من انتهج طريقة المجاهدة من خلال مخالفة أهواء النفس، ومنهم من انتهج طريقة الخلوات والرياضات، زمنهم من انتهج طريقة الحب الإلهي، وهكذا تنوعت طرق الرجال من الأولياء الكاملين (**الجبال**) وكل له من ماء الغيب تخصيص وأرزاق يحظى بها.

ويرى الحسني ابن عجيبة أن الإشارة في هذه الآية: ألم تر أن الله أنزل من سماء الغيوب ماء الواردات الإلهية، فأخرجنا به ثمرات، وهي العلوم، والأذواق، والوجدان، مختلف ألوانها، فمنها علوم الشرائع، وتحقيق مسائلها، ومنها علم العقائد، وتشييد أدلتها وبراهينها، ومنها علوم اللسان بإتقان

قواعدها، ومنها علم القلوب وتصفيتها من العيوب، وهو علم الطريقة، ومنها علم الأسرار، وهي أسرار الذات والصفات، وهو علم الحقيقة، ومن جبال العقل طرق بيض وحمر وسود، فالبيض: طرق الكشف والبيان، وحلاوة الذوق والوجدان، والحمر: طرق الدليل والبرهان، لأنها قد تظهر وتخفى، والسواد الغرابيب: عقول الفلاسفة والطبائعيين، أهل الحدس والتخمين، إذا لم يقتدوا بالكتاب المبين، وشرع النبي الأمين، أولئك هم الضالون المضلون. (الحسني، ابن عجيبة: 2005، ج6، ص118-119)

ويرى القاشاني أن (الموت الأحمر) وهو من الاصطلاحات الصوفية ويراد به مجاهدة النفس ومخالفة هواها، وهذا هو الموت الجامع باقي الموتات ويراد به الموت الأسود، والموت الأصفر، والأبيض، وإليه الإشارة بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم لما كان يرجع من قتال الكفار: (**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قالوا: يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟ قال: مخالفة النفس**) وفي حديث آخر: (**المجاهد من جاهد نفسه**) قال تعالى: (**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**) [العنكبوت: 69] فمن مات عن هواه فقد حيا بهداه من الموت بالضلالة وبمعرفته من موت الجهل كما قيل:

وفي الجهل قبل الموت موتا لأهله وأجسادهم قبل القبور قبور

وكل أمريء لم يحيى بالعلم قلبه فليس له بعد الممات نشور

(القاشاني،عبد الرزاق: 2004، ص 440-441)

قال تعالى:

(**كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ**) [المدّثر: 50]

يرى القشيري في تأويله للآية: أي: كأنهم حمر نافرة فرت من أسد.(القشيري: 1999، ج6، ص218)

وفي مختار الصحاح: فإن أردة المصبوغ بالحمرة قلت أحمر والجمع (حُمر). (الرازي، محمد بن أبي بكر: المصدر السابق، ص154)

وربما سميت حمر لكونها تميل في اللون إلى اللون الأحمر، أو لأن الغالب على صفة لحمها هو اللون الأحمر.

ويذهب البروسوي في تأويله للآية: **(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ)** حال من المستكن في معرضتين بطريق التداخل، وحمر جمع حمار وهو معروف، ويكون وحشيا وهو المراد هنا (وربما أراد البروسوي الإشارة إلى أن العرب كانت تسمي كل لون يميل إلى السواد أحمر، والحمار الوحشي فيه خطوط سوداء وأخرى بيضاء، فيكون بذلك هو المقصود بهذا الخطاب)، ومستنفرة من نفرت الدواب بمعنى هربت لا من نفر الحاج، والمعنى مشبهين بحمر نافرة، فاستنفر بمعنى نفر كما أن استعجب بمعنى عجب وقال الزمخشري: كأنهم حمر تطلب النفار من نفوسها بسبب أنهم جمعوا هم نفوسهم للنفار وحملوه عليها فأبقى السين على بابها من الطلب. (البروسوي: المصدر السابق، ج10، ص244)

إن الحمر المشار إليها بقوله تعالى هي ما اقترب لونها من الأحمر (البني، والأوكر المحمر) وهي صفة غالبة لأكثر الأنعام، وقد يشار به ويراد به لحمها، لأن الفريسة التي يطاردها الأسد، ونتيجة للخوف، والفزع، وجهد الركض يتحول لون لحمها إلى الأحمر لاختلاط اللحم بالدم، فيكون هذا الوصف هو الأقرب لحالة الفزع الذي يعتري حال الموصوف في يوم الفزع الأكبر ؛ ذلك لأن الآية لم تتطرق إلى وصف حالة اعتيادية من الطبيعة بل تصف حال هائل قد استغرق في مشهد مخيف ومفزع، فجرى الوصف بالجانب الحسي لنتصور هول الفزع في الآخرة من خلال الوصف الحسي الذي يجري في الطبيعة.

ويرى ابن عجيبة الحسني في تأوليه للآية: **(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ)** أي: حمر الوحش، **(مستنفرة)** شديدة النفار، كأنها تطلب النفار من نفوسها. وقرأ نافع والشامي بفتح الفاء، أي: استنفرها غيرها، وجملة التشبيه حال من ضمير (معرضين) أي: مشبهين بحمر نافرة **(فرت من قسورة)** أي: من أسد، مفعولة من القسر، وهو القهر، وقيل: هي جماعة الرماة الذين يصطادونها، شبهوا في إعراضهم عن القرآن، واستماع ما فيه من المواعظ، وشرودهم

عنه بحمر حدث في نفارها ما أفزعها، وفيه ذمهم وتهجين حالهم من تشبيههم بالحمر ما لا يخفى. (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، ج8، ص 183)

وربما أريد بالحمر المستنفرة: تعبير عن حالي الظاهر والباطن كوصف لأهل المعصية، فجرى وصفهم بالحمر الخائفة من الأسد، أي: المحجوبين عن رؤية الحق تعالى في الوجود وما يؤول إليه مصير الوجود من حال قد غيب عنهم مثلهم بذلك مثل الأنعام التي تفر من الأسد خوفا من بطشه، وهي لا تدري بمصيرها وهلاكها هل يكون على يد هذا الأسد أم تنجو منه، وهذا الوصف يقع على الجاهل الذي سيواجه مصير لا يدرك كنهه، والمراد من كل ذلك التذكير بما يؤول به أمر الإنسان في الآخر ليشكل هذا النوع من الخطاب نوع من الاستفزاز لهم عسى أن يوقظ فيهم شيء من البحث، والتقصي عن يوم القيامة، فيكون ذلك واعز خوف من الله تعالى، فيستجيبوا له، وينقادوا، ويذعنوا لمنطق الحق تعالى.

يقول تعالى:

(فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) [الرحمن: 37]

يرى ابن عربي في فتوحاته: (إنا نعلم أن جوهر السماء هو جوهر الدخان وتبدلت عليه الصور، فالجوهر الذي قبل صورة الدخان هو الذي قبل صورة السماء كما قبل جوهر الطين، والحجر صورة البيت فإذا تهدم البيت ويبس الطين ذهبت صورة البيت والطين وبقي عين الجوهر، وكذلك العالم كله بالجوهر واحد وبالصور يختلف فاعلم ذلك، فيكون الاستثناء في حق أهل النار لمدة عذابهم، ويكون الاستثناء في حق أهل الجنة على معنى: **(إلا أن يشاء ربك)** وقد شاء أن لا يخرجهم فهم لا يخرجون فإن الله ما شاء ذلك بقوله: **(عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ)** [هود: 108] ولم يقل في أهل النار عذابا غير مجذوذ فافهم، فإن الخبر الصحيح المتواتر قد ورد فقال تعالى: **(يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ)** [إبراهيم: 48] ووصف السماء بأنها تصير كالدهان ووصفها بالانشقاق وأنها تمور وقال تعالى: **(فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)** أي مثل الدهن الأحمر في اللون والسيلان، فهذا كله أخبار عن ذهاب الصورة لا ذهاب الجوهر.) (ابن عربي: 2006، مجلد4، ص475)

وفي تأويل آخر للآية يرى فيه ابن عربي: **(فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء)** أي: سماء الدنيا وهي النفس الحيوانية، وانشقاقها انفلاقها عن الروح عند زهوقه إذ الروح الإنساني نسبته إلى النفس الحيوانية كنسبته إلى البدن، فكما أن حياة البدن بالنفس، فحياتها بالروح فتنشق عنه عند زهوقه بمفارقة البدن **(فكانت وردة)** أي: حمراء لأن لونها متوسط بين لون الروح المجرد وبين لون البدن، ولون الروح أبيض لنوريته وإدراكه اللذات ولون البدن أسود لظلمته وعدم شعوره باللذات، والمتوسط بين الأبيض والسود هو الأحمر، وإنما وصفها في سورة (البقرة) بالصفرة وها هنا بالحمرة لأن هناك وقت الحياة والصفاء وغلبة النورية عليها وطراوة الاستعداد وها هنا وقت الممات والتكدر وغلبة الظلمة عليها وزوال الاستعداد **(كالدهان)** كدهن الزيت في لونه ولطافته وذوبانه لصيرورتها إلى الفناء والزوال.(ابن عربي: المصدر السابق، ج2، ص304)

ويرى القشيري في تأويله للآية: **(فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)** ينفك بعضها عن بعض وتصير في لون الورد الأحمر، ويقال، بها الفرش الموردة كالدهان وهو جمع دهن، أي كدهن الزيت وهو دردي الزيت، ويقال: كما أن الوردة يتلون لونها، إذ تكون في الربيع إلى صفرة فإذا اشتدت الوردة كانت حمراء، وبعد ذلك إلى الغبرة – فكذلك حال السماء تتلون من وصف إلى وصف في القيامة.) (القشيري: المصدر السابق، ج6، ص77-78)

إن هذه الآية تصف السماوات وكأنها وردة لم تتفتح بعد فهي أقرب ما تكون من القبة، يشترك في تكوين قبة الوردة أوراقها، وعندما يحين وقت القيامة فإن السماوات تنشق أي: تماط كل سماء إلى جهة من الجهات تماما مثل الوردة التي تكشف عن مركز ثمرتها، فتكون كل ورقة منها قد أميطت إلى الجهة الخلفية، وهذا الوصف يؤكد أن هناك شيء يريد الله تعالى أن يظهره من خلال هذا المشهد، ومؤكد يراد بها إظهار الحقائق الإلهية بعد أن تبلى السرائر، قال تعالى: **(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)** [الطارق: 9] فيكشف الله السر الذي تحجبه السماوات، فيكون لون السماوات يومئذ كالدهان، أي: تصطبغ باللون الوردي إشارة لهذا اليوم العظيم الذي يظهر ما هو كامن خلف السماوات، فيكون اللون الأحمر هنا هو علامة من علامات المكاشفة التي يكاشف بها تعالى جميع خلقه في هذا اليوم الموعود، ولكل واحد من الخلق

حصة من هذه المكاشفة على قدر وعائه واستعداده، فمن كان محجوبا في دار الدنيا له على قدر ما يفهم، ومن كان على علم فله على قدر علمه والله أعلم.

ويقال: لأن أصل السماء الحمرة وإنما ترى زرقاء للبعد والحوائل ولأن لون النار إذا خالط الأزرق كساه حمرة **(كالدهان)** خبر ثاني لكانت أي: كدهن الزيت فكانت في حمرة الوردة وفي جريان الدهن أي: تذوب وتجري كذوبان الدهن وجريه فتصير حمراء من حرارة جهنم وتصير مثل الدهن في رقته وذوبانه وهو إما جمع دهن وجريه فتصير حمراء من حرارة جهنم وتصير مثل الدهن في رقتة وذوبانه وهو إما جمع دهن أو اسم لما يدهن به كالإدام لما يؤتدم به وجواب إذا محذوف أي: يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به دائرة المقال قال سعدي المفتي: ناصب محذوف أي: كان ما كان من الأمر الهائل الذي لا يحيط به نطاق العبارة أو رأيت أمرا عظيما هائلا وبهذا الاعتبار تتسبب هذه الجملة عما قبلها لأن إرسال الشواظ يكون سببا لحدوث الأمر الهائل أو رؤيته في ذلك الوقت. (البروسوي: المصدر السابق، ج9، ص 300)

وقيل الدهان: الأديم الأحمر. وجواب إذا محذوف، أي:: يكون من الأهوال ما لا يوصف، وهذا الانشقاق يحصل للسماوات والناس في المحشر، ثم تدنو الشمس من الخلائق، فيعظم الخطب والهول.(الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، ج7، ص275)

ويتأول الكيلاني قوله تعالى فيرى: **(فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء)** واندكت الأرض من خشية الله ورهبته **(فَكَانَتْ)** السماء من كمال غضب الله **(وَرْدَةً)** حمراء مذابة **(كَالدِّهَانِ)** أي: تذوب كالدهن المذاب من شدة الخشية الإلهية، فلا يمكنكم حينئذ التدارك والتلافي. (الكيلاني، عبد القادر: 2009، مصدر سابق، مجلد5، ص112)

وفي مجال مدلول النور الأحمر فيرى الكيلاني قدس سره: أنه علامة مميزة للنفس الملهمة، فمن كانت رؤاه كثيرا ما يرى فيها ناقصا من الإنسان كالنساء، والكفرة، والعرايا، والملاحدة كالإضالية والغزلباشية، والأعرج، والأطرش، والأخرس، والعبيد، والأجرد، والسكران، والمخنث، والحرامي، والمضحك، والمصارع، والعساس، والحكري، والدلال، والقصاب، والأحول،

والأعمى، وصاحب الدف، والقردة، فإذا رأى هذه الأشـكال كانـت إشـارة للملهمة فيحتاج إلى الرياضة، والبروز، ويضيف الكيلاني، فالنساء تدل على نقصان عقله، والكفرة على نقصان دينه، والإيضال، والغزلباش، والـرفض يكون ناقص المذهب، والأعرج هو أن يدعى إلى الحق ولـم يمتثـل إليـه، والكوسج هو أن لا يقضي أمر الله، والأعمى هو أن يكتم الشهادة، والأطرش الأصم هو أن لا يسمع للشريعة، ولا إلى الوعظ، والأخرس هو أن لا يـتكلم بالحق، والعبد الأسود هو أن لا يتكلم بعيب الآخر في وجهـه، والـسكران، والمحشوش عشق مجازي، والقماري، والمصارع، والمـضحك، والحكـوي يدل على ترك العبادة، والمباشرة بالحرام، واللصوص، وهو أن يظهر عبادته رياء للناس، والدلال هو أن لا يكف نظره من محارم الناس، والـدلال يـدل على الكذب، والقـصاب صـفة قـساوة القلـب، والأحـوال يـدل علـى ضلالته.(الكيلاني، عبد القادر: ب ت، ص24–25)

ويرى الكيلاني قدس سره: أن مقام النفس الملهمة هو المقام الثالث بعـد الأمارة بالسوء واللوامة، وإن سير هذه النفس على الله ومحلها الـروح وإن حالها العشق، وواردها المعرفة ونورها أحمر، وتتصف هذه النفس بالسخاوة، والقناعة، والعلم، والتواضع، والتوبة، والصبر، وتحمل الأذى.(الكيلاني، عبد القادر: المصدر السابق، ص 37–38)

ويرى الداموني: إن مقام النفس الملهمة، هو مزلة أقدام السالكين فلابـد لهم من مرشد يرشدهم إلى التجليات الإلهية لأن للـنفس والـروح تجليـات فيُشكل على السالك التمييز بين التجليات، فقد يعتقد أن تجلي النفس والـروح هو تجلي الله سبحانه وتعالى فيضل عن الصراط المستقيم، ومن لم يكن لـه مرشد في هذه المرتبة فليترك الذكر بهذا الاسم، ويشتغل بالاسم الثـاني، أو الأول حتى يجد المرشد خوفا أن يزل قدمه فيكون مـن الهـالكين، وينبغـي للسالك أن يسلم أمره للمرشد ولا يزن أعماله فـي هـذه المرتبـة بميـزان الشريعة. وفي هذا المقام يتعاقب القبض والبسط على السالك، فبالقبض يكـاد أن ينشق صدره، وبالبسط يكاد أن يطير الله جسده، فبالقبض تفنـى بـشريته وبالبسط تزداد روحانيته فعلى الحالتين تحصل له الفائدة وفي هذا المقام يدخل

في الولاية الصغرى التي هي الولاية الخاصة. وعند دخول هذا المقام يظهر له النور الأحمر بالتجلي له، وذلك النور من النفس الملهمة بل من حقيقتها. (رسائل صوفية مخطوطة: 2007، ص 50-51)

فالسخاوة: وتعني الجود، وأفضل السخاوة عند الله تعالى السخاء بالنفس في سبيل الله سواء كان ذلك بالجهاد في سبيل الله أو مجاهدتها من أجل أن تكف عن الميل تجاه الأغيار وتتجه إلى بارئها، والنفس الملهمة لها هذه الصفة، وهذا يعني أن السخاوة تعد دلالة من دلالات النور الأحمر ؛ وذلك لأن النور الأحمر هو نور النفس الملهمة.

أما القناعة: فإنها تعني الرضا بالوهب الإلهي، أو الاكتفاء بما يعطيه الحق تعالى، وإن القنوع على يقين أن كل ما في الوجود آت من عند الله تعالى، وإنه تعالى يعطيه بحسب إرادته، فلا ينفع في هذا نوع من الشطارة أو الحيلة، فكل شيء من عند الله تعالى.

أما العلم: فإن من صفات هذه المرتبة أن يلهم صاحبها بعلم الفرقان الذي يميز فيه بين الحق والباطل يقول تعالى: (**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**) [الشمس:7-10] فعلم هذه النفس قائما بالله تعالى لكونه تعالى ملهمها بشكل مستمر.

والتواضع: فإنها صفة العالم، وهي وسيلة العبد للترقي كما جاء في الحديث: (**من تواضع لله رفعه**) أي رقاه إلى مقام يكون فيه أقرب إلى الحقيقة، وإلى التحقق في الحق تعالى.

أما التوبة: فتعني الرجوع إلى الله بشكل مستمر فالتائب عن الذنب كمن لا ذنب له كما جاء في الحديث الشريف، وما كان لعبد أن يتوب إلا محبة في الله، وهذا يعني الرجوع إليه تعالى.

أما الصبر: فإن العبد إذا أراد الآخرة صبر على بلاء دنياه في الله؛ ذلك لأن دار الدنيا محدودة وقصيرة الأمد، وإن الدار الآخرة هي التي يعول عليها لأنها دار الخلود، والبقاء، والسعادة الأبدية التي ليس لها نهاية، وما دام الأمر كذلك فمن الأجدى أن يصبر المرء على البلاء.

الذهبي لغة

قيل: ذهب – (الذهب) ربما أنث، وشيٌّ (مُذَهَّب) و(مُـذهَب) أي مموه بالذهب، و(ذهب) يذهب (ذهابا) و(ذهوبا) و(مذهبا) بفتح الميم أي مرَّ. (الرازي، محمد بن أبي بكر: 1983، ص224)

ويرى الراغب أن الذهب: معروف، وربما قيل ذهبة، ورجل ذهب: رأي معدن الذهب فدهش، وشيء مذهب، جعل عليه الذهب، وكميت مذهب: علت حمرته صفرة، كأن عليها ذهبا. (الأصفهاني، الراغب: 1437هجري، ص331–332)

ويرى الفيروزابادي: لقد وردت هذه الكلمة في القرآن على سبيل الإجمال – على نوعين: إما بمعنى الذهب الذي هو قرين الفضة كما جاء في قوله تعالى: **(فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)** [الزخرف: 53] وقوله تعالى: **(وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)** [آل عمران: 14] وإما بمعنى المضي، ويرد في القرآن على عشرين وجها. (الفيروزابادي: ب ت، ج3، ص 21)

اللون الذهبي اصطلاحاً

يعرفه الباحث إجرائيا: الذهبي هو لون من الألوان الحيادية وهو لون لمعدن الذهب وهو من المعادن الثمينة والنادرة في الطبيعة، ومن خاصية هذا المعدن أنه لا يصدأ، وللون الذهب دلالات معنوية وروحية كثيرة سيعرض لها الباحث في هذا المبحث.

قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) [آل عمران: 14]

قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) [التوبة: 34]

قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ) [آل عمران: 91]

وقوله تعالى:

(أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً) [الكهف: 31]

وقوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) [الحج: 23]

وقوله تعالى:

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) [فاطر: 33]

وقوله تعالى:

(يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [الزخرف: 71]

يرى ابن عربي في فتوحاته تأويل الآية في قوله تعالى: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ

الْمَآبِ) [آل عمران: 14] (الخيال من جملة الأرحام التي تظهر فيها الصور، وهذه الحضرة الخيالية لما قبلت المعاني صورا قال الله فيها:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ) أي: في النساء فصور الحب صورة زينها لمن شاء من عباده فأحبها بنفسها ما أحبها بغيرها لأنه تعالى ما زين له إلا حب الشهوة فيما ذكره فالحب المطلق زين له ثم علقه بالشهوة فيما ذكره وعلقه لمن شاء في الشهوة أيضا في أمر آخر، وإنما ذكر الشهوة لأنها صورة طبيعية، فإن الخيال حصرته الطبيعة ثم يحكم الخيال عليها فيجسدها إذا شاء، فهذا فرع يحكم على أصله لأنه فرع كريم ما أوجد الله أعظم منه منزلة ولا أعم حكما يسري حكمه في جميع الموجودات والمعدومات من محال وغيره، فليس للقدرة الإلهية فيما أوجدته أعظم وجودا من الخيال، فيه ظهرت القدرة الإلهية والاقتدار الإلهي، وبه كتب على نفسه الرحمة وأمثال ذلك، وأوجب عموما وهو حضرة المجلي الإلهي في القيامة وفي الاعتقادات فهو أعظم شعائر الله على الله، ومن قوة حكم سلطانه ما تثبته الحكماء مع كونهم لا يعلمون ما قالوه ولا يوفونه حقه وذلك أن الخيال وإن كان من الطبيعة فله سلطان عظيم على الطبيعة بما أيده الله به من القوة الإلهية، فإذا أراد الإنسان أن ينجب ولده فليقم في نفسه عند اجتماعه مع امرأته صورة من شاء من أكابر العلماء، وإن أراد أن يحكم أمر ذلك فليصورها في صورتها التي نقلت إليه أو رآه عليها المصور ويذكر لامرأته حسن ما كانت عليه تلك الصورة، وإذا صورها المصور فليصورها على صورة حسن علمه وأخلاقه، كأنه يجسد تلك المعاني ويحضر تلك الصورة لامرأته ولعينه عند الجماع ويستفرغان عند النظر إلى حسنها، فإن وقع للمرأة حمل من ذلك الجماع أثر في ذلك الحمل ما تخيلاه من تلك الصورة في النفس فيخرج المولود بتلك المنزلة ولابد حتى أنه إن لم يخرج كذلك فلأمر طرأ في نفس الوالدين عند نزول النطفة في الرحم اخرجهما ذلك الأمر عن مشاهدة تلك الصورة في الخيال.) (ابن عربي: 2006، مجلد 6، ص309)

ويذهب السلمي في تأويله إلى من اشتغل بهذه الأشياء قطعته عن الحق تعالى، لأنها سوف تستوقفه معها، ومن استزغرها وأعرض عنها عوض عليها السلامة منها وفتح له الطريق إلى الحقائق. (السلمي: 2001، ج1، ص88)

ويرى ابن عربي في تأويله للآية نفسها: **(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ)** لأن الإنسان مركب من العالم العلوي والسفلي، ومن نشأته وولادته تحجبت فطرته، وخمدت نار غريزته، وانطفأ نور بصيرته بالغشاوات الطبيعية، والغواشي البدنية، والماء الأجاج من اللذات الحسية، والرياح العواصف من الشهوات الحيوانية، فبقي مهجورا من الحق في أوطان الغربة، وديار الظلمة يسار به، مبلوا بأنواع النصب والتعب، فإذا هو بشعشعة نور التميز، ولمعان برق من عالم العقل، وداع يناديه من الهوى والشيطان، فتبعه فصادف منزلا نزها، وروضة أنيقة، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، فاستوطنه وشكر سعيه، ورضيه مسكنا، والداعي قد هيء له القرى، فذلك حب الشهوات، أي: المشتهيات المذكورة وتزيينها له وهو تمتيع له بحسب ما فيه من العالم السفلي، وكمال لحياته حجب به من تمتيع الحياة الأخرى وكمالها، بحسب ما فيه من العالم العلوي، ولم يتنبه على أنها أبهى وألذ وأصفى مع ذلك وأبقى، وهو معنى قوله تعالى: **(وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)** فإن أدركه التوفيق الإلهي والتنبيه السري طلب الآخرة. (ابن عربي: 2001، ج1، ص97)

زين للناس الميل باتجاهين إما باتجاه الزينة الإلهية المتمثلة في المكاشفات، والمشاهدات، وأنواع المذاقات الروحية في الحياة لدنيا، وفي الآخرة، ومن ثم يضاف إلى ذلك ما تحتويه الجنة من زينة، وسعادة أبدية، أو أن تميل الناس لزينة الدنيا، والاحتجاب بها، والوقوف معها، ومع تكاثرها فينسى الآخرة بشكل أو بآخر، فالزينة الدنيويه يثقف عليها إبليس، وجنوده، وأوليائه، ويستميلهم إليها، يزين لهم زينة الدنيا ليجعلهم متوقفين معها، لا يفكرون في زينة الآخرة، والذهب هو أحد أركان الزينة الحسية المهمة بدليل أن الحق تعالى ذكر تأثيره على النفس بعد النساء، كما أنه تعالى ذكر زينته في الآخرة من جملة الأشياء الجميلة التي تتضمنها الجنان في الآخرة.

والذهب مصدر من الفعل ذهب وهي إشارة إلى الماضي من الزمان كما إن هذه التسمية تشير إلى عدم خلود هذا الجنس من المال مع محبيه، ولا يمكن لهذا النوع من المعادن أن يعطي خلود لصاحبها، وإن جل ما يعطيه من السعادات هي السعادة المؤقتة، لذا أيها الإنسان يجب أن لا يستوقفك هذا المعدن عند مرتبته، لا سيما وهو يعظك من خلال اسمه أنه في عداد الماضي، فيجب عليك التزود بزاد الآخرة التي تميزت من ضمن ما تميزت به الحلي من الذهب الذي لا يزول جماله ولا ينتهي بهاؤه أبد الآبدين، فتخلى عن الوقوف مع الجميل الزائل لتحظى بالجميل الدائم.

فاللون الذهبي كدلالة يحيل المتلقي إلى مقارنة بين عالمين، وما يجري فيهما من مغريات، وما على الإنسان إلا أن يختار الأنفس منها، والأجدى، ويعمل من أجل ذلك.

ويرى القشيري في تأويله لهذه الآية: إن الحق تعالى يذكر بعض الشهوات على ما سواها مما هو في معناها، وفي الجملة ما يحجبك عن الشهود فهو من جملتها، وأصعب العوائق في هذه الطريق الشهوة الخفية، وأداء الطاعات على وجه الاستحلاء معدود عندهم في جملة الشهوة الخفية، ومن المقاطع المشكلة السكون إلى ما يلقاك به من فنون تقريبك، وكأنه في حال ما يناجيك يناغيك، فإنه بكل لطيفة يصفك (فيطربك) وتحتها خدع خافية. ومن أدركته السعادة كاشفه بشهود جلاله وجماله (لا) بإثباته في لطيف أحواله وما يخصه به من أفضاله وإقباله.(القشيري: 1999، ج1، ص، 209)

أما البروسوي فيرى في تأويله للآية: (**وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ**) جمع قنطار وهو المال الكثير أي: الأموال الكثيرة المجتمعة، (**مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**) بيان للقناطير أي من هذين الجنسين وإنما سمي الذهب ذهبا لأنه يذهب، ولا يبقى، والفضة لأنها تنفض أي: تتفرق (**والخيل**) عطف على القناطير، والخيل جمع لا واحد له من لفظة فرس، وهو مشتق من الخيلاء لاختيالها في مشيها أو من التخيل فإنها لم يتخيل في عين صاحبها أعظم منها لتمكنها في قلبه (**المسومة**) أي: المعلمة وهي التي جعلت فيها العلامة بالسيمة واللون بالكي،

أو المرعية من سامت السائمة أي رعت **(والأنعام)** أي: الأبل، والبقر، والغنم جمع نعم **(والحرث)** أي: الزرع. قيل منها فتنة للناس. أما النساء والبنون ففتنة للجميع، والذهب والفضة فتنة للتجار، والخيل فتنة للملوك، والأنعام فتنة لأهل البوادي، والحرث فتنة لأهل الرساتيق **(ذلك)** أي: ما ذكر من الأشياء المعهودة **(متاع الحياة الدنيا)** أي: ما يتمتع به في الحياة الدنيا أياما قلائل فيفنى سريعا **(وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)** أي: حسن المرجع وهو الجنة، وفيه دلالة على أن ليس فيما عدد عاقبة حميدة وهذا تزهيد في طيبات الدنيا الفانية وترغيب فيما عند الله من النعيم المقيم فعلى العاقل أن يأخذ من الدنيا قدر البلغة ولا يستكثر بالاستكثار الذي يورط صاحبه في المحظور ويورثه المحذور.(البروسوي: 2003، ج2، ص11)

الإشارة كما يراها ابن عجيبة الحسني: كل ما يقطع القلب عن الشهود، أو يفتره عن السير إلى الملك المعبود، فهو شهوة، كائنا ما كان، أغيارا، أو أنوارا، أو علوما، أو أحوالا، أو غير ذلك، فالنساء الأغيار، والبنون الأنوار، والقناطير المقنطرة من الذهب علوم الطريقة، والفضة علوم الشريعة، والخيل المسومة هي الأحوال، والأنعام الأذكار، والحرث استعمال الفكرة فكل من وقف مع حلاوة شيء من هذا، ولم يفض إلى راحة الشهود والعيان، فهي في حقه شهوة، وبعد أن ذكر الحق تعالى أنواعا من الشهوات، زهد فيها فقال: **(ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)** قال أبو هاشم الزاهد رضي الله عنه: وسم الله الدنيا بالوحشة، ليكون أنس المريد بربه دونها، وليقبل المطيعون بالإعراض عنها وأهل المعرفة بالله من الدنيا مستوحشون، وقد تعوذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من شر فتنتها، غناها وفقرها، وأكثر القرآن مشتمل على ذمها وتحذير الخلق منها، بل ما من داع يدعو إلى الله تعالى إلا وقد حذر منها، ورغب في الآخرة، بل هو المقصود بالذات من بيان الشرائع، وكيف لا ــ وهي عدوة الله، لقطعها طريق الوصلة إليه، ولذلك لم ينظر إليها منذ خلقها، وعدوة لأوليائه، لأنها تزينت بزينتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها وعدوة لأعدائه، لأنها استدرجتهم

بمكرها، واقتنصتهم بشبكتها، فوثقوا بها، فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها. (الحسني، ابن عجيبة: 2005، ج1، ص 296-297)

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) [التوبة: 34]

يحيلنا الحق تعالى إلى ضرورة الإيمان وأخذ العهد من الولي المرشد مع الوفاء به كما جاء في الخطاب الإلهي: **)أَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)** [البقرة: 40] ذلك لأن الإيمان الحقيقي يستلزم العهد والالتزام به كما جاء في قوله تعالى: **(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)** [الأحزاب: 23] وهذا يعني أن جميع المؤمنين لهم عهد مع الله منهم من صدق بعهده والتزم فيه ومنهم من نكث.

الأحبار والرهبان: إشارة لكل رجل دين اتخذ من الدين مهنة له ؛ ذلك لأن الآية الكريمة لم تستثني رجال الدين المسلمين من هذا الحكم علما أن الحبر والراهب تعنيان في اللغتين العبرية والسريانية رجل الدين: وهم المتفرغون للإرشاد، والموعظة الحسنة، والعمل على نشر العقيدة الدينية، وإفشائها بين عامة الناس، غير أن البعض منهم يأكل أموال الناس بالباطل تحت تأثير الحيل الشرعية، ويكنزونها، وكان من المفروض أن ينفقونها في سبيل الله وذلك ببناء المساجد والأعمال الخيرية التي من شأنها تعزز من علاقة العبد بالرب تعالى، وتعمل على بناء عقيدة دينية صحيحة، ومتينة مبنية على الصدق، والإخلاص، والمحبة، والتسامح، والأمر بالمعروف،والنهي عن المنكر، والعمل بكل قيم السماء من أجل أن يكون مجتمعا فاضلا بمعنى الكلمة.

إن جمعهم للمال الحرام سيؤول إلى النهاية، لأن أعمارهم في الحياة الدنيا محدودة، فتكون النتيجة فقدان المال وحقيقة الجدوى المرجوة منه، وهذا

ما يتقاطع مع مراد الحق تعالى، وبذلك توعد الله تعالى رجال الدين بعـذاب أليم على فعلتهم هذه، ذلك لأن الهدف من المال الذي جمعوه قد أخذ منحـى آخر غير المنحى الذي أراده تعالى له.فاللون الذهبي هنا قد أخذ دلالة التمسك باللذة المحدودة على حساب اللذة المطلقة، وكان من المفـروض أن تكـون دلالته هو التواصل ما بين عالمي الدنيا والآخرة، لو أن الإنسان قد أدرك عن وعي الفوارق بين حقيقة الدارين الدنيا والآخرة وعمل من أجل الوصول إلى تلك الدار، وهو مكرم بتكريم غير منقوص، أو محدود، ويحظـى بالـسعادة الأخروية السرمدية.

يرى السلمي في تأويله للآية: من بخل بالقليل من ملكه فقد سد على نفسه باب نجاته، وفتح على نفسه طريق هلاكه، وقيل: ليس من أخـلاق الأنبيـاء والصديقين البخل، لأنه روي عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قـال: (ما جبل ولي الله إلا على السخاء). (السلمي: 2001، ج1، ص273)

ويرى ابن عربي في فتوحاته: أن الله تعالى لما قال: (**وَالَّذِينَ يَكْنِـزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**) كان ذلك قبل فرض الزكاة التي فرض الله على عباده في أموالهم، فلما فرض الزكاة على عباده المؤمنين طهر الله بها أموالهم، وزال بأدائها اسم البخل من مؤديها فإنه قال فيمن أنزلت الزكاة من أجله: (**فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِـهِ وَتَوَلَّـواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ**) [التوبة: 76] فوصفهم بعدم قبول حكم الله فأطلق عليهم صفة البخل لمنعهم ما أوجب الله عليهم في أموالهم. ثم فسر العذاب الأليم بما هـو الحال عليه فقال تعالى: (**يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَـاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ**) [التوبة: 35] وذلك أن السائل إذا رآه صـاحب المـال مقبلا إليه انقبضت أسارير جبينه لعلمه أنه يسأله من ماله فتكوى جبهته فـإن السائل يعرف ذلك في وجهه. ثم أن المسؤول يتغافل عن الـسائل ويعطيـه جانبه كأنه ما عنده خبر منه فيكوى بها جنبه، فإذا علم من السائل أنه يقصده ولا بد أعطاه ظهره وانصرف فأخبر الله أنه تكوى بها ظهورهم، فهذا حكـم مانعي الزكاة أعني زكاة الذهب والفضة. (ابن عربي: 2006، مجلـد 2، ص 251-252)

ويضيف ابن عربي في فتوحاته: فيرى في قولـه تعـالى: (فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِـيمٍ) إن (الكلام على هذه البشرى لغة وعرفا، فأما البـشرى مـن طريق العرف فالمفهوم منها الخير ولابد، ولما كان هـذا الـشقي ينتظـر البشرى في زعمه لكونه يتخيل أنه على الحق قبل (بشره) لانتظاره البشرى ولكن كانت البشرى له بعذاب أليم وأما من طريق اللغة فهو أن يقال له مـا يؤثر في بشرته، فإنه إذا قيل له خير أثر في بشرته بسط وجهـه وضـحكا وفرحا واهتزازا وطربا، وإذا قيل له شر أثر في بشرته قبضا وبكاء وحزنا وكمدا واغبرارا وتعبيسا ولذلك قال تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ) [عبس:38- 41] فذكر ما أثر في بشرتهم، فلهذا كانت البشرة تنطلق على الخير والشر لغة، وأما في العرف فلا، ولهذا أطلقها الله تعالى ولم يقيـدها فقـال فـي حـق المؤمنين: (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ) [يونس: 64] ولم يقل بماذا فإن العرف يعطي أن ذلك بالخير وقرينـة الحـال.) (ابـن عربـي: المصدر السابق، مجلد 5، ص 8)

وفي تأويل آخر يضيفه ابن عربي إلى ما سبق: أن جمع المال وكنـزه مع عدم الأنفاق لا يكون إلا لاستحكام رذيلة الشح وحب المال وكل رذيلـة يعذب بها صاحبها في الآخرة ويخزى بها في الدنيا، ولما كانت مادة رسوخ تلك الرذيلة واستحكامها هي ذلك المال، كان هو الذي يحمى عليه في نـار جحيم الطبيعة وهاوية الهوى فيكوى به، وإنما خصت هـذه الأعـضاء لأن الشح مركوز في النفس والنفس تغلب القلب من هذه الجهات لا مـن جهـة العلو التي هي جهة استيلاء الروح وممر الحقائق والأنوار ولا مـن جهـة السفل التي هي من جهة الطبيعة الجسمانية لعدم تمكن الطبيعة مـن ذلـك، فبقيت سائر الجهات فيؤذى بها من الجهات الأربع ويعذب كما تراه يعـاب بها في الدنيا ويخزى من هذه الجهات أيضا إما بأن يواجه بها جهرا فيفضح أو يسار بها في جنبه أو يغتاب بها من وراء ظهره. (ابن عربي: المصدر السابق، ج1، ص 266-267)

ويذهب القشيري في تأويله للآية: العالم إذا ارتفق بأموال الناس عوضا عما يعلمهم زالت بركات علمه، ولم يطب في طريق الزهد مطعمه، والعارف إذا انتفع بخدمة المريد، أو ارتفق بشيء من أحواله وأعماله زالت آثار همته ولم تجد في حكم التوحيد حالته، أما بخصوص الذين يكنزون الذهب والفضة فلهم في الآجل عقوبة، والذين لا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فلهم في العاجل حجبة، وقليل من عباده من سلم من الحجاب في محتضره والعقاب في منتظره. (القشيري: المصدر السابق، ج3، ص23)

أما البروسوي فيرى في تأويله لقوله تعالى: **(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ)** أي: يجمعونها ويحفظونها سواء كان ذلك بالدفن أو بوجه آخر والكنز في كلام العرب هو الجمع وكل شيء جمع بعضه إلى بعض فهو مكنوز يقال هذا جسم مكتنز الأجزاء إذا كان مجتمع الأجزاء، وسمي الذهب ذهبا لأنه يذهب ولا يبقى وسميت الفضة فضة لأنها تنفض، أي: تتفرق ولا تبقى وحسبك بالاسمين دلالة على فنائهما وأنه لا بقاء لهما **(ولا ينفقونها في سبيل الله)** أي: لا ينفقون منها، أي يؤدون زكاتها ولا يخرجون حق الله منها فحذف من وأريد إثباتها بدليل قوله تعالى في آية أخرى **(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً)** [التوبة: 103] وقال عليه السلام: **(في مائتي درهم خمسة دراهم، وفي عشرين مثقالا من الذهب نصف مثقال)** ولو كان الواجب إنفاق جميع المال لم يكن لهذا التقدير وجه (فبشرهم بعذاب أليم) وضع الوعيد لهم بالعذاب موضع البشارة بالتنعم لغيرهم. (البروسوي: المصدر السابق، ج3، ص 439)

ويقال: **(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ)** أي: يدخرونها **(ولا ينفقونها)** أي: الأموال المفهومة من الذهب والفضة، أو الكنوز، أو الفضة، واكتفى بذكرها عن الذهب إذ الحكم واحد **(فبشرهم بعذاب أليم)** وهو الكي بها، وهذا الحكم يحتمل أن يرجع لكثير من الأحبار والرهبان، فيكون مبالغة في وصفهم، بالحرص على المال وجمعه، وأن يراد به المسلمون الذين يجمعون الأموال، ويقتنونها ولا يؤدون حقها، ويرى ابن عجيبة: أن الإشارة في هذه الآية: فإنها تغبر في وجوه علماء السوء، الذين يتساهلون في أكل الدنيا بالعلم، كقبض

الرشا، وقبض ما فوق أجرته في الأحكام، فترى بعض قضاة الجور يقبضون المثاقيل على إنزال يده على الحكم، مع أنه واجب عليه، حيث تعين عليه بنصب الإمام له، وتجر ذيلها على أغنياء الدنيا، الذين يجمعون الأموال ويكنزونها، فترى أحدهم ينفق في نزهته وشهوة نفسه الأموال العريضة وإذا أتاه الفقير يسأله درهما أو درهمين، تمعر وجهه، وتغير لونه، فبشرهم بعذاب أليم. (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، ج3، ص72-73)

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ) [آل عمران: 91]

للذهب هنا دلالة الندرة كما أن له أهمية، وثقل ماديين، ولذلك ضرب به تعالى مثلا، وجعله ضرب من المستحيلات كفدية للكفار، وهذا ما ينسحب على لون الذهب فهو دلالة على الندرة وهنا تقع أهميته.

ويرى القشيري: إن الإشارة من هذه الآية: لمن مات بعد فترته، وإن كانت له بداية حسنة ـ فلا يحشر مع أهل هذه القصة، ولو تشفع له ألف عارف، بل من كمال المكر به انه يلقى شبهه في الآخرة على غيره حتى توهم معارفه من أهل المعرفة أنه هو ـ فلا يخطر ببال أحد أنه ينبغي أن يشفع له.(القشيري: المصدر السابق، ج1، ص246)

ويرى البروسوي في تأويله للآية: **(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ)** لما كان الموت على الكفر سببا لامتناع قبول الفدية دخلت الفاء هاهنا إيذانا بسببية المبتدأ لخبره **(مِنْ أَحَدِهِم)** فدية **(مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَباً)** تمييز أي ما يملأون من شرقها إلى غربها **(وَلَوِ افْتَدَى بِهِ)** أي: بملء الأرض ذهبا، فإن قيل نفي قبول الافتداء يوهم أن الكافر يملك يوم القيامة من الذهب ما يفتدي به وهو لا يملك فيه نقيرا ولا قطميرا فضلا عن أن يملك ملء الأرض ذهبا. قلنا: الكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير كناية عن أعز الأشياء وكونه ملء الأرض كناية عن كونه في غاية الكثرة والتقدير لو أن

الكافر يوم القيامة قدر على أعز الأشياء بالغا إلى غاية الكثرة وقدر على بذله لنيل أعز المطالب لا يقدر على أن يتوسل بذلك إلى تخليص أنفسهم من العقاب. وأعلم أن النفس عين لطيفة هي معدن الأخلاق الذميمة مودعة بين جنبي الإنسان أي: جميع جسده وهي أمارة بالسوء وهي مجبولة على صد الروحانية المخلوقة من الملكوت الأعلى فإنهم يأمرون بالخير وينهون عن الشر وهي مخلوقة من الملكوت السفلي كالشياطين وهم لا يأمرون إلا بالشر ومن طبعهم التمرد والإباء والاستكبار ولهذا تأبى النفس من قبول الموعظة وتظهر التمرد كما قيل في البردة:

فإن أمارتي بالسوء ما اتعظت   من جهلها بنذير الشيب والهرم

يعني أن النفس الأمارة بالسوء والعيب ما قبلت الوعظ من نذير الشيب فتمادت في غواية الجهل بعد الهرم وما كبحت عنان جموح الشهوة بأيدي الندم، وقد خلق الله النفس على صورة جهنم وخلق بحسب كل دركة فيها صفة لها وهي باب من جهنم يدخل فيها من هذا الباب إلى دركة من دركاتها السبع وهي سبع صفات الكبر، والحرص، والشهوة، والحسد، والغضب، والبخل، والحقد فمن زكى نفسه عن هذه الصفات فقد عبر عن هذه الدركات السفلية، ووصل إلى درجات الجنان العلوية. (البروسوي: المصدر السابق، ج2، ص64-65)

ويرى ابن عجيبة أن الإشارة في هذه الآية مفادها: كل من كفر بطريقة الخصوصية، وحرم نفسه من دخول الحضرة القدوسية، واستمر على كفرانه إلى الممات، فلا شك أنه يحصل له الندم وقد زلت به القدم، لأنه مات مصرا على الكبائر وهو لا يشعر، فإذا حشر مع عوام المسلمين، وسكن في ربض الجنة مع أهل اليمين، ثم رأى منازل المقربين في أعلى عليين، ندم وتحسر، وقد غلبه القدر، فلو اشترى المقام معهم بملء الأرض ذهبا ما نفعه ذلك، فيمكث في غم الحجاب وعذاب القطيعة هنالك، مقطوع عن شهود الأحباب على نعت الكشف والبيان، ممنوع عن الشهود والعيان. (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، ج1، ص، 345)

قال تعالى:

(أوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً) [الكهف: 31]

اللون الذهبي في هذه الآية اتخذ له دلالة جديدة من كونه صفة للحلاوة والجمال لأن الحق تعالى جعله أحد متممات الزينة والجمال لأهل الجنة، كما أن الحق تعالى جعل منه نعم الثواب وهذا ما يجعل اللون الذهبي له السيادة في مجال التزيين لأن الحق تعالى أثنى عليه بقوله تعالى: **(نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً)** فلو لم يكن هذا اللون قد استحق الثناء لما أثنى عليه الحق مع جملة الأشياء التي تكرم بها ثوابا لأهل الجنة.

يرى ابن عطاء في تأويله لقوله تعالى: **(مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ)** أي: على أرائك الأنس في القدس في حجاب القرب وميادين الرحمة، مشرفين على بساتين الوصلة، يشاهدون مليكهم في كل حال. (اليسوعي، بولس نويا: 1986، ص، 83)

ويرى ابن عربي في تأويله للآية: **(جَنَّاتُ عَدْنٍ)** من الجنان الثلاث **(يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ)** أي: يزينون فيها بأنواع الحلي من حقائق التوحيد الذاتي ومعاني التجليات العينية الأحدية، إذ الذهبيات من الحلي هي العينيات والفضيات هي الصفاتيات النورانيات. (ابن عربي: 2001، ج1، ص405)

فيما يذهب القشيري في تأويله للآية: **(أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ)** أولئك هم أصحاب الجنان، في رغد العيش، وسعادة الجد، وكمال الرقد، يلبسون حلل الوصلة، ويتوجون بتاج القربة، ويحملون على المباسط، ويتكئون على الأرائك، ويشمون رياحين الأنس، ويقيمون في مجال الزلفة، ويسقون شراب المحبة، ويأخذون بيد الزلفة ما يتحفهم الحق به من غير واسطة، ويسقيهم شرابا طهورا يطهر قلوبهم عن محبة كل مخلوق **(نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً)** نعم الثواب ثوابهم، ونعم الرب ربهم، ونعم الدار

دارهم، ونعم الجار جارهم، ونعم الحال حالهم. الأرائك كما وصفها ابن عباس رضي الله عنه: هي أسرة من ذهب وهي مكللة بالدر والياقوت عليها الجمال، والأريكة ما بين صنعاء إلى إيلة، وما بين عدن إلى الجابية.(القشيري: المصدر السابق، ج4، ص64-65)

ويقال: **(ويحلون فيها)** أي: في تلك الجنات من حليت المرأة إذا لبست الحلي وهي ما تتحلى به من ذهب وفضة وغير ذلك من الجوهر **(من أساور)** من ابتدائية وأساور جمع أسورة **(من ذهب)** من بيانية صفة لأساور وتنكيرها لتعظيم حسنها وتبعيده من الإحالة به. قال: في (بحر العلوم) وتنكير الأساور للتكثير والتعظيم. عن سعد بن جبير يحلى كل واحد منهم ثلاثة أساور: واحد من ذهب وواحد من فضة وواحد من لؤلؤ وياقوت فهم يسورون بالأجناس الثلاثة على المعاقبة أو على الجمع كما تفعله نساء الدنيا ويجمعن بين أنواع الحلي. قال في التأويلات النجمية: إن لأهل الإيمان والأعمال جزاء يناسب صلاحية أعمالهم وحسنها فمنها أعمال تصلح للسير بها إلى الجنات وغرفها وهي الطاعات والعبادات البدنية بالنية الصالحة على وفق الشرع والمتابعة ومنها أعمال تصلح للسير إلى الله تعالى وهي الطاعات القلبية من الصدق في طلب الحق والإخلاص في التوحيد وترك الدنيا والإعراض عما سوى الله والإقبال على الله بالكلية والتمسك بذيل إرادة الشيخ الكامل الواصل المكمل الصالح ليسلكوا ولا يغتر بالأماني فإن من زرع الشعير لا يحصد حنطة.(البروسوي: المصدر السابق، ج5، ص245-246)

ويرى ابن عجيبة أن الإشارة في هذه الآية مفادها: إن الذين آمنوا الإيمان الخصوص، وعملوا الأعمال التي تقرب إلى حضرة القدوس، وهي تحمل ما يثقل على النفوس، أولئك لهم جنات المعارف، تجري من تحت قلوبهم أنهار العلوم والمواهب، يحلون فيها بمقامات اليقين، ويلبسون ثياب العز والنصر والتمكين، متكئين على سرر الهنا والسرور، قد انقضت عنهم أيام المحن والشرور. (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، ج4، ص، 159-160)

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) [الحج: 23]

يرى ابن عربي في تأويله للآية: **(جَنَّاتٍ)** القلوب **(تَجْرِي مِن)** تحتهم أنهار العلوم **(يحلون فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ)** الأخلاق والفضائل المصوغة **(مِن ذَهَبٍ)** العلوم العقلية والحكمة العملية **(ولؤلؤ)** المعرف القلبية، والحقائق الكثيفة **(وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)** شعاع أنوار الصفات الإلهية والتجليات اللطيفة. (ابن عربي: المصدر السابق، ج2، ص55)

أما القشيري فيرى في تأويله للآية: أن التحلية تحصين لهم، وستر لأحوالهم، فهم للجنة زينة، وليس لهم بالجنة زينة:

وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا

(القشيري: المصدر السابق، ج4، ص208)

في حين يرى البروسوي في تأويله لقوله تعالى: **(يُحَلَّوْنَ فِيهَا)** من حليت المرأة إذا ألبست الحلي وهو ما يتحلى به من ذهب أو فضة، أي تحليهم الملائكة بأمره وتزينهم **(مِنْ أَسَاوِرَ)** أي: بعض أساور وهي جمع أسورة جمع سوار **(مِن ذَهَبٍ)** بيان للأساور **(وَلُؤْلُؤاً)** عطف على محل من أساور وقريء بالجر عطفا على ذهب على أن الأساور مرصعة بالذهب واللؤلؤ أو على أنهم يسورون بالجنسين إما على المعاقبة وإما على الجمع كما تجمع نساء الدنيا بين أنواع الحلي، وما أحسن المعصم إذا كان فيه سواران سوار من ذهب أحمر قان وسوار من لؤلؤ أبيض يقق وقيل: عطف على أساور لا على ذهب لأن السوار لا يكون من اللؤلؤ في العادة وهو غلط لما فيه من قياس عالم الملك بعالم الملكوت. (البروسوي: المصدر السابق، ج6، ص22)

الإشارة: قد اختصم أهل الظاهر مع أهل الباطن في شأن الربوبية، فقال أهل الظاهر: الحق تعالى لا يرى في دار الدنيا، ولا تمكن معرفته، إلا من جهة الدليل والبرهان، على طريق الإيمان بالغيب. وقال أهل الباطن من

أكابر الصوفية: الحق تعالى يُرى في هذه الدار، كما يرى في تلك الدار، من طريق العرفان، على نعت الشهود والعيان، لكن ذلك بعد موت النفوس وحط الرؤوس لأهل التربية النبوية، فلا يزال يحاذيه ويسير به، حتى يقول: ها أنت وربك، فحينئذ تشرق عليه شموس العرفان، فتغطى عنه وجود حس الأكوان، فلا يرى حينئذ إلا المكون، حتى لو كلف أن يرى غيره لم يستطع، إذ لا غير معه حتى يشهده. إن الله يدخل الذين آمنوا بطريق الخصوص، جنات المعارف، تجري من تحتها أنهار العلوم. (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، ج4، ص406-407)

يقول تعالى:

(يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [الزخرف: 71]

يرى التستري في تأويله لقوله تعالى: **(وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ)** قال: أي ما تشتهي !الأنفس من ثواب الأعمال، وتلذ الأعين بما فضل الله من التمكين في وقت اللقاء جزاء لتوحيدهم، فالجنة جزاء عمل الجوارح، واللقاء جزاء التوحيد. (التستري:2002، ص، 140)

ويرى ملا صدرا في تأويله: إن للنفس في ذاتها قوتان: نظرية وعملية، وتلك للصدق والكذب، وهذه للخير والشر في الجزئيات، وتلك للواجب والممكن والممتنع، وهذه للجميل والقبيح والمباح ولكل من القوتين شدة وضعف في فعلها، ورأي وظن في عقلها. والعقل العملي يحتاج في أفعاله كلها دائما إلى القوى البدنية. وأما العقل النظري فله حاجة ما إليها لا دائما، بل قد يكتفي بذاتها، كما في النشأة الأخروية، سواء كان في طبقة الكروبيين من المقربين، أو يكون في صنف المتوسطين وأصحاب اليمين، فإن أنهار الجنة وأشجارها وحورها وقصورها وسائر الأشباح الأخروية إنما تنبعث من ذات النفس وشهواتها وتصوراتها، كما في قوله تعالى: **(وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ)**. (الشيرازي، محمد بن إبراهيم: 1422هجري، ص368)

ويرى القشيري في تأويله للآية: العباد لهم فيها ما تشتهي أنفسهم لأنهم قاسوا في الدنيا – بحكم المجاهدات – الجوع والعطش، وتحملوا وجوه المشاق، فيجازون في الجنة بوجوه من الثواب، وأما أهل المعرفة والمحبون فلهم ما يلذ أعينهم من النظر إلى الله لطول ما قاسوه من فرط الاشتياق بقلوبهم، وما عالجوه من الاحتراق لشدة غليلهم. (القشيري: المصدر السابق، ج5، ص373)

أما البروسوي فيرى في تأويله: **(يُطَافُ عَلَيْهِم)** أي: على العباد المؤمنين بعد دخول الجنة، يدار بأيدي الغلمان والولدان والطائف الخادم، ومن يدور حول البيت حافظا والإطافة كالطوف والطواف **(بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ)** جمع صحفة كجفان جمع جفنة، وهي القصعة العريضة الواسعة، قال مجاهد: أي: أواني مدورة الأفواه. قال السدي: أي: ليست لها آذان، والمراد: قصاع فيها طعام **(وَأَكْوَابٍ)** من ذهب فيها شراب أصناف الشراب، جمع: كوب، وهو كوز لا عروة له ولا خرطوم ليشرب الشارب من حيث شاء،**(وَفِيهَا)** أي: في الجنة **(مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ)** من فنون الملاذ والمشتهيات النفسانية كالمطاعم والمشارب والمناكح والملابس والمراكب ونحو ذلك. قال في (الأسئلة المقحمة): أهل الجنة هل يعطيهم الله جميع ما يسألونه وتشتهي أنفسهم، ولو اشته نفوسهم شيئا من مناهي الشريعة كيف يكون حاله، والجواب: معنى الآية أن نعيم الجنة كله مما تشتهيه الأنفس، وليس فيها ما لا تشتهيه النفوس، ولا تصل إليه، وقد قيل: يعصم الله أهل الجنة من شهوة محال أو منهي عنها، يقول الفقير: دل هذا على أنه ليس في الجنة اللواطة المحرمة في جميع في جميع الأديان والمذاهب، ولو في دبر امرأته، والحاصل: أنه ليس في الجنة ما يخالف الحكمة كائنا ما كان، ولذا تستتر فيها الأزواج من غير محارمهن، وإن كان لا حل ولا حرمة هناك **(وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ)** يقال: لذذت الشيء بالكسر لذاذا ولذاذة أي: وجدته لذيذا. والمعنى تستلذه الأعين وتقر بمشاهدته، قال بعض الكبار: وفيها ما تشتهي أنفس أرباب المجاهدات

والرياضات لما قاسوا في الدنيا من الجوع والعطش وتحملوا وجوه المشاق، فيمتازون في الجنة بوجوه من الثواب ويقال لهم: كلوا من ألوان الأطعمة في صحائف من ذهب، وأشربوا من أصناف الأشربة في أكواب من ذهب هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية، وأما أرباب القلوب وأهل المعرفة والمحبة، فلهم ما تلذ الأعين من النظر إلى الله تعالى لطول ما قاسوه من فرط الاشتياق بقلوبهم وبذل الأرواح في الطلب.(البروسوي: المصدر السابق، ج8، ص431-432)

ويقال: (قال أبي هريرة:، عنه صلى الله عليه وسلم قال: **(أدنى أهل الجنة من له سبع درجات، هو على السادسة، وفوقه السابعة، وإن له ثلاثمائة خادم، ويغدى عليه ويراح بثلاثمائة صحفة من ذهب، في كل صفحة لون ليس في الأخرى مثله، وإنه ليلذ آخره كما يلذ أوله، ويقول: لو أذنت لي يارب لأطعمت أهل الجنة، وأسقيهم، ولا ينقص مما عندي شيء، وإن له من الحور العين اثنين وسبعين زوجة، سوى أزواجه في الدنيا، وإن الواحدة منهن ليأخذ مقعدها قدر ميل)** وفي حديث عكرمة: **(إن أدنى أهل الجنة منزلة من يفسح له في بصره مسيرة مائة عام، في قصور من ذهب، ليس فيها صحفة إلا وفيها لون ليس في الأخرى مثله، شهوته في آخرها كشهوته في أولها، وله نزل به جميع أهل الدنيا لوسع عليهم مما أعطى، ولا ينقص ذلك مما أوتي شيئا.)** (الحسني، ابن عجيبة، ج7، ص29)

الأبيض والاطمئنان الروحي

الأبيض لغة

البياض: لون (الأبيض) وقد قالوا بياض و(بياضه) كما قالوا منزل ومنزلة. وقد (بيض) الشيء (تبييضا) (فابيض ابيضاضا) و(ابياض ابيضاضا). وجمع الأبيض (بيض) و(بايضه فباضه) من باب باع أي فاقه في البياض ولا تقل يبوضه. وهذا أشد (بياضا) من كذا ولا تقل أبيض منه وأهل الكوفة يقولون ويحتجون بقول الراجز:

جارية في درعها الفضفاض

أبيض من أخت بني إباض

قال المبرد ليس البيت الشاذ حجة على الأصل المجمع عليه. وأما قول الآخر:

إذا الرجال شتوا واشتد أكلهم

فأنت أبيضهم سربال طباخ

فيحتمل أن لا يكون أفعل الذي نصحبه من للتفضيل وإنما هو كقولك: هو أحسنهم وجها وأكرمهم أبا تريد هو حسنهم وجها وكريمهم أبا فكأنه قال: فأنت مبيضهم سربالا فلما أضافه انتصب ما بعده على التمييز. و(الأبيض) السيف وجمعه (بيض). و(البيضان) من الناس ضد السودان. قال ابن السكيت: (الأبيضان) اللبن والماء. و(البيضة) واحدة (البيض) من الحديد و(بيض الطائر). و(البيضة) أيضا الخصية، وبيضة كل شيء حوزته وبيضه القوم ساحتهم. و(باضت) الطائرة فهي (بائض) ودجاجة (بيوض) إذا أكثرت البيض والجمع (بيض) مثل صبور وصبر ويقال (بيض) في لغة من يقول في الرسل رسل وإنما كسرت الباء لتسلم الياء. (الرازي، محمد بن أبي بكر: 1983، ص70–71)

ويرى الفيروزابادي في (الأبيض): (هو ضد الأسود: **(وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)** [فاطر: 27] **(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ)** [آل عمران: 106] **(وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ)** [آل عمران: 107] وبيض

(**أصله بُيض**) بالضم أبدلوه بالكسر ليصح الياء، والأبيض السيف. والأبيض: الفضة، والأبيض: الرجل النقي العرض. والأبيض: كوكب في حاشية المجرة، وقصر للأكاسرة، نقضه المكتفي، وبنى بشرفاته أساس التاج، وبأساسه شرفاته. والأبيضان: اللبن والماء، أو الشحم والشباب، أو الخبز والماء، أو الحنطة والماء، والموت الأبيض: الفجاءة وأبيض وابيضاض ضد أسود واسوداد، والبياض: لون الأبيض. وأسم للَّبن وفي كلامهم: إذا قل البياض كثر السواد وإذا كثر قل، ولما كان البياض أفضل، والسواد أهول، والحمرة أجمل، والصفرة أشكل ـ عبر عن الفضل والكرم بالبياض، حتى قيل لمن لم يتدنس بمعاب: هو أبيض الوجه، وسميت البيض، لبياضه، الواحدة بيضة. وكنى عن المرأة بالبيضة، تشبيها لها باللون، وفي كونها مصونة تحت الجناح ـ ولما كان البياض أفضل لون عندهم ـ كما قيل: البياض أفضل، والسواد أهول ـ عبر عن الفضل والكرم بالبياض، حتى قيل لمن لم يتدنس بمعاب: هو أبيض الوجه.) (الفيروزابادي: ب، ت، ج2، ص133ــــ379)

ويرى الراغب: إن ابيضاض الوجوه عبارة عن المسرة، واسودادها عبارة عن الغم، وعلى ذلك: (**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى وَجْهُهُ مُسْوَدّاً ظَلَّ وَهُوَ كَظِيمٌ**) [النحل: 58]، وبيضة البلد يقال في المدح والذم، أما المدح فلمن كان مصونا من بين أهل البلد ورئيسا فيهم، وعلى ذلك قول الشاعر:

كانت قريش بيضة فتفلقت

فالمح خالصه لعبد مناف

وأما الذم فلمن كان ذليلا معرضا لمن يتناوله كبيضة متروكة بالبلد، أي: العراء والمفازة. وبيضتا الرجل سميتا بذلك تشبيها بها في الهيئة والبياض، ويقال باضت الدجاجة، وباض الحر: تمكن، وباضت يد المرأة: إذا ورمت ورما على هيئة البيض. (الأصفهاني، الراغب: 1437هجري، ص154–155)

يعرف الباحث اللون الأبيض إجرائيا

اللون الأبيض كضوء يعد علة الألوان جميعها لأنه يتحلل من خلال تمريره من خلال موشور زجاجي إلى ألوان الطيف الشمسي والتي هي

الأصفر والأحمر والأزرق والبنفسجي والأخضر والبرتقالي، وتعد هذه الألوان أصل جميع الألوان الموجودة في الطبيعة، أما من كون اللون الأبيض صبغة وطلاء، فإنه يساعد على تخفيف الألوان الأساسية وغيرها محولا إياها إلى درجات مختلفة لا تعد ولا تحصى، وللون الأبيض مدلولات روحية وظاهرية كثيرة تناولها القرآن والفكر الصوفي بشكل واسع سيعرض لها الباحث في هذا المبحث.

النور الأبيض هو من أقرب الألوان دلالة على الواحدية ؛ ذلك لأن الواحدية هي أقرب ما تكون من دواة الحبر إذا جاز الوصف، والأشياء والحروف والأسماء والصفات كلها متعينة في الحبر لكنها لم تظهر بعد على سطح الورق، فهي موجودة معدومة، موجودة لأنها متعينة في الحبر، معدومة لأنها لا وجود لها خارج الحبر أي: على سطح الورقة، فكذلك النور الأبيض فهو من حيث الحقيقة يتضمن الألوان جميعها الأساسي منها والمركب وحتى اللون الأسود، هذا من حيث التحليل أما إذا كان على ما هو عليه (نور أبيض) فهو واحد جامع للألوان.

وحتى من حيث المرتبة فإن الواحدية هي أنزل من حيث المرتبة من الأحدية والذات، كذلك الحال فإن مرتبة النفس المطمئنة ذات اللون الأبيض، فهي أنزل من حيث المرتبة من النور الأخضر الخاص بمرتبة النفس الراضية، والنور الأسود الخاص بمرتبة النفس المرضية وهو آخر ألوان مراتب النفس وليس فوقها إلا الكمال المطلق الذي لا لون له.

كما أن الواحدية هي نهاية كل فان لأنها هي المعبر عنها بالحقيقة المحمدية، فمن وصل إليها من خلال الفناء فيها فقد وصل أقصى حالات الاطمئنان، والنور الأبيض هو نور النفس المطمئنة لأن صاحب هذه المرتبة قد بلغ مرتبة الاطمئنان غير أن الأثنينية لا يزال لها حضور في هذه المرتبة فجاء الزجر الإلهي لها لتذوب وتتماهى في الحقيقة المطلقة ولم يعد يبقى لها وجود خارج الحقيقة.

قال تعالى في كتابه الكريم:

(أُحلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) [البقرة: 187]

وقوله تعالى:

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) [آل عمران: 106]

وقوله تعالى:

(وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [آل عمران: 107]

وقوله تعالى:

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ) [الأعراف: 108]

وقوله تعالى:

(وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) [يوسف: 84]

وقوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ) [فاطر: 27]

وقوله تعالى:

(بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ) [الصافات: 46]

وقوله تعالى:

(كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ) [الصافات: 49]

يرى ابن عربي في فتوحاته تأويل قوله تعالى: (**حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**) إن أصل الألوان البياض والسواد وما عداهما من الألوان فبرازخ بينهما تتولد من امتزاج البياض والسواد، فتظهر الغبرة، والحمرة، والخضرة إلى غير ذلك من الألوان، فما قرب للبياض كانت كمية البياض فيه أكثر من كمية السواد، وكذلك في الطرف الآخر، وجاءت السنة في حديث حذيفة بالحمرة دون البياض فقال: هو النهار إلا أن الشمس لم تطلع وهو محتمل، والبياض المذكور في القرآن ليس بمحتمل، فرجحنا الأبيض على الأحمر بوجهين قويين: القرآن وعدم الاحتمال واعتبارهما حكم الإيمان وهو الأبيض فإنه مخلص لله غير ممتزج والأحمر للنظر الاجتهادي وهو حكم العقل، ونظر العقل ممتزج بالحس من طريق الخيال لأنه يأخذ عن الفكر عن الخيال عن الحس إما بما يعطيه وإما بما تعطيه القوة المصورة وهو قاطع بما يعطيه إلا أنه تدخل عليه الشبهة القادحة، فلهذا أعطينا الشفق الأحمر لنظر المجتهد، إذ الحمرة لون حدث عن امتزاج البياض والسواد وهو امتزاج خاص. وأما اعتبار التبين في قوله تعالى: (**وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ**) ولا يتبين حتى يكون الطلوع وإليه أذهب في الحكم فلم يحرم الأكل مع حصول الطلوع في نفس الأمر هو الظاهر في المظاهر الإمكانية لكن لم يتبين ذلك لكل أحد.) (ابن عربي: 2006، مجلد 2، ص 337-338)

وفي تأويل آخر يرى فيه ابن عربي: (لقد أباح الأكل والشرب (**حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ**) الذي هو بياض النهار (**مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ**) الذي هو أسود الليل (**من الفجر**) المستطير الممتد عرضا مع الأفق، وهو انفجار الصبح من الليل كانفجار الماء من الحجر فيحرم عليكم عند ذلك ما ذكرت تحليله بالليل لكم (**ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ**) أي: إلى غروب الشمس، وليس الحد هنا داخلا في المحدود بخلاف قوله تعالى (**وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ**) [المائدة: 6] فإن الحد هنا داخل في المحدود وليس الفرق بينهما من اللفظ، فإنه على السواء، وإنما خرج هذا عن حكم هذا، بدليل استفدناه من الشارع، والألف واللام في الفجر للتعريف بالفجر الثاني المعترض، فإن الفجر فجران: فجر أول، وهو ذنب السرحان وهو يأخذ في الطول طالبا كبد السماء

ثم تعقبه ظلمة، ثم بعد ذلك يطلع الفجر الثاني وهو الحد المشروع. (ابن عربي: 2007، ص210)

وفي حال كون الخطاب الإلهي يخاطب به الفرد الإنساني فإن ابن عربي يرى في تأويله للآية: **(حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ)** أي: حتى تظهر عليكم بوادي الحضور ولوامعه وتغلب آثاره وأنواره على سواد الغفلة وظلمتها، ثم كونوا على الإمساك المذكور بالحضور مع الحق حتى يأتي زمان الغفلة، لولا ذلك لما أمكنه القيام بمصالح معاشه ومهماته. (ابن عربي: 2001، ج1، ص69)

في حين يذهب القشيري في إشاراته: (أن الحق أخبر ـ في الحقيقة ـ لا يعود إليه عائد من أوصاف الخلق، إن كنت في العبادة التي هي حق الحق أو في أحكام العادة من صحبة جنسك التي هي غاية النفس والحظ، فسيان في حالك إذا أورد فيه الإذن.) (القشيري، عبد الكريم: 1999، ج1، ص142)

ويرى البروسوي في تأويله لقوله تعالى: **(حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ)** (هو أول ما يبدو من بياض النهار كالخيط الممدود دقيقا ثم ينتشر **(مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ)** هو ما يمتد من سواد الليل مع بياض النهار فإن الصبح الصادق إذا بدا يبدو كأنه خيط ممدود في عرض الأفق ولا شك أنه يبقى معه بقية من ظلمة الليل بحيث يكون طرفها الملاصق لما يبدو من الفجر كأنه خيط أسود في جنب خيط أبيض لأن نور الصبح إنما ينشق من خلال ظلمة الليل فشبها بخيطين أبيض وأسود **(مِنَ الْفَجْرِ)** أي: انشقاق عمود الصبح بيان للخيط الأبيض واكتفى ببيانه عن بيان الأسود لدلالته عليه والتقدير حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الفجر من الخيط الأسود من الليل، قوله **(حتى يتبين)** غاية للأمور الثلاثة أي: المباشرة والأكل والشرب ففي تجويز المباشرة إلى الصبح دلالة على جواز تأخير الغسل إليه وصحة صوم من أصبح جنبا لأن المباشرة إذا كانت مباحة إلى انفجار الصبح لم يمكنه الاغتسال إلا بعد الصبح بالضرورة وإلا لكانت المباشرة قبل آخر الليل بقدر ما يسع الاغتسال حراما وهو مخالف لكلمة حتى **(ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ)** أي: أديموا الإمساك عن المباشرة والأكل والشرب في جميع أجزاء النهار.) (البروسوي: 2003، ج1، ص303).

ويرى ابن عجيبة أن الإشارة في هذه الآية مفادها: (أن صوم الخواص، وخواص الخواص، هو الإمساك عن الفضول، وعن كل ما يقطع عن الوصول، أو الإمساك عن شهود الأغيار، وعن كل ما يوجب الأكدار. فإن عزمت النفس على هذا الصوم وعقدت النية عليه، حل لها أن تباشر أبكار العلوم اللدنية الوهبية، والحقائق العرفانية، وتفضي إلى ثيبات العلوم الرسمية الكسبية. العلوم اللدنية الوهبية شعارها، والعلوم الرسمية دثارها، العلوم اللدنية لباس باطنها، والعلوم الرسمية لباس ظاهرها.) (الحسني، ابن عجيبة: 2005، ج1، ص 190)

فالخيط الأبيض هنا له دلالة الوضوح من كونه حد فاصل بين الظلمة ووضوح النهار أي: له دلالة برزخية ما بين الوقت المسموح والوقت غير المسموح بين كفتي ميزان الحياة الدنيا ومتطلباتها وما يراد منك بإتجاه الآخرة، فالصيام نهارا هو ما يراد منك تجاه ربك الذي يستلزم منك أن لا تجعل مشارك في التوجه والميل إلى جهة الحق تعالى، في حين أجاز لك الحق تعالى أن تكون ميولك في الليل إلى جهة الأغيار واللذات المشروعة.

إن الصيام في حقيقته يعد شروع أولي في عملية التخلي والتحلي والغاية منه أن يبلغ المرء مرتبة قوله تعالى: (**وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً**) [المزمّل: 8] أي: الانقطاع التام لله تعالى من أجل عودة الروح إلى ما كانت عليه قبل أن تكون في الجسد، أي: تلك النفخة التي نفخها الله تعالى في الجسد الآدمي، طاهرة مطهرة، وهذا لم يتم إلا إذا تخلت النفس عن تعلقاتها بالأغيار، فالصيام هي محاولة لتعويد النفس على التخلي من التعلق بغير الحق تعالى حتى يبلغ العبد مأمنه في عملية الفناء في الله تعالى.

الخيط الأبيض هنا له دلالة النور الإلهي الذي تتصف به النفس الكاملة، وهو محل ترقي النفس المطمئنة، فإذا ترقت النفس المطمئنة إلى أفق مرتبة النفس الراضية ظهر لها النور الأبيض كعلامة على ترقيها باتجاه الفناء، إن عملية الفناء في النور الأعظم يستوجب عدم الالتفات إلى غيره فجاء الصيام ليعد العبد هذا الإعداد تمهيدا لبلوغ مرتبة الكمال.

يقول تعالى:

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) [آل عمران: 106]

هذه الثنائية وكأنها نتيجة لسلوك الإنسان في الحياة الدنيا فمن التزم في حفظ حدود الخيط الأبيض الذي أشره الحق تعالى، جاء في النتيجة وهو أبيض الوجه من فرحة اللقاء بنور الحق تعالى، أما من لم يضع لنفسه حدا في المراقبة، وسار خلف مشتهيات النفس الأمارة بالسوء، فيجعل الحق تعالى وجهه امتداد لظلمة نفسه، ذلك لأنهم اختاروا اللذة المحدودة على اللذة المطلقة، هذه الآية تخاطب المؤمنين من أهل العهد الذين لم يصبروا في الله تعالى وانجروا وراء اللذات الدنيا فجعل تعالى سمة الظلمة سمة واضحة لهم.

يرى ابن عربي في تأويله للآية: (إن ابيضاض الوجه عبارة عن تنور وجه القلب بنور الحق للتوجه إليه والإعراض عن الجهة السفلية النفسانية المظلمة، وذلك لا يكون إلا بالتوحيد والاستقامة فيه بتنور النفس أيضا بنور القلب، فتكون الجملة متنورة بنور الله واسوداده ظلمة وجه القلب بالإقبال على النفس الطالبة حظوظها والإعراض عن الجهة النورية الحقية لمصادقة النفس ومتابعة الهوى في تحصيل لذاتها، وذلك إنما يكون باتباع السبل المتفرقة الشيطانية **(فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ)** فيقال لهم: **(أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ)** أي: أحتجبتم عن نور الحق بصفات النفس الظلمانية، وسكنتم في ظلماتها بعد هدايتكم وتنوركم بنور الاستعداد وصفاء الفطرة وهداية العقل **(فذوقوا)** عذاب الحرمان باحتجابكم عن الحق.) (ابن عربي: المصدر السابق، ج1، ص117)

أما السلمي فيرى في تأويله للآية: **(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)** أي: أن الناظر إلى مولاه يوم القيامة أبيض الوجه أما المحجوب عن النظر لمولاه فهو أسود الوجه، ويقال: يوم تبيض الوجوه بالشهادة وتسود وجوه بالفرار من الزحف، ويقال: تبيض وجوه بالقناعة وتسود وجوه بالطمع. (السلمي: 2001، ج1، ص 118-119)

ويرى التستري أن المؤمن يبيض وجهه بنور إيمانه لكونه يجازى الجزاء الأوفى، أما الكافر فيسود وجهه لما يلحقهم من آثام الكفر والاحتجاب. (التستري: 2002، ص50)

في حين يرى القشيري: (إن أرباب الدعاوى تسود وجوههم، وأصحاب المعني تبيض وجوههم وأهل الكشوفات غدا تبيض بالإشراق وجوههم، وأصحاب الحجاب تسود بالحجبة وجوههم، فتعلوها غبرة، وترهقها قترة. ويقال: من أبيض ــ اليوم ــ قلبه ابيض ــ غدا ــ وجهه، ومن كان بالضد فحاله عكس، ويقال: من أعرض عن الخلق ــ عند سوانحه ــ ابيض وجهه بروح التفويض، ومن علق بالأغيار قلبه عند الحوائج إسود محياه بغبار الطمع، فأما الذين ابيضت وجوههم ففي أنس وروح، وأما الذين اسودت وجوههم ففي محن ونوح.) (القشيري: المصدر السابق، ج1، ص256–257)

ويرى البروسوي في تأويله: أي: تذكروا أيها المؤمنين من كونهم هم المخاطبون في هذه الآية، أن هناك يوم فيه تبيض الوجوه وتسود، فمن تمسك في إيمانه وعمل على هداه يكون وجهه في ذلك اليوم أبيض، أما من تخلى عن جادة الحق بعد إيمانه فإنه سيكون من ضمن الذين تسود وجوههم، إن بياض الوجه واسوداده كنايتان عن البهجة والسرور وكمون الخوف فيه، يقال لمن نال بغيته وفاز بمطلبه ابيض وجهه أي استبشر ولمن وصل إليه مكروه اغبر لونه وتبدلت صورته، فمعنى الآية أن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه فإن كان ذلك من الحسنات استبشر بنعم الله وفضله، وإذا رأى الكافر أعماله القبيحة اشتد حزنه وغمه، وقيل: بياض الوجه وسواده حقيقتان فيوسم أهل الحق ببياض الوجوه والصحيفة وإشراق البشرة وسعي النور بين يديه ويمينه وأهل الباطل بأضداد ذلك والحكمة في ظهورهما في الوجوه حقيقة أن السعيد يفرح بأن يعلم قومه أنه من أهل السعادة قال تعالى مخبرا عنه: **(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)** [يس:26– 27] والشقي يغتم بعكس ذلك. (البروسوي: المصدر السابق، ج2، ص، 80)

ويرى ابن عجيبة: (**يوم تبيض وجوه**) المؤمنين المتقين على التوحيد (**وتسود وجوه**) الكافرين المتفرقين فيه، أو تبيض وجوه المخلصين وتسود وجوه المنافقين، أو تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة، وبياض الوجوه وسوادهما كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيها، وقيل: يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة وسعي النور بين يديه وبيمينه، وأهل الباطل بأضداد ذلك، ويرى ابن عجيبة: إن الإشارة في هذه الآية مفادها: قد نهى الله تعالى ــ أهل الجمع التشبه بأهل الفرق، في اختلاف قلوبهم ووجوههم وآرائهم وأنظارهم، من بعد ما جائتهم الدلائل الواضحات على طلب جمع القلب على الله، والتودد في الله، وصرف النظرة في شهود الله، وأولئك المفترقون في لهم عذاب عظيم، وأي عذاب أعظم من الحجاب ؟ يوم نبيض وجوه العارفين فتكون كالشمس الضاحية، يسرحون في الجنان حيث شاءوا، وتسود وجوه الجاهلين، لما يعتريها من الندم، وسوادها باعتبار وجوه العارفين في النقص عنها، وإن كانت مبيضة بنور بها فيمن سلف قبلكم ؟ فذوقوا عذاب القطيعة من شهود الحبيب في كل حين، وأما الذين ابيضت وجوههم وأشرقت بنور البقاء، ففي رحمة الله، أي: جنة المعارف.) (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، ج1، ص357)

وقوله تعالى:

(وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [آل عمران: 107]

مفهوم الرحمة من المفاهيم الواسعة المطلقة، وحين يصف الحق تعالى مكانة الذين ابيضت وجوههم بأنهم في رحمة الله تعالى هذا يعني أن الحق تعالى جعلهم في مطلق رحمته بشكل أبدي، وللرحمة وجوه مطلقة من السعادات التي لا تحصى ولا تعد، منها ما هو معنوي، ومنها ما هو حسي، ومنها ما هو مادي، ومنها ما هو روحاني، ومنها ما هو نوراني، ومنها ما هو قرب من الحق تعالى إلى غير ذلك من السعادات التي لا تحد ولا توصف، والتي تمثل بمجموعها أركان الرحمة الواسعة التي وعد الله بها خاصته وأهله.

يرى ابن عربي في تاويله: إن المراد بالذين ابيضت وجوههم، هم الذين تحقق لهم روح الوصال، فشهدوا جمال الحق تعالى ونور القدس، فهم خالدون لكونهم موحدين قائمين بالعدل الذي هو ظل الحق تعالى. (ابن عربي: المصدر السابق، ج1، ص117)

يقول تعالى:

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ) [الأعراف: 108]

نزع يده: أي أظهر حقيقتها النورانية من كونها تعكس حقيقة الصلة التي تجمع بينه وبين نور الحق تعالى، وكأن الحال يعكس الامتداد الإلهي الذي ينبغي أن يكون عليه كل عبد، فالنور الأبيض وإن كان ذا طابع سحري، غير أنه في الوقت نفسه يحرض المتلقي على الكشف عن هذا المعنى الظاهر للعيان، إذ ليس من السهل أن يتمكن كل فرد من إظهار هكذا معجزة أو كرامة إلا من منَّ الله عليه واصطفاه وقربه.

فالآية غايتها أن تثير البحث لدى المتلقي من أجل الوصول إلى الحقيقة المطلقة كما جاء في خطابه تعالى: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)** [فصلت: 53] يتضح هنا أن الغاية من الآيات هي الكشف عن حقيقة الحق تعالى، والتحقق فيه، فالآية التي أظهرها نبي الله موسى عليه السلام هي محاولة منه لأن يحيل المتلقي إلى جهة باطن الحق، وعدم البقاء مع ظاهر الحق تعالى، من خلال استخدام النظر القلبي بدلا من البصر الحسي، وقوله تعالى: **(لِلنَّاظِرِينَ)** أي: أهل النظر الحسي والقلبي على حد سواء لتكون هذه الآية محفزا للجميع على التواصل مع الحق تعالى وصولا إلى مقام الفناء في الحق تعالى، فاللون الأبيض له دلالة التحريض إلى جهة النور الأعظم، وهي جهة الاطمئنان الذي يخرج المرء من الشقاء الدائم.

يرى ابن عربي في قوله: **(وَنَزَعَ يَدَهُ)** (أي: أظهر قدرته الباهرة التي تبهرهم وتظهر نور حقية دعواه، والظاهر أنه كان الغالب على زمانه هو السحر، فخرج بالسحر الإلهي كما أن الغالب على زمان محمد عليه الصلاة

والسلام كان هو الفصاحة، فكانت معجزة القرآن. وعلى زمان عيسى عليه السلام الطب، فجاء بالطب الإلهي ــ على ما روي ــ لأن معجزة كل نبي يجب أن تكون من جنس ما غلب على زمانه ليكون أدعى إلى إجابة دعواه.) (ابن عربي: المصدر السابق، ج1، ص239-240)

السحر: من القدرات الإلهية الممنوحة منه تعالى إلى إبليس والجن بشكل خاص ذلك بناء على طلب إبليس بما يقابل عبادته قبل أن يعصي الحق تعالى في مسألة سجوده لآدم عليه السلام، فطلب من الحق أن ينظره بما يمتلكه من قدرات منحها الحق له أيام عبادته كما جاء في قوله تعالى: **(قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)** [الأعراف: 14] فأجابه الحق تعالى بقوله: **(قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ)** [الأعراف: 15] وكان من بين ما أنظر به تعالى إبليس هو القدرات السحرية أو ما يسمى (علم السحر) وهو من العلوم التي تؤثر على المتلقي فيرى الوهم والخيال حقيقة، وقد شهد زمن نبي الله موسى عليه السلام تفشي هذا النوع من العلوم لأن الشياطين قد عرفت أن الدعوة التوراتية كانت تنطلق إلى حقيقة الظاهر الحسي عادةً إياه مظهر من مظاهر الحق تعالى وتجلياته، فاشتغلت الشياطين على توجه يخالف توجهات النبي موسى عليه السلام لتستميل بالناس إلى جهة غير جهة الحق تعالى، وهم السحرة إلا أن موسى عليه السلام استطاع بتسديد منه تعالى أن يظهر السحر الإلهي الذي لا يصمد أمامه السحر الشيطاني، فكان هذا سببا في إيمان الكثيرين من الناس، فبياض اليد من القدرات الإلهية التي لا يستطيع إليها السحرة سبيلا.

ويرى القشيري في تأويله للآية: **(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ)** (العصا- وإن كانت معه من زمن ــ فيده أخص به لأنها عضو له، فكاشفه أولا برسم من رسمه ثم أشهده من ذاته في ذاته ما عرف أنه أولى به منه، فلما رأى انقلاب وصف في يده علم أنه ليس بشيء من أمره بيده.) (القشيري: المصدر السابق، ج2، ص242)

ويرى البروسوي إن الإشارة في أن الله تعالى (جعل عصاه ثعبانا لأنه أضافها إلى نفسه حين قال: **(هِيَ عَصَايَ)** [طه: 18] ثم جعلها محل حاجاته

حيث قال: (**وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**) [طه: 18] ففيه إشارة إلى أن كل شيء أضفته إلى نفسك، ورأيت محل حاجاتك فإنه ثعبان يبتلعك ولهذا قال: (**قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى**) [طه: 19] يعني: لا تتمسك بها ولا تتوكأ عليها ولا كان قادرا على أن يجعلها في يده ثعبانا كذا في التأويلات النجمية، (**وَنَزَعَ يَدَهُ**) أي: أخرجها من جيبه أو من تحت إبطه (**فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ**) أي: بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن العادة ويجتمع عليها النظارة تعجبا من أمرها وذلك ما يروى أنه أرى فرعون يده وقال ما هذه فقال يدك ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة من صوف، ونزعها فإذا هي بيضاء بياضا نورانيا غلب شعاعه شعاع الشمس وكان عليه السلام آدم شديد الأدمة، وفيه إشارة: إلى أن الأيدي قبل تعلقها بالأشياء كانت بيضاء فلما تمسكت بالأشياء صارت ظلمانية فإذا نزعت عنها تصير بيضاء كما كانت فافهم.) (البروسوي: المصدر السابق، ج3، ص224)

قال تعالى:

(**وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ**) [يوسف: 84]

يرى ابن عربي في تأويله للآية: (**وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ**) أولا بوقوعه في غياهب الحب وكلال قوة بصيرته لفرط التأسف على فراقه، ثم بترقيه عن طوره وفنائه في التوحيد وتخلفه عنه وعدم إدراكه لمقامه وكماله، فبقي بصره حسيرا غير بصير بحال يوسف (**فَهُوَ كَظِيمٌ**) مملوء من فراقه. (ابن عربي: المصدر السابق، ج1، ص، 330)

في حين يرى ابن عطاء في تأويله للآية: (**وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ**) (بكى يعقوب وتأسف لفقد الألفة، وذاك أنه لما لقي يوسف زاد في البكاء. فقال له: يا أبت أتبكي عند الفراق وعند التلاقي ؟ قال: ذاك بكاء حرقة الفراق، وهذا بكاء الدهش، (**وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ**) ذهبت عين يعقوب في بكاء يوسف لأن بكاءه كان معلولا، منوطا بالولد، فأثر فيه. ولم تذهب عين آدم من كثرة بكاءه لأن بكاءه كان حقا، فحفظ فيه، إن

يعقوب، عليه السلام، أراد أن يبكي على يوسف فتغرغرت عيناه. فأراد أن يرسلهما، فوجد لذة البكاء، فكضمها وردها في عينيه فابيضتا.) (اليسوعي، بولس نويا: 1986، ص64)

أما القشيري فيرى في تأويله: (تولى عن الجميع ـ وإن كانوا أولاده ـ ليعلم أن المحبة لا تبقي ولا تذر ويقال أراد إخوة يوسف أن يكون إقبال يعقوب عليهم بالكلية فأعرض، وتولى عنهم،وفاتهم ما كان لهم، ولهذا قيل: من طلب الكل فاته الكل، ويقال: لم يجد يعقوب مساعدا لنفسه على تأسفه على يوسف فتولى عن الجميع، وأنفرد بإظهار أسفه، وفي معناه أنشدوا:

فريد عن الخلان في كل بلدة إذا عَظُـمَ المطلوبٌ قلَّ المساعد

ويقال كان بكاء داود عليه السلام أكثر من بكاء يعقوب، لأن يعقوب عليه السلام بكى لأجل يوسف ولم يكن في قدرة يوسف أن يحفظ بصره من البكاء لأجله، وأما داود فقد كان يبكي لله، وفي قدرة الله ـ سبحانه ـ ما يحفظ بصر الباكي لأجله، سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق ـ رحمه الله ـ يقول ذلك، وقال إن يعقوب بكى لأجل مخلوق فذهب بصره، وداود بكى لأجل الله فبقى بصره، ويقول: لم يقل الله(عمى يعقوب) ولكن قال: (**ابيضت عيناه**) لأنه لم يكن في الحقيقة عَمًى، وإنما كان حجابا عن رؤية غير يوسف، ويقال: كان ذهب بصر يعقوب حتى لا يحتاج إلى أن يرى غير يوسف، لأنه لا شيء أشد على الأحباب من رؤية غير المحبوب في حال فراقه.) (القشيري: المصدر السابق، ج3، ص203-204)

أما البروسوي فيرى في تأويله: (**وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ**) الموجب للبكاء فإن العبرة إذا كثرت محقت سواد العين وقلبته إلى بياض وقد تعميها كما أخبر عن شعيب عليه السلام، فإنه بكى من حب الله تعالى حتى عمي فرد الله عليه بصره، وكذا بكى يعقوب حتى عمي وهو الأصح لقوله تعالى: (**ارْتَدَّ بَصِيراً**) [يوسف: 96]. (البروسوي: المصدر السابق، ج4، ص323).

ويرى ابن عجيبة في قوله تعالى: (**وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ**) من كثرة البكاء،وكأن العبرة محقت سوادها، وقيل: عمي. وقد روي عن

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: **(حزن يعقوب حزن سبعين ثكلى، وأعطي أجر مائة شهيد، وما ساء ظنه بالله قط)** وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع، ولعل أمثال ذلك لا يدخل تحت التكليف، فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد، وقد بكى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال: **(إن القلب يحزن، والعين تدمع، ولا تقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون)** (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، ج3، ص300)

لقد ابتلى الحق تعالى يعقوب عليه السلام بفراق أبنه وكان من جراء تعلقه به ابيضاض عينيه نتيجة الحزن، ولما كان التعلق يجري في غير الحق، ولم يكن بالحق تعالى فقد أحال تعالى علاج العينين إلى يوسف عليه السلام، وكأن في هذا إشارة إلى أن تعلق يوسف بالحق كان أكبر من تعلق أبيه، ولذلك فقد أعطي معجزة الشفاء لعمى أبيه ليشعر يعقوب عليه السلام إلى ضرورة العودة إلى التعلق بالحق تعالى، ولا يحتجب بحبه بغير الحق تعالى وكفى يعقوب إشارةً أنه علاجه جرى بكرامة قميص ابنه في حين إن الحق تعالى أقرب إليه من حبل الوريد، إن ابيضاض العينين له دلالة غيرة الحق على عبده.

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ) [فاطر: 27]

الجدد: يراد به الطريق الذي يصل بك إلى مطلوبك إذا سلكت به، وقد وصفه الحق تعالى بالأبيض لأن هذا الطريق يتبنى الجوع، وعدم الشبع كوسيلة لمخالفة هوى النفس ؛ ذلك لأن الشبع يعد أحد أهم الحاجات التي تطلبها النفس، كما أن الشبع يساعد على النوم، وهذا ما لا يحمد عند الصوفية كونهم يفضلون الذكر المستمر في الليل والنهار.

يقول القاشاني: إن اصطلاح الموت الأبيض الذي تردده الصوفية بشكل مستمر يراد به الجوع، فإذا كان السالك ممن لا يعرف الشبع، بل لا يزال

جائعا، فقد مات الموت الأبيض، فتحيا فطنته إذ كانت البطنة تميت الفطنة، فإذا ماتت بطنته حيت فطنته، وبذلك أدخل الجوع كواحد من أهم شروط الرياضة والخلوة، ولقد أحسن القائل:

عرض الحياة أقل أن يسعى له	من جوهر العليا بعض طلابه
ومواسم اللذات في عمر الفتى	كالبرق أومض في خلال سحابه
بل إنما يسعى اللبيب لقوته	ولستر عورته وكشف حجابه
لم يثنه عن ري غدران الحمى	بشرا به خدع العدى بسرابه

(القاشاني، عبد الرزاق: 2004، ص439)

ويرى ابن عجيبة إن الإشارة في هذه الآية مفادها: إن الله تعالى أنزل من سماء الغيوب ماء الواردات الإلهية، فأخرجنا به ثمرات، وهي العلوم والأذواق والوجدان، مختلف ألوانها، فمنها علوم الشرائع، وتحقيق مسائلها، ومنها علم العقائد، وتشييد أدلتها وبراهينها، ومنها علوم اللسان بإتقان قواعدها، ومنها علم القلوب وتصفيتها من العيوب، وهو علم الطريقة، ومنها علم الأسرار، وهي أسرار الذات والصفات، وهو علم الحقيقة، ومن جبال العقل طرق بيض، وحمر وسود، فالبيض: طرق الكشف والبيان، وحلاوة الذوق والوجدان (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، ج6، ص118-119)

قال تعالى:

(بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ) [الصافات: 46]

بيضاء لذة للشاربين: أي عبارة عن لذة يجتمع فيها من اللذات الشيء الكثير، تماما مثلما النور الأبيض من الأنوار الجامعة لألوان الطيف الشمسي وسواها من الألوان، ففيها لذة لا يمكن أن توصف إلا من خلال المعرفة الذوقية، فلن يستطيع أحد وصفها لأخر لم يجرب معطيات ذوقها بعد، وحين يصفها تعالى لنا بقوله: **(بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ)** فإنه يدعونها للفوز بها إذا كنا ممن يطلبون اللذة في عالم الجنان.

والبياض يراد به اللذة الجامعة لمذاقات متعددة من الصعب وصفها أو الإحاطة بكنهها الذوقي، وهذا القول فيه شيء من التحريض لنا لأن نجتهد ونجد من أجل الوصول إلى تحصيل هذا المذاق الجميل، فالبياض يدل على صفاء المذاق من الطعم الذي قد يعكر من المذاق كما هو الحال في المطعومات التي نتناولها في هذه الدنيا كأن يكون فيها زيادة من الملوحة أو الحلاوة أو ما شابه ذلك والله أعلم.

يرى الشيخ الكيلاني في تأوله للآية: **(بَيْضَاء)** لا لون له يدركها النظر ويخبر عن كيفيتها الخبر **(لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ)** أي: لذيذة للعارفين المتعطشين بزلال التوحيد وبرد اليقين، لا يدرك كيفيتها إلا من يذوقها لا يظمأ منها أبدا، ولا تخرج نشوتها عنه أمدا، بل يطلب دائما مزيدا. (الكيلاني: 2009،مصدر سابق، مجلد4، ص، 207)

يرى ابن عربي في تأويله: **(بيضاء)** أي: (نورية من عين الأحدية الكافورية، لا شوب فيها ولا مزج من التعينات **(لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ)** يغتال العقل لأنهم أهل صحو أخلصهم الله من الشوائب والحجاب فلا ينكر لهم **(ولا هم عنها ينزفون)** بذهاب العقول وإلا لم يكونوا أهل الجنات الثلاث في مقام البقاء.) (ابن عربي: المصدر السابق، ج2، ص180)

في حين يرى القشيري أن شراب أهل الجنة يوجب لهم الطرب ولا وحشة هناك، شرابا يحضرهم ولا يسكرهم، لأنه لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، أي لا تذهب بعقولهم، ولا تزيل حشمتهم، ولا ترفع عنهم هيبتهم، فقوم يشربون وهم بوصف الستر، وآخرون يسقون في الحضور ـ وهم على نعت القرب. (القشيري: المصدر السابق،ج5، ص237)

ويرى البروسوي أن خمر الجنة أشد أبيض وهو أشد من لون اللبن والخمر البيضاء لم تر في الدنيا، ولن ترى، وهذا من جملة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وبيضاء تأنيث أبيض صفة أيضا لكأس **(لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ)** لكل من يشرب منها، ووصفها بلذة أما للمبالغة أي: كأس لذيذة عذبة شهية طيبة صارت في لذتها كأنها نفس اللذة أو لأنها تأنيث اللذة بمعنى اللذيذ وصفها

باللذة بيانا لمخالفتها لخمور الدنيا لانقطاع اللذة عن خمور الدنيا كلها رأسا بالكلية. (البروسوي: المصدر السابق، ج7، ص457)

أما ابن عجيبة فيرى في تأويله: **(بيضاء)** صفة للكأس، أي صافية في نهاية اللطافة **(لذة للشاربين)** أي: لذيذة للشاربين، وصفت باللذة، كأنها نفس اللذة وعينها. أو ذات لذة. **(لا فيها غول)** أي: لا تغتال عقولهم فتذهب بها، كخمر الدنيا وهو من غاله يغوله: إذا أهلكه وأفسده. أو: لا فيها غول: إثم، أو وجع بطن أو صداع، وهو وجع الرأس، أي: لا ينشأ عنها شيء مما ذكر **(ولا هم عنها ينزفون)** يسكرون بكسر الزاي فمعناه: لا ينفد شرابهم، يقال: أنزف الرجل فهو منزف: إذا فنيت خمرته. (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، ج6، ص172–173)

إن كلمة بيضاء جاءت هنا وهي تحمل دلالة التنزيه من أي أثر جانبي سيء كما هو عليه الحال في خمر الدنيا، فاللون الأبيض: هنا له دلالة الصفاء الكامل من الأعراض الجانبية، كما أن الخمرة، والسكر لها معان كثيرة لدى الصوفية منها:

يعرفه القاشاني: غيبة بوارد قوي، والمراد بالغيبة: عدم الإحساس، فمن غاب بوارد قوي سمي سكرانا، وذلك أن العبد إذا كوشف بنعت الجمال الذي عرفته في باب تجلي الأفعال حصل له السكر وطرب الروح، وهام القلب، فإذا عاد من سكره سمي صاحيا، والصحو مختص بأهل السماع، فإن السكران لا يسمع ولا يفهم، كما أن السكر حال صاحب الرؤية عندما ينقهر تحت سلطنة الجمال ولهذا أنشدوا:

فصحوك من لفظي هو الأصل كله وسكرك من لحظي يبيح لك الشربا

فما مل ساقينا، وما مل شارب عقار لحاظ كأسهُ يسكرُ اللبا

وما يخفى أن الصحو والسكر بعد الذوق والشرب، وقد يعني السكر رؤية الغير والغيرية، ويقابله الصحو، وقد يفسر السكر بأنه حالة للنفس ترد عليها من عالم القدس تؤدي بها إلى ما هي بصدده من النظام المتعلق بعالم

الأجسام، بحيث يوجب الاختلال في الحركات والسكنات.(القاشاني: المصدر السابق، ص، 253)

وعلى الغالب أن السكر في الآخرة يجري على أنواع فمنهم من يشرب خمر كما تقدم ذكره ومنهم من يشرب من خمر المعارف التي لم يعتاد عليها من قبل، ومنهم من يشرب في البصيرة والنظر إلى الحبيب، ومنهم من يسكره القرب والدنو، وهكذا تتنوع المذاقات، والمشارب، وجميعها موصوف باللون الأبيض لأنه أساس كل الألوان.

قال تعالى:

(كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ) [الصافات: 49]

يرى القشيري أن بعض أهل الجنة لا يسوقفهم جمال الحور في الجنة لأنهم لا يطلبون غي جمال الحق تعالى، وقاصرات الطرف وإن كن لا ينظرن إلى غير الوالي، ثم الولي قد ينظر إليهن، وإن هناك من لا ينظر إليهن من الأولياء:

جننا بليلى وهي جنت بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

(القشيري: المصدر السابق، ج5، ص237)

يرى البروسوي في قوله تعالى: **(كأنهن)** القاصرات **(بيض)** بفتح الباء جمع بيضة وهو المعروف سمي البيض لبياضه، والمراد به هنا بيض النعام **(مكنون)** ذكر المكنون مع أنه وصف به الجمع فينبغي أن يؤنث اعتبارا للفظ الموصوف ومكنون أي: مستور من كننته أي: جعلته في كن وهو السترة شبهن ببيض النعام المصون من الغبار ونحوه في الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة، فإن ذلك بأحسن ألوان الأبدان أي: لم تنله الأيدي فإن ما مسته الأيدي يكون متدنسا، قال بعض العرفاء: البيضة: حلال لطيف ولكن أهل التصوف لا يأكلها لأنها ناقصة وإنما كمالها إذا كانت دجاجة وكذا لا يحصل منها الشبع التام وكذا من مرق العمارة لعدم طهارته فلتكن هذه المسألة نقلا وفاكهة لأهل الإرادة ومن الله الوصول إلى أسباب السعادة.) (البروسوي: المصدر السابق، ج7، ص459)

ويرى ابن عجيبة أن الحق تعالى شبههن ببيض النعام المكنون من الريح والغبار، في الصفاء والبياض. (الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، ج6، ص173)

ويرى ابن عربي في تأويله للآية: (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ) في الأداحي لغاية صفائها في خدور القدس ونقائها من مواد الرجس (يتساءلون) يتحادثون بأحاديث أهل الجنة والنار ومذاكرة أحوال السعداء والأشقياء مطلعين على كلا الفريقين وما هم فيه من الثواب والعقاب.) (ابن عربي: المصدر السابق، ج2، ص180)

النفس المطمئنة والنور الأبيض

إن من علامات بلوغ العبد مرتبة النفس المطمئنة فإنه كثيرا ما يرى في رؤياه قراءة القرآن، والأنبياء، والسلطان، والعلماء، والمشايخ، والقضاة، والكعبة، والمدينة، والقدس، والجوامع، والمساجد، والمدارس، ومسكن الصلحاء، وأمثال هذه كالسهم، والقوس، والسيف، والخنجر، والسكين وأمثال هذه مثل التفنك، والطوب، والكتب تدل على الدائرة المطمئنة والخلاص منها أو الانتقال إلى مرتبة النفس الراضية وهي مرتبة أعلى منها وجب عليه بملازمة الشيخ الذي لقنه الطريقة ليعطيه الورد أو التسبيح الخاص بهذا الرقي، إن هذه الرؤى لا تأتي إلا إلى المريد الصادق الكامل، فإن دلالة المصحف في الرؤية أو القرآن يدل على صفاء قلبه، وإن رؤية الأنبياء قوة للإسلام والإيمان بهم أما رؤية السلاطين هو أن يصرف وجوده في رياضة الله والمفتون صفة الاستقامة وأفكاره مع عبادة الله تعالى والخيرات والمشايخ صفة إرشاد نفسه والقضاة صفة الإطاعة لأمر الله تعالى ورؤية الكعبة الشريفة والمدينة والقدس المبارك يدل على طهارة قلبه من الغش والوسواس ورؤية الجوامع والمساجد وأمثال ذلك مثل السنجق،والعلم والسهم، والقوس، والمنجنيق، والتفنك إشارة إلى الوساوس الشيطانية، والخلاص منها يتم بالرجوع إلى شيخ الطريقة ليلقنه الاسم أو التسبيح الخاص بهذا الأمر. (الكيلاني، عبد القادر: ب ت، ص24-25)

ويرى الكيلاني قدس سره: أن من صفات النفس المطمئنة الجود، والتوكل، والتحمل، والحقيقة، والرضا، والشكر، والخلاص منها يتم بتلقين الشيخ التسبيحة أو الورد الذي يعينه للمريد كما أن من صفات النفس المطمئنة ذات النور الأبيض: أن سيرها مع الله وإن عالمها الذي يرد إليها هو من الحقيقة المحمدية، ومحل استلام الوارد السر وحالها الوصلة مع الحق تعالى وواردها الحقيقة، ونورها ابيض. (الكيلاني: المصدر السابق، ص35–37)

ويرى الداموني: أن صاحب النفس المطمئنة وبعد مداومته الذكر بحسب أصوله، يتجلى عليه الحق تعالى بأسمه الحق، ويسري ذلك التجلي في ظاهره وباطنه أي يتخلق بأخلاق الحق، وينادي له الحق في سره (أنا الحق) لكمال اتصاله إلى الحق سبحانه وتعالى فعند ذلك تضمحل عنه الأحكام الإمكانية، وتظهر له الآثار الحقانية، وفي هذه الحالة يحتاج إلى مرشد كامل ليدله على معرفة الفرق بين الوجود الحقاني والوجود الامكاني، ويخرجه من بحر الحيرة إلى ساحل الهداية، ومن مقام التلوين إلى مقام التمكين، لأن هذا المقام مزلة أقدام العارفين وقلما يخلص فيه العارف عن الدعاوي والشطحات. ومتى حصل له هذا الكمال، وتقرر في مقام الوصال، وظهر له النور الأبيض، وهو نور النفس المطمئنة، وتحقق بالحقيقة وتقرر في مقام الوصلة يلقنه الأستاذ بما يخص المقام الخامس. (رسائل صوفية مخطوطة: 2007، ص 54–56)

مصطلح الدرة البيضاء

يرى المتصوفة: (أن الدرة يراد بها العقل الأول، وإنما سموه بذلك لكونه أشد الممكنات بساطة ونزاهة، فلذلك هو متلون، ولهذا جاء في الحديث قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(أول ما خلق الله درة بيضاء)** و**(أول ما خلق الله العقل)** و**(أول ما خلق الله القلم)** وكانت هذه الأسماء على مفهوم واحد، وإن كان وقوعها عليه باعتبارات مختلفة، فلما كان العقل هو أعلى الموجودات الممكنة، وأفضلها، واشرفها سمي بالدرة، إذ كانت الدرر أعلى الجواهر البحرية، وأشرفها، وأفضلها، وإن الدر ماء سماوي خالص في غاية

الصفاء، عما يشوب غيره من الكدورات الأرضية يدر من مدرار السماء، فينزل إلى البحر المالح فيتلقاه الصدف فيتكون، وينعقد في البحر بخصوص قابلية في الصدف، ويتكيف فيه بكيفية في تعينه بحسبه، وكذلك العقل الأول، وجوده دار إلى صدف قابلية الإمكان من ماء الحياة الفائضة من بحر الوجوب الجاري في هواه النفس الرحماني من فوقية سماء الربوبية، فالعقل الأول من حيث وجوده درة بحر الوجوب، وأصلها من ماء حياة النفس الرحماني، وهو أيضا درة بحر الإمكان باعتبار أحدية جمع حقائق مظهريات الممكنات، وبياضها لأن البياض أفضل الألوان، وإتمها مناسبة بالنور، ولهذا سميت النفس بالزمردة، وبالياقوتة الحمراء، لأن الحمرة والخضرة وغيرها من الألوان مما هو غير البياض، والسواد لها البرزخية بينهما، فكذا النفس لها البرزخية بين العقل والطبيعة.) (القاشاني: المصدر السابق، ص213-214)

ويرى القاشاني: (إن النفس المطمئنة هي التي صارت مطمئنة على المداومة على الطاعات، بحيث لا تجد ميلا إلى تركها ولا طلبا لشيء من المعاصي، وهي المشار إليها بقوله تعالى: **﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾** [الفجر: 27] فدخولها في العباد المضافين إلى الحضرة هو دخولها في زمرة الأرواح المقربين المكرمين (**الذين لا يعصون**)، ولذلك لا تضاف هذه النفس المطمئنة بأوصاف المعتكفين على حضرة القدس، وتخلقها بأخلاقهم من النزاهة على التلذذ بالجسمانية الدنية عن التلبيسات بأحكام الانحرافات الخلقية، والنقائص الطبيعية بتنزهها عن العادات المردية، وقيامها بأنواع العبادات المنجية، فصح لها الدخول في باطن الجنة، الذي هو ستر غيب الذات بستور صور الصفات كما عرفت، وذلك لخلعها ملابس الخلقية وتحققها بصفة الوحدة الحقية، وهذا التفسير المذكور في النفس الأمارة ثم اللوامة والمطمئنة هو على اصطلاح الطائفة، وأرباب النظر العقلي يعبرون بالأمارة عن النفس الحيوانية لكونها هي الأمارة بالشهوة، والغضب وبالمطمئنة عن القوة العقلية، وعن اللوامة عن كل واحدة من النفسين باعتبار مخالفتها للأخرى.) (نفسه: ص، 448)

دلالات اللون الفضي

الفضة لغة:

يعرفها الراغب: الفضة: اختصت بأدون المتعامل بهـا مـن الجـواهر، ودرع فضفاضة، وفـضفاض: واسـعة. (الأصـفهاني، الراغـب: 1437ه، ص638)

الفضة اصطلاحاً

يعرف الباحث اللون الفضي إجرائيا: لون من الألوان التي تشبه إلى حد ما لون معدن الفضة، وله من الدلالات والمعاني الروحيـة الـشيء الكثيـر سيعرض لها الباحث في بحثه.

ارتبط اللون الفضي كصفة لمعدن الفضة ، ومعدن الفضة من المعـادن النفيسة، والثمينة في الوقت نفسه، ويأتي ذكرها دائما بعـد ذكـر الـذهب ، وادخل هذا المعدن جنبا آلي جنب مـع معـدن الـذهب فـي كثيـر مـن الاستخدامات ، كالمـسكوكات النقديـة والـسبائك والمـصوغات والحلـي، واستخدمت صفاته ووظفت من باب البلاغة في الأدب ، وادخل في الـشعر والنثر بدلالات جميعها لا تخرج من كونها تؤكد القيمة الجمالية والأوصـاف الحميدة لهذا المعدن أو من وصف به.

وفي هذا البحث يحاول الباحث أن يقف على مدلولات اللون الفضي فـي القران الكريم، والفكر الصوفي لعله ومن خلال هذه المـدلولات أن تكـون استعارته في مجال فن التصوير قد استندت إلى مرجعية فكريـة وعقائديـة يستند إليها ليشكل ذلك مدخلا مهما لفهم بعض المـضامين التـي تناولتهـا الأعمال الفنية سواء في الميدان الفني الزخرفـي أو الفنـون التجريديـة أو الرمزية وما شاكلها من الأساليب والاتجاهات الحديثة في ميدان فن التصوير.

فيكون التوجه إلى فهم المرجع الأساس أدق وأسلم في عملية فهـم مـا تناسل عنه من إبداعات فنية وثقافية أو ما تربى تحت ربوعها وأخـذ عنهـا ورضع منها.

قال تعالى: (**وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ**) [القصص: 12] ولا احسب أن يكون هناك انصح من رضاعة الأم ، وليس هناك انسب من الانتماء لها.

واللون الفضي وما تمخض عنه من اشتقاقات، في معاجم اللغة لابد لها أن تأخذ حصة من هذه المقدمة لان فيها ما يمس مجريات البحث من قريب ففي قواميس اللغة يمكننا الوقوف على بعض ما يتناسل عن هذه المفردة وكما يلي:

فضض الشيء: موهه بالفضة أو رصعه (الشرتوني : ب ت ، ج 2، ص 93)

أي: انه البس الشيء حلة غير حلته ، وهذا يعني أن حقيقة الشيء تحتجب خلفه ، كالحديد الذي يطلى بالفضة ، ويمكن استعارة هذا الوصف وإسقاطه على المرائي التي تظهر شيء ، وتخفي شيء آخر ، يقول تعالى: (**الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ*وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**) [الماعون:6- 7] واللون الفضي حين تكون إحدى دلالاته ـ حجاب- فان هذا لا يقلل من شانه الرمزي أو التعبيري ، إذ لولا خاصيته الجمالية العالية لم يتم اختياره وسيلة للحلية والحجاب ، يتخفى خلفه من أراد الاحتجاب ، كذلك الحال في استخدامه للترصيع ؛ لان لون معدنه يعطي جمالية للشيء المرصع به.

أفض العطاء: أجزله: ولما كان معدن الفضة من المعادن الثمينة جرى استخدام اشتقاق لغوي يرمز إلى كثرة الكرم، أو العطاء، ويأتي هذا الاشتقاق ليصف آحاد الناس من الأجواد ، يقول تعالى في هذا السياق:

(**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) [يونس: 26]

وقوله تعالى: (**لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**) [ق: 35]

تفضفض الشيء: تفرق، كثيرا ما يرد هذا الوصف ليدلل على أحوال جميلة ، فنقول مثلا ،: فض الإشكال، أي تفرق، أو فض الحزن ، أو فض العسر ، أو فض النزال.

افتض الماء: صبه شيء بعد شيء، من العادات الجميلة التي يعامل بها الضيف أو كبير السن، أو شيخ القبيلة.

الفاضة: الداهية، الذي يصلح لحل المعضلات الجسام والإشكالات المعقدة، وهي من الصفات الجميلة التي يندر أن يحصل عليها كل إنسان.

الفضة: النوع، جوهر معروف ابيض نقي وهو اقرب المنطرقات إلى الذهب.(نفسه: ص931)

الفضيض: الماء العذب، أطلقت عليه هذه الصفة لا نه يشابه الفضة في بياضه وصفائه، وخلوه من الشوائب.(نفسه: ص 931)

دلالات اللون الفضي في القران والفكر الصوفي:

قال تعالى:

(وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) [الزخرف: 33]

أخوف ما يخاف على الإنسان إذا اتخذ الحياة الدنيا عن الآخرة بدلا، وعادة فان هذا مبعثه سببين، الأول: أما أن يكون لديه شك في حياة اسمها الآخرة، وان الله تعالى يبعث من في القبور في يوم محدود اسمه يوم القيامة، وكما جاء في الخطاب القراني على لسان المعتقدين بهذا الرأي: **(وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)** [الأنعام: 29]

أما الثاني: فإنهم يدركون بان هناك موت، وحياة في الآخرة ، لكن الأماني والأهواء لها سلطة عليهم تماما، وكما ورد في قوله تعالى: **(يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ)** [الحديد: 14]

إن الحالة الثانية هي بلا شك أخف وطأة من الحالة الأولى ، ومن المفيد أن نذكر بان هناك مجموعة ثالثة تجتمع لديها الحالتين الأولى والثانية في الوقت نفسه ، وهم الذين يكفرون بالرحمن أي هم المعنيين بالآية الأولى.

إن هذه الصفة آو الاسم (**الرحمن**) تندرج تحتهـا جميـع الـصفات، أو الأسماء الحسنى، كالعليم، والرحيم، والسلام، والمؤمن، والبارئ، والمصور، والرزاق، واللطيف، والمنعم، والعفو، والحنان، والجواد، والبديع،والرشـيد، وباقي الأسماء الجمالية.(الجيلي، عبد الكريم: ب ت، ص 55)

قال تعالى: (**قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**) [الإسـراء: 110] ففي هذه الآية يتضح لنا جليا، بأننا حين نتوجه بالدعاء، أو الدعوة باسم الله تعالى(وهو اسم الذات) أو اسم الرحمن، لكي تتحقق لنا أماني (وهي بـلا شك جوانب جمالية) فان الحال في هذه الدعوة سيكون بمحصلة واحدة ، ذلك لأنك حين دعوت الله تعالى كان المقصود من اسـم الله هـو الأسـماء، أو الصفات الجمالية، ولم تكن تريد من هذا الاسم أن تتحقـق لـك اسـتجابات جلالية، وكان الحال يطلب من الذات تحقيق ما اندرج تحت صفة الرحمن من أسماء أو صفات، وهي جميعها بلا شك أسماء جمالية.

فالكافر بالرحمن أي الساتر للصفات الجمالية ، هو فـي الوقـت نفـسه مظهرا للصفات الجلالية ومن تطغي عليه الصفات الجلالية فكأنـه أعطـى لنفسه الحق أن يكون ندا لله تعالى ذلك لان الـصفات الجلاليـة هـي مـن اختصاص الله تعالى وحده لا يرضى أن يشاركه به أحدا.يقول الله تعالى في الحديث القدسي: (**العزة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني منهما شـيئا عذبته**) ويقول أيضا: (**من لان بحقي وتواضع لي ولم يتكبـر فـي ارضـي رفعته حتى أجعله في عليين**) [السامرائي: 1988، ص26ـــ 37].

مما تقدم يبدو لنا أن الله تعالى يريد منا أن نتخلق بالصفات الجمالية، ولا نكفر بها ، كما أن من المثير لغضبه تعالى حين يتخلـق المـرء بالـصفات الجلالية ، كالمتكبر، والعزيز، والمـذل ، وذو بطـش شـديد ، والمنـتقم ، والكبير ، والمتعالي ، والجبار..الخ.

من هذا الباب جاء قوله تعالى: (**لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ**) وكأن المراد من هذا القول أن تكون هناك عقوبة تناسب الكافر بالرحمن ، وحين أخبرنا الله تعـالى

بقوله: **(لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)** أدركنا من خلال هذا الإخبار، أن العقوبة لم تكن في الحياة الدنيا فحسب ، بل في الآخرة اشد وأقسى، وهنا لابد من توضيح أمر مهم وهو أن الانشغال عن الله تعالى في الحياة الدنيا لا يعني هذا أن المرء هو في نعيم مؤقت؛ ذلك لان الجهل هو من الصفات الحيوانية، والصفات الحيوانية من شانها تبعد المرء عن المعارف اليقينية بكل مستوياتها**(اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين)** وهذا بحد ذاته نزول من المرتبة الإنسانية إلى المرتبة الحيوانية، وهذا الجهل أو النزول إلى أسفل سافلين هو نوع من أنواع العذاب، ولذلك فان عملية جعل الكافر بالرحمن، لبيوتهم سقفا من فضة من باب التأنيب والإدانة؛ وكأن الحق تعالى أراد أن يقول: ماذا يفيد سقف الذهب إذا كان صاحب السقف في المستوى الحيواني أو هو أقل من ذلك ؟ كما أن هذا من باب زيادة الحجب، واستمرارها، وإدامتها عليهم، إذ أن العقوبة العاجلة قد تنبه الكافر فيرجع عن كفره باستخدام بصيرته بشكل صحيح ، لكن الله تعالى لا يريد لهم إلا استمرارهم في الحجب لما علم فيهم من استعداد للكفر، والاستمرار عليه.

ومن هذا الباب يلاحظ كثيرا عند بعض الناس، أنهم كلما يمعنون في الكفر، كلما يزيدهم الله مالا كثيرا، قال تعالى:

(كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً) [الإسراء: 20]

وقوله تعالى:

(اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) [البقرة: 15]

وحين يجعل الله تعالى سقف الكافر بالرحمن من فضة فانه من باب المد الإلهي الذي يبقي من الطغاة على حالهم حتى يحين وقت الحساب، فما يغنيه في هذا اليوم سقفه الفضي من العذاب شيء.

والفضة هنا لها دلالة المد الجمالي، فهي جميلة لذاتها يفتتن بها المرء، فينشد أليها وينسى ما هو له، كما أن في هذه الآية إشارة جميلة تكمن في

جعل سقف البيت (للكافر بالرحمن من فضة) ولم يقل جدران البيت أو أبواب البيت ، ذلك لان السقف يوحي بالعلو والارتفاع وهذه النسب تـذكر المـرء دائما بالله تعالى ، لان الله له هذه الصفات الجلالية وحده وحـين يجعـل الله تعالى سقف الكافر بالرحمن من فضة ، ذلك ليكون هذا السقف حجاب دائـم من خلال افتتان المرء به وعدم طلبه نسبة أعلى من جهة الغيـب ، بـل أن الافتتان هنا يضغط عليه اتجاه تحصيل الزيادة من الحياة المادية والدنيوية.

قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِـنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) [آل عمران: 14]

في قوله تعالى: **(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ)** مما لاشك فيه أن من أعلى الاختبارات هو الافتتان بالشيء والتعلق به ، وما كان ليحدث لـولا وجـود ثلاث عوامل، الأول: القدرة الموضوعة في الشيء المزين الجميل ، لقابليـة الجذب ، والاستهواء ، وإغواء الناظر، أما العامل الثاني: الاستعداد والفطرة الموضوعة في روح الإنسان والتي تختص في حبه للجمال ، إذ أن الله تعالى جميل ويحب الجمال، والإنسان نفخة من روح الله فهو أيضا جميـل ويحـب الجمال إذا كان استعداده وفطرته سليمة ، أما العامل الثالث: الوسـيط الـذي يعمل على أن يتعلق الإنسان بالأشياء الجميلة ، والوسيط نوعين، النوع الأول هو ما يطلق عليه بالكفة الشيطانية ، ويمثلها (الهوى، والـنفس، والوسـاوس الشيطانية) أما النوع الثاني: هو ما يطلق عليه بالكفة الرحمانيـة ، ويمثلهـا (الرسول، أو النبي، أو الولي المرشد، أو الشيخ، أو إمام الزمان، أو خليفة الله في الأرض، أو العالم الرباني).

وفي هذا الباب يرى ابن عربي وبالتحديد في قوله تعالى: **(أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَـذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)** [فاطر: 8]

(فما رأى سوء العمل حسنا، وإنما رأى الزينة التي زين بها، فإذا كان يوم القيامة ورأى قبح العمل فر منه فيقال له: هذا الذي كنت تحبه وتتعشق به فتهواه ، فيقول: لم يكن بهذه الصورة حين أحببته ولا بهذه الحلية ، أين الزينة التي كانت عليه وحببته أليه ؟ فأني ما تعلقت إلا بالزينة لا به ... وما قال الحق هذا القول **(زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ)** ألا ليلقن عبده الحجة إذا كان فطنا) (ابن عربي: 1997، ج4، ص 270)

كما ويبدو من خلال الآية إن إمكانية تأثير الزينة لا تقع على الجميع، وان عملية حب الزينة والتعلق بها والتعشق بها ولذاتها لا تحصل لدى الكل بل تقع فقط لدى الناس من البشر، إذ أن الناس اشتقت من النسيان، ويحصل النسيان نتيجة فقدان رابطة الحب والتعشق، فلو كان المرء محب لله تعالى لجعله الحب دائم الذكر لمحبوبه، يقول الشبلي:

رآني فوراني عجائب لطفه   فهمت وقلبي بالفراق يذوب

فلا غائب عني فأسلو بذكره   ولا هو عني معرض فأغيب

(الشيبي: 1967، ص86)

ويقول الحلاج:

والله ما طلعت شمس ولا غربت   إلا وحبك مقرون بأنفاسي

ولا جلست إلى قوم أحدثهم   إلا وأنت حديثي بين جلاسي

(الشيبي: 1984، ص، 113)

فالمحب كثير الذكر لمحبوبه، وحين يكون كذلك فلا ينسى من يحب، ولما أحب الناس الزينة التي جملت الأشياء فإنها بهذا توجهت إلى ما سوى الله، فأحالها الله إلى ما تحب، لان جلاله يمنع أن يتساوى المخلوق مع الخالق في توجه القلب، ولما أحب الناس السوى زين لهم بواسطة الوسائط من الشياطين ، يقول تعالى: **(وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)** [الزخرف: 36] ولما كان الإنسان مصدر من أنس، ويقال: من نسي وهو في نسيان مستمر لله الواحد الأحد، وسع الله له حب الكثرة في الحياة

الدنيا ، فهو دائم الميل للكثرة **(مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)** [آل عمران: 14] إلا أن الإنسان بقدر تعلقه بجمال الكثرة، وتعشقه فيها فانه سيحال إلى جهنم جزاءا له، لا نه نسي الله تعالى فان مآبه في الآخرة سيقابل بجفاء الله عنه، قال تعالى: **(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)** [الأعراف: 179].

ويصف ابن عربي في تأويله للآية التالية: **(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ)** بان الإنسان مركب من نسبتين، نسبة منه تعود للعالم العلوي، وأخرى للعالم السفلي، وحين ظهر للوجود، احتجب بمجموعة الحجب، منها الكثيفة، ومنها غير ذلك كالحجب الأثيرية، فأعاقت هذه الحجب بصيرته ،ونسي الحق لا نه بهذه الحجب ابتعد عنه، فسيطرت عليه الظلمة ودار الغربة (فإذا هو بشعشعة نور من التمييز، ولمعان برق من عالم العقل، وداع يناديه من الهوى والشيطان، فتبعه فصادف منزلا نزها، وروضة أنيقة، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، فاستوطنه، وشكر سعيه، ورضيه مسكنا). (ابن عربي:1978، ص170)

فتكون دلالة اللون الفضي في هذه الآية، في كثرته، دلالة جمالية عالية تنجذب أليها بصائر الناس وأفئدتها، كما أن جماليته جاءت من الله تعالى ليحيل أليها الناس فتنة لهم في الحياة الدنيا.

ويرى ابن عطاء في تأويله لقوله تعالى: **(وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً)** أي: كان ذلك بمثابة اعتذار من الله تعالى إلى أنبيائه وأوليائه انه لم يزو عنهم الدنيا إلا لأنها لا خطر لها عنده، وأنها فانية.فآثر لهم العقبى التي هي باقية وأهلها مبقون. (اليسوعي، بولص نويا: 1986، ص140)

أما القشيري فيرى في تأوله للآية: **(وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)**

معنى الآية أنه ليس للدنيا عندنا خطر، فالذي يبقى عنا لو صببنا عليه الدنيا بحذافيرها لم يكن ذلك جبرانا لمصيبته، ولولا فتنة قلوب المؤمنين لجعلنا لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج من فضة، وكذلك ما يكون شبيها بهذا، ولو فعلنا، لم يكن لما أعطيناه خطر، لأن الدنيا بأسرها ليس لها عندنا خطر.0 (القشيري: 1999، ج5، ص365)

في حين يذهب البروسوي في تأويله للآية: **(وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً)**. بتقدير المضاف مثل كراهة أن يكون الناس، فإن لولا لانتفاء الثاني لوجود الأول، ولا تحقق لمدلول لولا ظاهرا، والمعنى: ولولا كراهة أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكفار في سعة وتنعم لحبهم الدنيا، وتوهم أن ذلك الفضيلة في الكفار، فيجمعوا، فيكونوا في الكفر أمة واحدة. **(لَجَعَلْنَا)** لحقارة الدنيا، وهو أنها عندنا. **(لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ)**، أي: لشر الخلائق وأدناهم منزلة **(لِبُيُوتِهِمْ)** بدل اشتمال من لمن، أو اللام بمعنى على وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن إفراد المستكن في يكفر باعتبار لفظها، والبيوت والأبيات جمع بيت، وهو أسم لمبنى مسقف مدخله من جانب واحد بني للبيتوتة، قال الراغب أصل البيت مأوى الإنسان بالليل، ثم قد يقال من غير اعتبار الليل فيه والبيوت بالمسكن أخص، والأبيات بالشعر، ويقع ذلك على المتخذ من حجر ومدر ومن صوف ووبر وبه شبه بيت الشعر **(سُقُفاً)** متخذة **(مِّن فَضَّةٍ)** جمع سقف، وهو سماء البيت، والفضة جسم ذائب صابر منطرق أبيض رزين بالقياس إلى باقي الأجساد، سميت فضة لتفضفضها وتفرقها في وجوه المصالح **(وَمَعَارِجَ)** عطف على سقفا جمع معرج بفتح الميم وكسرها، بمعنى السلم، قال الراغب: العروج ذهاب في صعود، والمعارج والمصاعد، والمعنى: وجعلنا لهم مصاعد ومراقي من فضة حذف لدلالة الأول عليه **(عَلَيْهَا)** أي: على المعارج **(يَظْهَرُونَ)** يقال ظهر عليه إذا علاه وارتقى إليه وأصل ظهر الشيء أن يحصل شيء على ظهر الأرض، فلا يخفى، ثم صار مستعملا في كل بارز للبصر والبصيرة، والمعنى: يعلون السطوح والعلالي.(البروسوي: 2003،ج8، ص406)

ويرى ابن عجيبة في تأويله: (**وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً**) أي: لولا كراهة أن يجتمع الناس على الكفر ويطبقوا عليه، (**لَجَعَلْنَا**) لأجل حقارة الدنيا عندنا (**لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ**) بدل من (**سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ**) أي: متخذة منها، (**وَمَعَارِجَ**) أي: ولجعلنا لهم مصاعد، أي: سلالم من فضة أيضا، يصعدون عليها إلى السطوح (**عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ**) أي: يعلون السطوح والعلالي عليها. (الحسني، ابن عجيبة:2005،ج7، ص15)

قال تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**) [التوبة: 34]

من ينسى الله تعالى، يبقى عرضة للشيطان، لا نه مصاب بالعشو، ذلك لعدم ارتقاء بصيرته إلى مستوى التمييز بين الحق والباطل، ومن يكون هذا ديدنه يكون باستمرار عرضة للاستغلال، ومن هذا الباب جاء الخطاب الإلهي لبني البشر أن يتجهوا للأيمان، لكي يظهر بهذا التوجه شعاع نور الأيمان فيريهم طريق الحق، ويجعل لديهم فرقان يميزوا بين الباطل والحق.

ولأجل هذا جاء الخطاب الإلهي (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**) فما جاءت هذه الدعوة إلا لما قد يحصل بعدها، فنبهنا تعالى بأن (**آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ**).

إن الأحبار والرهبان، هم كبار رجال الدين في الديانتين اليهودية، والمسيحية، وفي هذا التنبيه إشارة تتشظى باتجاهات عديدة منها:

1ـ أشار تعالى بكلمة (**الكثير**)، والكثير هو ما يزيد عن نصف العدد، أي أن القلة من رجال الدين هم المعول عليهم في التوجيه والأخذ برأيهم في عملية السلوك باتجاه الحق، ولذلك جاء في قوله تعالى وفي موضع آخر: (**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا**) [الأحزاب: 67] وبناءا على هذا، فان التوجه للإيمان هو الذي يكفل بتربية القلب لان يكون فيه قابلية واستعداد للفرقان فيميز بين الحق، والباطل، ومن ثم فان عملية الإتباع، والسماع لرجال الدين تكون قد بنيت على علم، ومحسوبة بدقة.

2ـ عملية الأيمان أو حقيقته لا تحصل إلا من خلال توجه القلب بالتعلق ومحبة الله تعالى، وبذلك يكون من الذاكرين، وحين يكون كذلك فهو قريب من الله تعالى، فلن ينساه تعالى برعايته، ومن رعاية الله تعالى للعبد يجعل له فرقان يميز به بين الحق والباطل، ويبعد عنه كيد الشياطين، يقول تعالى: **(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ)** [البقرة: 152].

وبعكس هذا التوجه فان المرء يكون، ناس لربه منسيا منه تعالى، عرضة لنهب الشياطين، محجوب بجهالته، فيقع فريسة حبر الشيطنة، ورهينة الاستغلال، فيوجه غير التوجه الصحيح، فيخرج عن جادة الصواب.

ومن هذه الضرورة فان يكفل بعدم النسيان، والالتزام بالأول يمنع من الوقوع بالثاني، ثم يأتي استكمال الخطاب الإلهي بقوله تعالى: **(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ)** يقول ابن عربي: إن عملية جمع المال وكنزه وحبه وعدم الأنفاق لا يكون إلا لاستحكام رذيلة الشح، وحب المال وكل رذيلة كيه، يعذب بها صاحبها في الآخرة ،ويخزى بها في الدنيا ولما كانت مادة رسوخ تلك الرذيلة واستحكامها هي ذلك المال، كان هو الذي يحمى عليه في نار جحيم الطبيعة وهاوية النفس، والنفس تغلب القلب من هذه الجهات لا من جهة العلو التي هي جهة استيلاء الروح.(نفسه: ص198).

والمال هو ما مال له قلبك فملكته، وما يملكه الإنسان ليس الذهب، والفضة أو المال المادي فحسب، بل المعرفة، والعلم تغني المرء أكثر من الغنى المادي، وحتى يأخذ الخطاب الإلهي مداه الأرحب لابد له أن يأخذ حدود واسعة لأن كلام الله تعالى، أكله كل حين، فلا يمكن تقييده بجهة دون جهة أخرى أو تقييده تحت حكم محدد، ونختم عليه، بل هو قابل للتأويل المستمر شريطة أن يكون المقصد هو سبيل الحق.

وقوله تعالى: **(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ)** أي: العلم والمعرفة الحقة **(وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ)** يحجبونها عن الخلق ولا يرشدونهم إلى طريق الحق عن طريق التبصير وتوجيه العناية لهم من خلال الصحبة والأخذ بأيديهم إلى جادة الصواب، يقول تعالى: **(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ**

وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [النحل: 125] وقوله تعالى: **(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)** [الأنبياء: 73] وبالضد من هذا هناك من يدعوا لغير الحق ، يقول تعالى: **(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ)** [القصص: 41]

فان الذي تنور بالمعرفة وجب عليه أن يرشد الناس لطريق الحق فإذا كنز معرفته الحقة، عرض الناس القريبين منه إلى أن يكونوا فريسة للشيطان، وبهذا يكون كمن شهد المنكر وسكت عنه.

ويرى ابن عربي في فتوحاته في تأويل له لهذه الآية: **(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)** كان ذلك قبل فرض الزكاة التي فرض الله على عباده في أموالهم، فلما فرض الله الزكاة على عباده المؤمنين طهر الله بها أموالهم وزال بأدائها اسم البخل من مؤديها فإنه قال فيمن أنزلت من أجله: **(فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ)** [التوبة: 76] فوصفهم بعدم قبول حكم الله فأطلق عليهم صفة البخل لمنعهم ما أوجب الله عليهم في أموالهم، ثم فسر العذاب الأليم بما هو الحال عليه فقال تعالى: **(يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ)** [التوبة: 35] وذلك أن السائل إذا رآه صاحب المال مقبلا إليه انقبضت أسارير جبينه لعلمه أنه يسأله من ماله فتكوى جبهته فإن السائل يعرف ذلك في وجهه. ثم أن المسئول يتغافل عن السائل ويعطيه جانبه كأنه ما عنده خبر منه فيكوى بها جنبه، فإذا علم من السائل أنه يقصده ولا بد أعطاه ظهره وانصرف فأخبر الله أنه تكوى بها ظهورهم، فهذا حكم مانعي الزكاة أعني زكاة الذهب والفضة. (ابن عربي: 2006، مجلد 2، ص252)

ويضيف ابن عربي في فتوحاته أن المراد في قوله تعالى: **(فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)** فإن المراد في هذه البشرى لغة وعرفا، فأما البشرى من طريق العرف فالمفهوم منها الخير ولا بد، ولما كان هذا الشقي ينتظر البشرى في

زعمه لكونه يتخيل أنه على الحق قيل (بشره) لانتظاره البشرى ولكن كانت البشرى له بعذاب أليم وأما من طريق اللغة فهو أن يقال له ما يؤثر في بشرته، فإنه إذا قيل له خير أثر في بشرته بسط وجه وضحكا وفرحا واهتزازا وطربا، وإذا قيل له شر أثر في بشرته قبضا وبكاء وحزنا وكمدا واغبرارا وتعبيسا ولذلك قال تعالى: **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ* تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ)** [عبس:38- 41] فذكر ما أثر في بشرتهم، فلهذا كانت البشرى تنطلق على الخير والشر لغة، وأما في العرف فلا، ولهذا أطلقها الله تعالى ولم يقيدها. (نفسه: مجلد 5، ص8)

ويقال: من بخل بالقليل من ملكه فقد سد على نفسه باب نجاته، وفتح على نفسه طريق هلاكه، وقيل: ليس من أخلاق الأنبياء والصديقين البخل، لأنه روي عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: **(ما جبل ولي الله إلا على السخاء)**. (السلمي:2001،ج1، ص273)

وفي تأويل آخر يرى فيه ابن عربي: جمع المال وكنزه مع عدم الإنفاق لا يكون إلا باستخدام رذيلة الشح وحب المال وكل رذيلة يعذب بها صاحبها في الآخرة ويخزى بها في الدنيا. ولما كانت مادة رسوخ تلك الرذيلة واستحكامها هي ذلك المال، كان هو الذي يحمى عليه في نار جحيم الطبيعة وهاوية الهوى فيكوى به، وإنما خصت هذه الأعضاء لأن الشح مركوز في النفس والنفس تغلب القلب من هذه الجهات لا من جهة العلو التي هي جهة استيلاء الروح وممر الحقائق والأنوار ولا من جهة السفل التي هي من جهة الطبيعة الجسمانية لعدم تمكن الطبيعة من ذلك، فبقيت سائر الجهات فيؤذى بها من الجهات الأربع ويعذب تراه يعاب بها في الدنيا ويخزى من هذه الجهات أيضا إما بأن يواجه بها جهرا فيفضح أو يسار بها في جنبه أو يغتاب بها من وراء ظهره. (ابن عربي: 2001، ج1، ص266-267)

ويقال: العالم إذا انتفع بأموال الناس عوضا عما يعلمهم زالت بركات علمه، ولم يطب في طريق الزهد مطعمه، والعارف إذا انتفع بخدمة المريد، أو ارتفق بشيء من أحواله وأعماله زالت آثار همته، ولم تجد في حكم

التوحيد حالته، وقوله: (**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**) [التوبة: 34] لهم في الآجل عقوبة. والذين لا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فلهم في العاجل حجبة. وقليل من عباده من سلم من الحجاب في محتضره والعقاب في منتظره. (القشيري، عبد الكريم: 1999، ج3، ص23)

في حين يرى البروسوي: يأخذون الأموال بطريق الرشوة لتغيير الأحكام، والشرائع، والتخفيف، والمسامحة فيها، ويوهمون الناس أنهم حذاق مهرة في تأويل الآية وبيان مراد الله تعالى منها، يقول الفقير: وهكذا يفعل المفتون الماجنون والقضاة الجائرون في هذا الزمان يفتون على مراد المستفتي طمعا لماله ويقضون بمرجوح الأقوال بل على خلاف الشرح ويرون أن لهم في ذلك سندا قويا قاتلهم الله، وإنما عبر عن الأخذ بالأكل مع أن المذموم منهم مجرد أخذها بالباطل أي: بطريق الارتشاء سواء أكلوا ما أخذوه، أو لم يأكلوا بناء على أن الأكل معظم الغرض من الأخذ (**ويصدون**) أي: يمنعون الناس (**عن سبيل الله**) عن دين الإسلام أو يعرضون عنه بأنفسهم بأكلهم الأموال بالباطل. (**والذين يكنزون الذهب والفضة**) أي: يجمعونها ويحفظونها سواء كان ذلك بالدفن أو بوجه آخر والكنز في كلام العرب هو الجمع وكل شيء جمع بعضه إلى بعض فهو مكنوز يقال هذا جسم مكتنز الأجزاء إذا كان مجتمع الأجزاء، وسمي الذهب ذهبا لأنه يذهب ولا يبقى وسميت الفضة فضة لأنها تنفض، أي: تتفرق ولا تبقى وحسبك بالاسمين دلالة على فنائهما وأنه لا بقاء لهما (**ولا ينفقونها في سبيل الله**) أي: لا ينفقون منها، أي يؤدون زكاتها ولا يخرجون حق الله منها فحذف من وأريد إثباتها (**فبشرهم بعذاب أليم**) وضع الوعيد لهم بالعذاب موضع البشارة بالتنعم لغيرهم. (البروسوي: 2003، ج3، ص 438-439)

ويرى الحسني ابن عجيبة إن الإشارة في هذه الآية: ويرى إن هذه الآية تغبر في وجوه علماء السوء، الذين يتساهلون في أكل الدنيا بالعلم، كقبض

الرشا، وقبض ما فوق أجرته في الأحكام، فترى بعض قضاة الجور يقبضون المثاقيل على إنزال يده على الحكم، مع أنه واجب عليه، حيث تعين عليه بنصب الإمام له، وتجر ذيلها على أغنياء الدنيا، الذين يجمعون الأموال ويكنزونها، فترى أحدهم ينفق في نزهته وشهوة نفسه الأموال العريضة، وإذا أتاه فقير يسأله درهما أو درهمين، تمعر وجهه، وتغير لونه، فبشرهم بعذاب أليم.(الحسني، ابن عجيبة: 2005، ج3، ص73)

من هنا يتضح أن دلالة اللون الفضي إذا ما أخذناه من خلال تأويل هذه الآية فإنه يعني رمزا للحرص والبخل وله من المعاني ما يقارب هذا التوجه، وهي معاني لها دلالة الاحتجاب.

أما فيما يخص الدلالات الأخرى للون الفضي، فاللون الفضي ومن خلال بعض الآيات تكون دلالته هي المعرفة الحقة التي يحصل عليها المرء من الله تعالى، كما أن دلالته تعني المواهب والتكريم الإلهي الدائم والسعادة السرمدية التي لا نهاية لها .

قال تعالى:

(عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً) [الإنسان: 21]

وقوله تعالى:

(وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا) [الإنسان: 15]

اتخذ اللون الفضي في هذه الآيات دلالات جديدة هي أرقى بالطبع من الدلالات الماضية، ذلك لان الفضة هنا ارتبطت بكرم الله تعالى وجوده لمن استحق التكريم من المؤمنين في دار الخلد (الجنة) **(وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ)** والأساور بمعنى ما تحتاط به اليد من هذا المعدن ، ويجوز أن تأخذ مدى أوسع، حين تطلق على سبيل المجاز، عندما نقول، أحيط زيد برعاية، فتكون هنا معنى الإحاطة أوسع ويتسع معناها كلما اتسع المحاط، والخطاب الإلهي هذا اتسع للمجموع.

ويرى ابن عربي: بان المشمولين بهذه الرعاية والكرم الإلهي فإنهم (يزينون بزينة المعاني المعقولة، غير المجردة) (نفسه:ج2 ، ص745)

لكي يستسهلها العقل ويدرك معانيها دون جهد، فهم في هذه المعاني محاطون كلما أرادوا معنى اتضح لهم وحضر إليهم، وكلما أصابهم ظمأ لمعاني جديدة سقاهم ربهم لمعاني جديدة لا تخالطها شائبة لأنها طاهرة من أن يعلق بها أي شيء، وقوله تعالى، **(وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ)** فالطواف هو الدوران حول الشيء أو الإلمام به (الرازي:1981، ص 400)

ويرى السلمي في تأويله لقوله تعالى: **(وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً)** إن لله شرابا طاهرا شهيا ادخرها في كنوز ربوبيته لأوليائه وأصفيائه يفجر لهم من ينبوع المعرفة في أنهار المنة فسقاهم ربهم بكأس المحبة شرابا طهورا فإذا شربوا بقلوبهم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله سقاهم ذلك في الدنيا في ميدان ذكره بكأس محبته على منابر أنسه بمخاطبة الإيمان، وسقاهم في الآخرة في ميدان قربه بكأس رؤيته على منابر من نور بمخاطبة العيان سقاهم في الدنيا الماء البارد العذب حظ أجسامهم، وسقاهم في الآخرة برؤية ما وعدهم من أنواع الكرامات، ويقول الأمام جعفر الصادق عليه السلام: سقاهم التوحيد في السر فنأى هو عن جميع ما سواه فلم يفيقوا إلا عند المعاينة ورفع الحجاب فيما بينهم وبينه وأخذ الشراب فيما أخذ عنه فلم يبق عليه منه باقية وحصله في ميدان الحصول والقبضة، ويقال: **(وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً)** أي: منهم من سقاهم شراب الهداية فهداه، ومنهم من سقاه شراب التوحيد فيسره، ومنهم من سقاه شراب الولاية فوالاه ومنهم من سقاه شراب المعرفة فقربه وأدناه، وقال بعضهم: من ظهر الحق في الدنيا سره عن رؤية السعايات بالموافقات والمخالفات وبردت الدنيا في صدره سقاه الله في الآخرة شرابا طهورا، وقال الإمام جعفر الصادق في قوله: **(شَرَاباً طَهُوراً)** طهرهم به عن كل ما سواه إذ لا طاهر من يدنس بشيء من الأكوان، ويقال: سقاهم ربهم على حاشية بساط الود فأزواهم عن صحبة الخلق وأراهم رؤية الحق ثم أقعدهم على منابر القدس وحياهم بتحف المزيد

وأمطر عليهم مطر التأييد فسالت عليهم أودية الشوق والقرب وكفاهم همـوم الفرقة وحباهم بسرور القربة، ويقال: صب على صـدورهم مـاء المحبـة فشرحت صدورهم بنور المحبة ولانت بنور المعرفة وانفـسحت جـوارحهم بنور الطاعة وبردت ضمائرهم بنسيم الهيبة وأحيا أرواحهم بنور القربة فيا له من ساقي ويا لها من مسقى، وقال بعضهم: سقوا شراب المودة فـي كـأس المحبة في دار الكرامة، فسكروا بها فمشوا في ميدان الشوق ولم يفيقوا لشيء غير الرؤية.(السلمي: 2001، ج2، ص364-365)

ولما كان الشراب الطهور هذا وصفه لأهل المعرفة بالله فكيف الحال مع الآنية الفضية التي تحمل الشراب الطهور ؟ فإنها بلا شك أنها طاهرة وهـي أهلا لحمل الشراب الطهور، فيكون اللون الفضي من خلال هذا الوصف لـه دلالة من كونه حامل لصفة الطهارة، كما أن له صفة من كونه حامل للمعاني الروحية، والنورانية، والمعرفة اللدنية، فهو لون مقدس يصلح أن يكون حاملا للمعاني المقدسة ويفضل أن يوظف ويستخدم في الأماكن المقدسـة ليكـون حاملا لتلك الدلالات والمعاني الروحية السامية.

ويرى التستري في تأويله للآية: نهى الله عباده عن نجاسة خموز الدنيا بما فرق بين الطاهر والطهور، وبين خمور الجنة وخمور الدنيا نجاسة، فإن خمور الدنيا نجسة تنجس شاربها بالآثام، وخمور الجنة طهور تطهر شاربها من كـل دنس، وتصلحه لمجلس القدس ومشهد العز، وصلى سهل صلاة العتمـة فقـرأ قوله تعالى: **(وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً)** فجعل يحرك فاه كأنما يمص شيئا، فلما فرغ من صلاته قيل له: أتشرب في الصلاة ؟ فقال: والله لو لم أجد لذتـه عند قراءته كأني عند شربه به ما فعلت ذلك. (التستري: 2002، ص183)

وهذا يعني أن الآنية الفضية لها وجود روحي من جنس المعاني الروحية في الحياة الدنيا كذلك وإلا كيف تسنى لسهلا أن يشرب شربته تلـك دون أن يكون للآنية وجود معنوي ؟

ويبدو من خلال ذلك أن الآنية هي الوسيلة التي يجري بواسطتها إيصال تلك المعاني الروحانية فيضيف التستري بذلك دلالة جديدة للون الفضي مـن

كونه وسيلة لإيصال المعاني الروحية السامية، وهذا يعني أننا نستطيع توظيف هذا اللون ليكون معبرا عن هذه الدلالة، فهو هنا أشبه ما يكون من اللون البرزخي الذي يفصل ما بين نوعين من المعاني، المعاني الروحية والمعاني الحسية، غير أنه أقرب من حيث الدلالة من المعاني الروحية.

ويرى القشيري في تأويله: يحتمل أن يكون هذا الوصف للأبرار، ويصح أن يكون للولدان وهو أولى، والاسم يوافق الاسم دون العين **(شرابا طهورا)** الشراب الطهور هو الطاهر في نفسه المطهر لغيره، فالشراب يكون طهورا في الجنة ـ وإن لم يحصل به التطهير لأن الجنة لا يحتاج فيها إلى التطهير. ولكنه ـ سبحانه ـ لما ذكر الشراب ـ وهو اليوم في الشاهد نجس ـ أخبر أن ذلك الشراب غدا طاهر، ومع ذلك مطهر، يطهرهم من محبة الأغيار، فمن يحتس من ذلك الشراب شيئا طهره عن محبة جميع المخلوقين والمخلوقات، ويقال: يطهر صدورهم من الغل والغش، ولا يبقي لبعضهم مع بعض خصيمة (ولا عداوة) ولا دعوى ولا شيء، ويقال: يطهر قلوبهم عن محبة الحور العين، ويقال: إن الملائكة تعرض عليهم الشراب فيأبون قبوله منهم ويقولون لقد طال أخذنا من هؤلاء، فإذا بكاسات تلاقي أفواههم بغير أكف من غيب إلى عبد، ويقال: اليوم شراب وغدا شراب، اليوم شراب الإيناس وغدا شراب الكأس، اليوم شرار من اللطف وغدا يدار على الكف، ويقال: من سقاه اليوم شراب محبته آنسه وشجعه، فلا يستوحش في وقته من شيء، ولا يظن بروحه عن بذل، ومن مقتضى شربه بكأس محبته أن يجود على كل أحد بالكونين من غير تمييز، ولا يبقى على قلبه أثر للأخطار، ومن آثار شربه تذلله لكل أحد لأجل محبوبه، فيكون لأصغر الخدم تراب القدم، لا يتحرك فيه للتكبر عرق، وقد يكون من مقتضى ذلك الشراب أيضا أن يملكه سرور ولا يتمالك معه من خلع العذار وإلقاء قناع الحياء ويظهر ما هو به من المواجيد:

يخلع فيك العذار قوم فكيف من ما له عذار ؟

ومن موجبات ذلك الشراب سقوط الحشمة، فيتكلم بمقتضى البسط، أو بموجب لفظ الشكوى، وبما لا يستخرج منه ـ في حال صحوه ـ سفيه

بالمناقيش وعلى هذا حملوا قول موسى عليه السلام: **(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ)** [الأعراف: 143] فقالوا: سكر من سماع كلامه، فنطق بذلك لسانه، وأما من يسقيهم شراب التوحيد فينفي عنهم شهود كل غير فيهيمون في أودية العز، ويتيهون في مفاوز الكبرياء، وتتلاشى جملتهم في هواء الفردانية، فلا عقل ولا تمييز ولا فهم ولا إدراك، فكل هذه المعاني ساقطة.(القشيري: 1999، ج6، ص230–231)

ويذهب ابن عجيبة في تأويله للآية: **(وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ)** أي: يدير عليهم خدمهم كؤوس الشراب، وكأنه تعالى لما وصف لباسهم، وهيئة جلوسهم، وطعامهم، ذكر شرابهم، ثم يذكر خدمهم، وما هيأ لهم من الملك الكبير، و**(آنية)** جمع إناء، وهو وعاء الماء **(وَأَكْوَابٍ)** أي: من فضة، جمع كوب، وهو الكوز العظيم الذي لا أذن له ولا عروة، **(كَانَتْ قَوَارِيرَا)** (كان) تامة، أي: كونت فكانت قوارير بتكوين الله و**(قوارير)**: حال، أو ناقصة، أي: كانت في علم الله قوارير، **(قوارير من فضة)** بدل من الأول، أي: مخلوقة من فضة، قال ابن عطية: يقتضي أنها من زجاج ومن فضة، وذلك ممكن، لكونه من زجاج في شفوفه، ومن فضة في جوهره، وكذلك فضة الجنة شفافة، فهي جامعة لبياض الفضة وحسنها، وصفار القوارير وشفيفها، حتى يرى ما فيها من الشراب من خارجها، قال ابن عباس: قوارير كل أرض من تربتها، وأرض الجنة فضة، و**(قوارير)** ممنوع من الصرف، ومن نونه فلتناسب الآي المتقدمة والمتأخرة **(قدروها تقديرا)**، صفة للقوارير، يعني: أهل الجنة قدروها في أنفسهم، وتمنوها، وأرادوا أن تكون على مقادير وأشكال معينة، موافقة لشهواتهم، فجاءت حسبما قدروها، تكرمة لهم، أو: السقاة جعلوها على قدر ري شاربها، لتكون ألذ لهم وأخف عليهم، وعن مجاهد، لا تفيض ولا تغيض، أو قدروها بأعمالهم الصالحة، فجاءت على حسبها.(الحسني، ابن عجيبة: 2005، ج8، ص 198–199)

أما البروسوي فيرى: **(قوارير من فضة)** أي تكونت وحدثت جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها ولين الفضة وبياضها يرى ما في داخلها من خارجها

فكان تامة وقوارير الأول حال من فاعل كانت على المبالغة في التشبيه يعني القوارير إنما تتكون من الزجاج لا من الفضة فليس المعنى أنها قوارير زجاجية متخذة من الفضة بل الحكم عليها بأنها قوارير وأنها من فضة من باب التشبيه البليغ لأنها في نفسها ليست زجاجا ولا فضة لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فثبت أن آنية الجنة مباينة في الحقيقة لقارورة الدنيا وفضتها ولأن قارورة الدنيا سريعة الانكسار والهلاك وما في الجنة لا يقبل ذلك وفضة الدنيا كثيفة الجوهر لا لطافة فيها وما في الجنة ليس كذلك وإن شارك كل واحد منهما الآخر في بعض الأوصاف فشبهت بالفضة في بياضها ونقائها وبقائها وبالقارورة في شفافيتها وصفائها فهي حقيقة مغايرة لهما جامعة لأوصافهما، وذلك كاف في صحة إطلاق اسم القارورة والفضة عليها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما إن أرض الجنة من فضة وأواني كل أرض تتخذ من تربة تلك الأرض ويستفاد من هذا الكلام وجه آخر لكون تلك الأكواب من فضة ومن قوارير وهو أن أصل القوارير في الدنيا الرمل وأصل قوارير الجنة هو فضة الجنة فكما أن الله قادر على أن يقلب الرمل الكثيف زجاجة صافية فكذلك قادر على أن يقلب فضة الجنة قارورة صافية بالغرض من هذه الآية التنبيه على أن نسبة قارورة الجنة إلى قارورة الدنيا كنسبة الفضة للرمل، فكما أنه لا نسبة بين هذين الأصلين فكذا بين القارورتين، قال بعضهم: لعل الوجه في اختيار كون كانت تامة مع إمكان جعلها ناقصة وقوارير الأول خيرا بتكوين الله فيكون فيه تفخيم للآنية بكونها أثر قدرة الله تعالى وقوارير الثاني بدل من الأول على سبيل الإيضاح والتبيين، أي قوارير مخلوقة من فضة والجملة صفة لأكواب وقريء بتنوين قوارير الثاني أيضا وقرئا بغير تنوين وقريء الثاني بالرفع على هي قوارير، قال ابن الجزري: وكلهم وقفوا عليه بالألف إلا حمزة وورشا، وإنما صرفه من صرفه لأنه وقع في مصحف الإمام بالألف وإنما كتب في المصحف بالألف لأنه رأس آية فشابه القوافي والفواصل التي تزاد فيها الألف **(قدروها تقديرا)** صفة لقوارير ومعنى تقدير الشاربين المطاف عليهم لها أنهم قدروها في أنفسهم وأرادوا أن تكون على

مقادير وأشكال معينة، موافقة لشهواتهم فجاءت حسبما قدروها فإن منتهى ما يريده الرجل في الآنية التي يشرب منها الصفاء فقد ذكره الله بقوله **(كانت قوارير)** وأيضا النقاء فقد ذكره الله بقوله **(من فضة)** وأيضا الشكل والمقدار فقد ذكره الله بقوله **(قدروها تقديرا)** أو قدروها بأعمالهم الحسنة فجاءت على حسبها وقيل الضمير للطائفين بها المدلول عليهم بقوله: **(ويطاف عليهم)** أي: قدروا شرابها على إضمار المضاف على قدر إستروائهم وريهم من غير زيادة ولا نقصان وهو ألذ للشارب لكونه على مقدار حاجته فإن طرفي الاعتدال مذمومان. (البروسوي: 2003، ج10، ص274-275)

يتضح مما تقدم أن للون الفضي دلالة مقدسة كذلك من كونه لون من ألوان تراب الجنة، وبذلك فهو من الألوان السرمدية الأزلية الباقية والمرافقة للإنسان السعيد الذي ينعم بسعادة الجنة فهو لون باق مع بقاء أهل الجنة لا يقبل التغيير، فهو من الألوان الثابتة في دلالته وقدسيته ما دامت للجنة من وجود سرمدي، كما أنه يذكر على الدوام بأنه صفة المتنعمين سواء كانت النعمة محدودة أو مؤقتة، أو كانت النعمة دائمة وسرمدية كما هو حال المتنعمين من أهل الجنة، ويكفيه دلالة أنه يذكر بالجنة لمن احتجب بلذات الدنيا.

وقوله تعالى: (وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا) يقول فيها ابن عربي: هي أكواب من صور أوصاف المجردات اللطيفة والجواهر المقدسة لكونها بلا عري التعلق بالمواد فلا قبضها بالعري من غير الاتصال بذواتها ، ولكونها من عالم الغيب لم تكن مكشوفة الرأس كالأواني، كانت قوارير لصفائها وتلألؤ نور الذات من وراءها...(قوارير من فضة أي هي في صفاء الزجاجة وشفيفها وبياض الفضة وبريقها) (نفسه: ص، 744).

فاللون الفضي هنا له دلالة الحامل للمعاني المعقولة في الجنة كما أن دلالة اللون في الأساور هي الإحاطة باستغراق المكرم بالمعاني الجميلة.

دلالات اللون الترابي

إن الحقيقة التي ترتبط بالتراب هي من الحقائق الكبيـرة، فـالتراب قـد أعطته الصور الهيولانية مطلق التحول في الأشكال، فكل تجلي يظهر للوجود وخاصة المادي منه لابد له من نهاية يؤول إليها، فروحانية ذلك الشيء تغادر فترجع إلى عالم الصور، ومادة الجسم ترجع كما كانت عليه من قبل تـشكلها إلى مادة ترابية، لتظهر من جديد بصور جديدة وهكـذا فـإن لهـا مطلـق التمظهرات بصور جديدة.

فالتراب هو ثياب الصور أو النفوس الهيولانية إن صح التعبير، ويتلون هذا اللباس بحسب ما تطلبه منه تلك الصور، فروحانية الورقة التي تظهر في شجرة تقتضي من التراب أن يظهر بالشكل الذي أرادته منه أن يظهـر بـه، فيكون كما أرادة النفس الهيولانية لتلك الشجرة أو الورقة، وهكذا بقية الأشياء التي تظهر في الوجود الطبيعي.

من هنا يتضح أن التراب هو أصل الألوان التي تظهر في الوجود، وكل لون يظهر في الوجود لابد له يوما أن يعود كما كان عليه من تراب، فالتراب من خلال هذه الحقيقة فهو مقابل للون الأبيض الذي هو أصل الألـوان قـال تعالى: (**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**) [طــه: 55] فالتراب لما عرفنا أنه أصل كل المرائي الظاهرة فـي الوجـود، وإن هـذه المرائي وإن تبدو جميلة، فإن جمالها ضرب من الوهم لأنه يعود إلى حقيقـة التراب، هذا يعني إن علينا أن نبحث عن الأشياء التي جمالها لا يتغير، فلـم يبق أمامنا إلا اللجوء إلى العالم الروحاني الذي لا يقبل الفساد ولا التغير لأنه من الحقائق الثابتة الأزلية، هنا يتضح أن اللون الترابي هو اللون الذي يفضح حقائق الأشياء التي تبدو جميلة في العالم الحسي، وكأن هذا اللون يدعونا إلى الإطلاع على الحقائق الكامنة فيه، التي أظهرها بصور مختلفة في الوجـود الحسي، وهذه هي من الحقائق التي يحيلنا إليها تعالى بالتأمل، ويطلـب منـا مطالعتها بصدق ودقة، لنخرج من خلال هذا التأمل ونحن قد أدركنا آفاقهـا،

قال تعالى: (**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) [فصلت: 53] فإذا كنا ممن يطلب الحقيقة فالحقيقة ليست في هذه الدنيا لأن الدنيا كل ما فيها تراب في تراب، لذا فإن علينا شد الرحال إلى عالم لا يتشكل من التراب، وهو عالم الحقائق الروحية.

التراب لغة: التراب معروف، قال تعالى: (**خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ**) [الروم: 20]، (**أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً**) [الرعد: 5] وقال تعالى: وترب: افتقر، كأنه لصق بالتراب، قال تعالى: (**أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ**) [البلد: 16] أي: ذا لصوق بالتراب لفقره. وأترب: استغنى، كأنه صار له المال بقدر التراب، والترباء: الأرض نفسها، وريح تربة: تأتي بالتراب، وبارح ترب: ريح فيها تراب. (الأصفهاني، الراغب: 1437ه، ص165)

أما الغبار في اللغة

الغُبَارُ: ما يبقى من التراب المثار، وجعل على بناء الدخان والعثار ونحوهما من البقايا، وقد غبر الغبار، أي ارتفع، وقيل: يقال للماضي غابر، وللباقي غابر فإن يك ذلك صحيحا، فإنما قيل للماضي غابر تصورا بماضي الغبار عن الأرض، وقيل للباقي غابر تصورا بتخلف الغبار عن الذي يعدو فيخلفه، ومن الغبار اشتق الغبرة، وهو ما يعلق بالشيء من الغبار وما كان على لونه، يقول تعالى: (**وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ**) [عبس: 40] كناية عن تغير الوجه للغم، كقوله: (ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ) [النحل: 58]. (الأصفهاني: نفسه، ص601)

ويعرفه الباحث إجرائيا: الترابي هو لون التراب الذي يأتي من خلال مزج اللون الأحمر مع الأصفر مع قليل من اللون الأبيض، ويطلق عليه (الأوكر) ويطلق عليه الأغبر، وقد ورد في القران الكريم في آيات كثيرة وله من الدلالات الروحية الشيء الكثير.

إن المعني بالخطاب الإلهي هو الإنسان بالدرجة الأولى، ومن خلاله تخاطب الكائنات الأخرى جميعها ، ذلك لان الإنسان هو الذي اختصه الله

سبحانه وتعالى بالخلافة دون غيره ، كما جاء في قوله تعالى: **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)** [البقرة: 30] ، وقد جاء اعتراض الملائكة بقصد تحصيل العلم بدليل قوله تعالى: **(قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)** [البقرة: 30] ويبدو لنا من خلال هذه المحاورة أن هناك عجز تام عن معرفة مجريات الاختيار، والأسس التي اعتمدت فيه، فأجابهم سبحانه وتعالى بأنه لا علم لهم بالأسس التي جرى عليها اختيار آدم عليه السلام ليكون خليفته.

إن الملائكة لم تخفي حرصها على المنافسة في موضوع الخلافة فأرادوا أن تكون لهم الخلافة لما رأوه في ذواتهم من تنزيه لله تعالى، فأجابهم الله تعالى بأنهم عاجزين عن فهم ما يريده الله تعالى، إذ أن حقيقة العجز تحصل في العلم، ومن هذا المنطلق علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها، وكان سببا لسجود وطاعة الملائكة للخليفة لشعورهم بعدم مجاراة آدم عليه السلام في مجال العلم.

والعلم اللدني الممنوح من الله تعالى لم يكن ليشمل كل بني آدم ، ولو كان كذلك لما خوطب الإنسان بأنه **(وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)** [الأحزاب: 72] بل اختص به تعالى خليفته حصرا، وفي كل زمان، ولهذا جاء تأكيده سبحانه وتعالى بأنه اختص نبي الله داود عليه السلام من بين الأنبياء في زمنه فجعله في هذا المنصب الإلهي: **(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)** [ص: 26]

ولما تنوعت صفات الناس تبعا لتنوع أعمالهم، وأفعالهم فلابد من أوصاف تختص بشريحة، ولا تختص بغيرها لتتميز به هذه الشريحة عن غيرها.

فكان لوصف اللون دلالة كبيرة، ومكانة مهمة من الخطاب الإلهي، وحين يأتي الخطاب الإلهي بهذه الدلالات، والتي يصف بها من يستحق هذا

الوصف أو ذاك، لم يكن يعني ذم هذا اللون أو ذاك لارتباطه بالموصوف السيئ ، بل أن جل ما يعنيه الخطاب الإلهي هو الموصوف (الإنسان) وحتى يجري التمييز لنا بين هذا الإنسان وذاك لابد أذن من وصفين كل واحد منهما يتصل بالفرد حتى تحصل لدينا معرفة بالمعني منهما بهذا الوصف أو ذاك.

وبذلك يجب أن تكون أحكامنا تسير مع الخطاب الإلهي، ولا يستقر الحكم إلا مع استقراره (الموصوف) فيكون بذلك السير لهذا الوصف المبين أدناه:

الله تعالى هو الواصف بخطابه صنفين من الناس المؤمن ونقيضه ← الوصف بشقيه وألوانه← الإنسان الموصوف

فحقيقة الحكم بالرضا، أو الموافقة، أو الحب، والارتياح تجري بارتباطها بالإنسان صاحب هذه المواصفات الحسنة ، وحقيقة الكره، وعدم الارتياح، وعدم التطابق تجري كذلك بارتباطها بالإنسان صاحب المواصفات الرديئة.

ومن هذا المنطلق فان صفة الغبرة لم تكن هي المعنية بان يقع عليها حكم الكره، أو السوء ، ولو كان الحكم يجري هكذا لشمل كل المجاهدين في سبيل الله، والذين خاضوا معارك تلو المعارك وكانوا عرضة لتعلق الغبار عليهم ، ولما جاء الأمر من الرسول الكريم بان يدفن الشهيد بدمه وملابسه من دون غسل، ومن المؤكد أن الشهيد قد تعلقت فيه غبرة من أرض المعركة ، وهناك أمثلة عديدة تجري بهذا الاتجاه.

فالحكم إذن يجب أن يتجه للموصوف، وليس للوصف لأن حقيقة الوصف هي الدلالة ليس إلا.

سمات الكلمة القرآنية أو الخطاب المقدس

من سمات الكلمة القرآنية أو أي خطاب مقدس سواء كان هذا الخطاب جاء عن طريق نبي أو ولي ، فان الكلمة فيه لها دلالات ظاهرية متعددة الآفاق كما أن لها دلالات باطنية عميقة ليس لها حد ، ويتضح هذا المفهوم جليا بقوله تعالى: **(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء)** [إبراهيم: 24]

ولو اخذ هذا الخطاب على ظاهره من خلال التحليل الدقيق ،لوجدنا انه يرشدنا إلى ديمومة الكلمة الطيبة ذلك من خلال استمرار عطائها المستمر كونها تؤتي آكلها كل حين.

وإذا جاز لنا أن نضع مراتب للكلمات الطيبة ، لما وجدنا أعظم شانا من كلمات الله تعالى من بين جميع الكلم ، وقد جاء تأكيد هذا في قوله تعالى: **(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيث كتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)** [الزمر: 23] ومن ثم يأتي من بعد كلام الله تعالى ، أقوال وسنن الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه أيضا بتلقين من الله تعالى أو بإيحاء منه كما جاء في قوله تعالى: **(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)** [النجم:3- 5] ويتبعه كلام الولي ....وهكذا.

ولطالما إن الكلمة الطيبة تؤتي أكلها كل حين ، فان هذا من شانه أن يفتح لنا آفاق مطلقة من المعاني ، والأكل وان تشابه من حيث الشكل فان معانيه تبقى تتدفق باستمرار بمطلق المذاقات المعرفية ، فظاهر الكلمة الطيبة تتلون مذاقاتها بتدفق معانيها الباطنة ، فظاهر الكلمة كالإناء وباطنها كمحتواه والإناء ينضح بما فيه.

فالكلمة في الخطاب القرآني يتنوع فيها ظاهر المعاني مثلما يتنوع فيها باطن المعاني لان الكلمة (الروح) وإن كان مصدرها، وأساس تكونها هي الحضرة الإلهية مثلها بذلك مثل كلمة (كن) التي خلق بها الحق هذا الوجود الساري بأفعاله وصفاته ، والفرق بين كلمة وأخرى فقط في التجلي بنوع الصيرورة، فكلمة أوجد بها الكون، وكلمة أوجد بها عيسى عليه السلام، وكلمة أوجد بها شيء آخر.

اللون الترابي { الغبرة } ودلالاته في القران الكريم والفكر الصوفي:

يقول تعالى: **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ* ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ* تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ* أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ)** [عبس:38- 42]

إن هذه الآية تتضمن ثنائية حادة يقارن بها تعالى بين فئتين من النـــاس، وهم أهل الجنة، والسعادة، ونقيضهم من الكافرين الذين حق القـــول علـــيهم، فالوجوه الضاحكة المستبشرة قد ظهر عليها أثر السعادة، والفرح، والقبـــول، في حين تظهر وجوه الكافرين لونها كلون الغبرة من شدة الخوف والرهبـــة والانزعاج من أهوال القيامة وما يحصل فيها مـــن عـــذاب، ومـــا ســـيؤول مصيرهم إليه في نار جهنم.

فالغبرة أو اللون الذي يعلوا وجوههم جعله تعالى سمة مميزة لمن تكبـــر في عالم الدنيا ولم يصغي إلى قول الرسول صلى الله تعالى عليـــه وســـلم أو لدعوة الداعي إلى طريق الحق تعالى، بمعنى آخر لم يتواضع فـــي ســـلوكه اليومي مع الناس ومن جملتهم الأنبياء، والرسل، والأولياء فكان مـــن نتـــائج عدم تواضعه واستكباره هذا المصير، والدليل على هذا قوله تعالى على لسان المجرمين: (**يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً**) [النبأ: 40] فلو كان في تواضعه كالتراب لما حصل له مـــا حـــصل، فجعـــل تعالى وجوههم كلون التراب عقابا لهم على تكبرهم، في حـــين جعـــل لـــون وجوه السعداء هو اللون الأحمر تعويضا لهم على ما كانوا عليه من تواضـــع في عالم الدنيا، فجعل تعالى وجوههم مستبشرة بادي عليها الفرح والـــسعادة، فجعل هذا مقابل ما كانوا عليه في دار الدنيا.

يقو ل ابن عربي: (فكان اصفرار وجوه الأشقياء في موازنة إسفار وجوه السعداء في قوله تعالى (**وجوه يومئذ مسفرة**) من السفور وهو الظهور كمـــا كان الاصفرار في أول يوم ظهور علامة الشقاء في قوم صالح ، ثم جاء في موازنة الاحمرار القائم بهم ، قوله تعالى في السعداء (**ضاحكة**) فان الضحك من الأسباب المولدة لاحمرار الوجوه، فهي في السعداء احمرار الوجنات ، ثم جعل في موازنة تغير بشرة الأشقياء بالسواد وقوله تعالى (مستبشرة وهو ما أثره السرور في بشرتهم كما اثر السواد في بشرة الأشقياء) (ابـــن عربـــي: 1989 ، ص117 ـــــ 118).

ويضيف ابن عربي في فتوحاته: في تأويل آخر لقوله تعالى: (**فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**) [التوبة: 34] والكلام على هذه البشرى لغة وعرفا، فأما البشرى من طريق العرف فالمفهوم منها الخير ولا بد، ولما كان هذا الشقي ينتظر البشر في زعمه لكونه يتخيل أنه على الحق قيل: (بشره) لانتظاره البشرى ولكن كانت البشرى له بعذاب أليم وأما من طريق اللغة فهو أن يقال له ما يؤثر في بشرته، فإنه إذا قيل له خير أثر في بشرته بسط وجه وضحكا وفرحا واهتزازا وطربا، وإذا قيل له شر أثر في بشرته قبضا وبكاء وحزنا وكمدا واغبرارا وتعبيسا ولذلك قال تعالى: (**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ* ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ* تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ**) فذكر ما أثر في بشرتهم، فلهذا كانت البشرى تنطلق على الخير والشر لغة، وأما في العرف فلا، ولهذا أطلقها الله تعالى ولم يقيدها فقال في حق المؤمنين: (**لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**) [يونس: 64] ولم يقل بماذا فإن العرف يعطي أن ذلك بالخير وقرينة الحال. (ابن عربي: 2006،مجلد5، ص8)

ويضيف ابن عربي في فتوحاته: إن أمر التصوف أمر سهل لمن أخذه بهذا الطريق، ولا يستنبط لنفسه أحكاما ويخرج عن ميزان الحق في ذلك، فإنه من فعل ذلك لحق: (**بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً**) [الكهف:103- 104] فإن الله لا يقيم له (**يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً**) [الكهف: 105] كما أنهم لم يقيموا للحق هنا وزنا فعادت عليهم صفتهم فما عذبهم بغيرهم، فتأمل قوله تعالى في كتابه فإنه ما ذكر صفة قهر وشدة إلا وإلى جانبها صفة لطف ولين حيثما كان من كتاب الله، ثم إن أفرد صفة منها ولم يذكر إلى جانبها ما يقابلها أطلبها تجد مقابلها في موضع آخر مفردا أيضا، فلذلك المفرد المقابل هو لهذا المفرد المقابل والغالب الجمعية قال تعالى: (**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**) [الحجر: 49] ثم أردف بالمقابل فقال تعالى: (**أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ**) [الحجر: 50] وقال: (**إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ**) ثم أردف وقال: (**وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**) [الأعراف: 167] وتتبع هذا تجده كما ذكرنا لك، ثم أنه ما ذكر نعتا من نعوت أهل السعادة إلا وذكر إلى جانبه نعتا من نعوت أهل الشقاء إما بتقديم أو

بتأخير، قال تعالى: **(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ)** [عبس: 40-42] وقال تعالى في حال أهل السعادة **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)** [القيامة:22- 23] والوجوه هنا عبارة عن النفوس الإنسانية لأن وجه الشيء حقيقته وذاته وعينه لا الوجوه المقيدة بالأبصار فإنها لا تتصف بالظنون، ومساق الآية يعطي أن الوجوه هنا هي ذوات المذكورين. (ابن عربي: نفسه، مجلد 3، ص401)

ويرى البروسوي في تأويله للآية: **(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ)** أي: غبار وكدورة وفي الخبر يلجم الكافر العرق ثم تقع الغبرة على وجوههم وقيل هي غبرة الفراق والذل **(تَرْهَقُهَا)** أي تعلوها وتغشاها **(قَتَرَةٌ)** أي: سواد وظلمة كالدخان ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، قال السري قدس سره: ظاهر عليها حزن البعاد لأنها صارت محجوبة من الباب مطرودة وقال سهل قدس سره: غلب عليها إعراض الله عنها ومقته إياها فهي تزداد في كل وقت ظلمة وقترة.**(أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ)** أي: أولئك الموصوفون بسواد الوجه وغبرته هم الجامعون بين الكفر والفجور فلذا جمع الله إلى سواد وجوههم الغبرة وفي الحديث: **(إن البهائم إذا صارت ترابا يوم القيامة حول ذلك التراب في وجوه الكفار)**، وفيه إشارة إلى أن الفجور الغير المقارن بالكفر ليس في درجة المقارن في المذمومية والسببية للحقارة والخذلان إذ أصل الفجور الكذب والميل عن الحق ويستعمل في الذنب الكبير وكثيرا ما يقع ذلك من المؤمن العاصي لكن ينبغي أن يخاف منه ويحذر عنه لن كبائر الذنب تجر إلى الكفر كما أن صغائره تجر إلى الكبائر، **(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ)** وقال بعضهم وجوه أصحاب النفوس المتمردة وأرباب الهوى عليها غبرة الأنانية وغبار الآنية يغطيها سواد الأثنينية وظلمة الثنوية هم الذين ستروا وجود الحق بغبرة وجودهم وشقوا وقطعوا نفوسهم المظلمة عن متابعة الأرواح المنورة عصمنا الله وإياكم من ذلك. (البروسوي: 2003،ج10، ص346-347)

ويرى الحسني في هذه الآية إشارة مفادها إن **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ)** أي: الفراق يوم التلاقي، وعليها قتر ذل الحجاب، وظلمة العذاب. (الحسني، ابن عجيبة: 2005، ج8، ص244-245)

يبدو لنا واضحا من خلال هذا التأويل أن المعاني اللغوية للكلمة تـدخل وبشكل مهم في عملية التأويل لدى المتصوفة، كما إن التأويل يلاحـق حتـى المعاني المجاورة للكلمة فتتسع مساحته، مساحة تشظي المعنى للكلمة، ولـو أخذنا كلمة (**الغبرة**) باعتبارها لون فان عملية التأويل لا يستقر مـع حـدود معنى اللون فقط، بل يلاحق كل المعاني التي لها صلة (**بالغبرة**)

كالغبراء مثلا وهي الأرض والأغبر والغابر، وغبر الجرح ... وهكـذا جريا وراء الاشتقاقات دون الخروج من السياق العام للآية مـع سـند مـن الكشوفات الذوقية.

فالتأويل الصوفي يعطي سعة للكلمة، ومعانيها، ويهيا فرصـا للتفاعـل الصميمي المحكم بين الكلمات المقدسة.

الغبرة: صفة الأغبر، والأغبر هو الذي لا فائدة منه ترجى فهو كالساكن الذي نتيجة سكونه تعلوه ذرات الغبار، وهو الذي احتجب بصره عن الرؤيا، فلا رأي له، ولا مشورة، فبقي في مكانه محجوبا بجهالته، وهو بهذا المعنـى يوصف كما وصفت امرأة لوط عليه السلام في قوله تعالى: (**فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**) [الأعراف: 83] أي: من الذين بقوا في ديارهم فهلكوا. (الشرتوني: ب ت، ص ، 858).

ولو أخذنا بهذا المعنى وأسقطناه على الآية (**وجوه يومئذ عليها غبـرة**) فان التأويل لهذه الآية سيكون، الموصوفين بهذه الصفة يكونون بحكم (هلكت زوجة لوط) وهم في منأى عن الرحمة الإلهية ، ذلك لان الرحمة تطلب سعي العبد (**وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى*وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى**) [الـنجم:39-40] وحين لم تظهر منهم بادرة السعي فان عقوبتهم الخزي والنـسيان ذلـك لأنهم نسوا الله تعالى وفي هذا المعنى يقول تعالى: (**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**) [الحشر: 19]

غبر الناس: المتأخرون في المرتبة، فيكون جزائهم، ومنزلتهم عنـد الله تعالى يقعان في الضد من مكرمي المؤمنين المتقين من ذوي المراتب، قـال تعالى:

(قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [المائدة: 100]

وقوله تعالى:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ) [الأنعام: 50]

وقوله تعالى:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) [الرعد: 16]

الغبراء: وهي الأرض أصل الغبار ، غير إن الغبار تحرك من حال منتقلا لحال آخر، فالحال الأول عندما كان جزء من الأرض عطائه من عطاء الأرض، وتواضعه من تواضع الأرض، بينما صيره الحال الثاني بوصف مذموم من قبل الإنسان كذلك الحال بالنسبة للإنسان فانه حين يكون كالأرض في عطائه، وصبره، وتحمله، وتواضعه فانه يكون محمود الصفات، وبعكس هذا الوصف يكون (أغبر) أي: كالغبار لا يستحق غير الذم، ولذا يطلق على الفقراء من أصحاب الصفات الحميدة ب(بنو الغبراء) (الشرتوني: ب ت ، ص 858)

فالتراب حين يكون تحت الأقدام يوصف بالتواضع وبجميع الصفات الجميلة، ومثل ذلك الإنسان إذا تواضع وجعل البساطة ديدنه فإن الله تعالى يرفعه كما جاء في الحديث الصحيح: **(من تواضع لله رفعه)** ومن يرفعه الله تعالى فقد فاز في الدارين، أما من كان وصفه غير ذلك وتكبر فإنه يقترب بذلك من وصف التراب المتطاير في الهواء (الغبار) وهي من الصفات الذميمة التي تؤدي بالإنسان في نهاية المطاف إلى الهاوية أو في قعر جهنم، ذلك لانقلاب صاحب هذه الصفة إلى جهة لا تليق له، فالعزة والتكبر هي من صفات الجلال الخاصة بالحق تعالى، ويأبى الحق تعالى أن ينازعه أحد في عزته وتجبره، ولذلك كان خطابه لموسى عليه السلام كان أقرب إلى التعنيف منه إلى التنبيه، قال تعالى: **(فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً**

فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ) [القصص: 19] فالصفات الجلالية خاصة بالحق تعالى ولا يسمح تعالى لأحد أن ينازعه فيها.

فالغبرة هنا قد صعدت إلى مستوى لا يمكن وصفها كما توصف به الأرض، كذلك الحال مع الإنسان الذي يتخلى عن الصفات الجمالية، ويحاول أن يتخلق بالصفات الجلالية فيخرج من طور تواضعه إلى أفق التكبر فإنه يكون بهذا الوصف من المذمومين الذين تركوا جادة الحق، وسلكوا طريق غيره.

وإذا كانت هذه صفة الفقراء فان نقيضهم من الكافرين المتكبرين لا يروق لهم هذا الحال لان حجاب التكبر يلازمهم إلى يوم القيامة إلا ما شاء الله ، فيقلب الله سبحانه وتعالى في الآخرة الأحوال فيجعل وجوه الكافرين مغبرة مرهقة بالذلة، والمهانة بالخوف فعند ذاك يصيبه الندم بعد رؤيته لحاله من جانب، ورؤية المتنعمين (بنو الغبراء) من جانب آخر فيأتي لهم النداء من الله تعالى: (**إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً)** [النبأ: 40] أي يا ليتني تواضعت قبل هذا كتواضع تراب الأرض، وسمعت كلام المنذرين أو المرشدين، فالغبار علامة المتكبر يضعها تعالى عليه ليخزيه بهذه العلامة أمام الملأ من الناس الذين حشرهم تعالى يوم الحشر.

غبر الجرح غبرا: أي اندمل على فساد ثم ينتقض بعد ذلك فهو غبر،(نفسه: ص 858)

وهذا الوصف هو الأقرب من المرء الذي يظهر شيء وباطنه شيء يظهر العبادات وينطوي على الكفر وهو أيضا من المحجوبين الذين لا يدركون عظمة الحق وانه محيط بكل شيء وهو يعلم (**الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى)** [الأعلى: 7]

يتوعد الله سبحانه وتعالى المرائين بقوله: (**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ *وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)** [الماعون:4-7] وقوله تعالى: (**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً)** [النساء: 142]

وغبر الجرح، يبدو الجرح من خلال الظاهر انه مندمل غير انه في حقيقة الأمر ينطوي على الفساد.

وحين نعود إلى الآية السابقة (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ* تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ* أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) نلاحظ أن وجود الغبرة على الوجوه وجود عارض أوجده الله تعالى وجود مؤقت وهو رهين حال غير دائم فقط ليوصف به الكفار الفجار المتكبرين في موقف من مواقف أيام القيامة ولم يكن هذا الوصف ملازم لجميع أهل النار بل يصف شريحة واحدة منهم، أما غيرهم من أهل النار فلهم صفات أخرى منها (**تَسْوَدُّ وُجُوهٌ**) [آل عمران: 106] وهم الذين كفروا بعد الأيمان، ومنها: (**يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً**) [طه: 102]

أما الكفار الفجار فان صفتهم (**وجوه يومئذ عليها غبرة**) وعن هذه الصفة يقول ابن عربي: (هم الأشقياء المسودة وجوههم بسواد كفرهم، وظلمة ذواتهم المغبرة بغبار هيئات فجورهم، وقتام آثار أعمالهم، (**أولئك الكفرة الفجرة**) أي: اجتماع كفرهم وفجورهم، هو سبب في اجتماع السواد والغبرة على وجوههم) (ابن عربي: 1978، ص 770)

إن مثل الإنسان الذي يحتجب بالطبع وتكون ميوله قد توجهت باتجاه اللذات المحدودة التي لا تفي بما يريده الحق منا ووقف مع ما يتطلبه الجسد وغرائزه، فإن مثله مثل الذي احتجب شكلا بالغبار فغيب الغبار لونه الحقيقي أو صبغته الحقيقية، ومعلوم أن الجسد المادي هو مخلوق من التراب، فمن احتجب بالتراب (الجسد) فقد استحق وصف الأغبر لأن اختياره لم يكن دقيقا وغير صحيح ؛ لأن ذلك سيشكل بديلا عن الجنة التي هي أصل لكل سعادة.

إذ أثبتت التجارب العملية العلمية في مجال اللون إن السواد، والزرقة بينهما وبين اللون الترابي (الأوكر) تضاد قوي تماما مثل السواد، والبياض، أو الصفار، والبنفسجي، أو الأخضر، والأحمر، ومن خصائص الألوان المتضادة ظهور لون بكامل شعاعه من خلال اللون الآخر تماما كظهور الضوء وسط الظلام، ولو أخذنا بهذه الحقيقة، وتصورنا حال أولئك الكفرة

الفجرة، لاتضح لنا صفتهم التي ميزهم الله بها يوم القيامة، وجوه مغبرة واضحة بهذا الوصف تمام الوضوح بفعل إسوداد بشرة الوجه.

أما في الجانب الثاني ففيه يقف المنعمون المكرمون، والذين استحقوا التقديم في الآية للدلالة على سمو مراتبهم، وهم أصحاب الوجوه التي أسفرت عن الفرحة الكامنة في ذواتهم، والأسفار في هذه باعتقاد الباحث إنها لا تعود أو بالأحرى لنقل إنها لا تختص بالمنعمين فقط كما ذهب بعض المفسرين بل تخص كذلك وجوه الكفار الفجار، ذلك لان كلمة مسفرة، ما خوذه من سفر أي كشف اللثام عن وجهه، والأمرأة كشفت عن وجهها فهي سافرة.(الرازي: 1981، ص301).

ومن أحوال يوم القيامة لم يبق الله شيئا إلا أظهره إلا ما شاء الله تعالى، يقول تعالى: (**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**) [يس: 65] وفي الحياة الدنيا يتعذر ملاحظة كلام الأيادي، والأرجل لكنها تشهد بأمر الله، وتتكلم في الآخرة، فما من شيء، كمن داخل الذات إلا، وأظهره الله تعالى يوم القيامة.

فالوجوه المسفرة، تختص بالطرفين (**الضاحكة المستبشرة**) التي يظهر عليها نورانية الذات وصفاتها الطيبة كما يقول البروسوي في تناوله هذه الآية بأنها الوجوه التي تظهر (نورانية الذات وصفاتها، إذ أن الصبح إذا أسفر أضاء، ويقال أن الذي أغبرني سبيل الله في الحياة الدنيا، أي جاهد في سبيل الله حق جهاده، وتحمل أعباء ذلك الجهاد، فان حاله الذي يظهر به يوم القيامة تكون وجوههم (ضاحكة مستبشرة) ذلك لما تراه من كرم الله سبحانه وتعالى فتظهر في هذا المظهر.) (البروسوي: ج 4 ، 1990، ص497)

كما إنها تختص أيضا (**بالوجوه التي عليها غبرة * ترهقها قترة**) وذلك بإظهار صفتا(**الكفر والفجور**) على الوجوه، ويرى البروسوي إن وجوه الكفار تلجم بالعرق، ثم تقع على وجوههم الغبرة، وقيل هي غبرة النفاق والذل (**ترهقها**) أي: تعلوها وتغشاها، (**القترة**) أي: سواد وظلمة ، كالدخان ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه (**أولئك هم الكفرة**

الفجرة) أي: أولئك الموصوفون بسواد الوجه وغبرته، هم الجامعون بين الكفر والفجور فلذا جمع الله إلى سواد وجوههم الغبرة.. وفي عين المعاني أولئك هم الكفرة في حقوق الله، الفجرة في حقوق العباد. (نفسه: ص497).

المعاني والدلالات في اللون الترابي

بعد أن واكبنا بشي من الدقة بعض مدلولات اللون الترابي، وبالتحديد الغبرة باعتباره يحمل نفس اللون الترابي ، وكان لمدلولاته صفة أوسمة ارتبطت بـ(**الكفرة، الفجرة**) كما أن هذا اللون (**الغبرة**) قد اخذ هذه الدلالات بخروجه عن مألوفة، فلو كان جزء من تراب الأرض لما أصبح بمعناه الجديد غير انه خرج عن أصله وتعلق بغير أصله ولهذا اتخذ اسما آخر وهو (**الغبرة**) كما أن وظيفته تغيرت تبعا لخروجه ، وتغيرت كذلك اشتقاقاته ومعانيه ،آلا ترى في تعلق الروح بالجسد لم تعد تحمل صفة الروح بل كمنت تحت أدمة الجسد، فجاءت الصفة الجديدة بحسب الحالة المنظورة فسمي (آدم) لأن أصل تكوين جسده من أديم الأرض، والأديم شيء كثيف منظور، والروح من اللطائف التي يتعذر رؤيتها فكمنت تحت اسم آدم ، وسمي آدم بالإنسان لأنه مشتق من النسيان، ولان الروح حين طال بها المقام تحت سلطة الجسد نسيت ما كانت عليه قبل وجودها في الجسد فسمي إنسان وتجمع (ناس) كما ورد في الخطاب الإلهي وهذه من بعض الإشارات الإلهية، وسمي القران بالذكر، لأنه يذكر (الناس).

نعود الآن إلى (التراب) ونتابع ما يتناسل منه من اشتقاقات ومعاني ظاهرية يجري هذا إقتداءا بالحديث القدسي القائل (أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته ومن ثبتها ثبته إن رحمتي سبقت غضبي) (السامرائي: 1988، ص20)

فالاشتقاقات تمنحنا آفاقا واسعة للكلمة، وفرصا كبيرة للإطلاع والفائدة.

من اشتقاقات التراب: ترب، وحين نقول: ترب الرجل: أي افتقر كأنه لصيق بالتراب، والافتقار نوعان، نوع يكون بالقوة مصدره الله تعالى، غايته ابتلاء العبد، بغية اختباره، ونوع يكون باختيار العبد حين يقصد من ورائه

ترويض النفس وتوجيهها بالانقياد لطاعة الله تعالى كما يفعله الزهاد والصوفية، وفي النوع الأول جاء قوله تعالى: **(يَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)** [هود: 7] **(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)** [الأنبياء: 35]

أما في النوع الثاني جاء قوله تعالى: **(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)** [النور: 36] ومن اشتقاقاتها أترب الرجل: أي استغنى كأنه صار له من المال بقدر التراب، والغنى نوعان، الغنى المادي وهو الغنى الذي يرتبط بالحياة الدنيا وهو محدود بحدود حياة الفرد في هذه الحياة، والغنى بالله تعالى ويتم بالتخلي عن مادون الله أو ما سواه عن طريق العبادة والنوافل والذكر وفيه يقول تعالى: **(مَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)** [الزلزلة:7- 8]

ومن الاشتقاقات، المتربة: وتعني المسكنة والفاقة. (الرازي: 1981، ص 76)

ويقول فيها تعالى: **(أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ)** [البلد: 16]

أما بخصوص الآيات التي اختصت بدلائل اللون (الترابي) فهي كثيرة يمكن حصرها في مجموعتين:

المجموعة الأولى: من الآيات هي التي يخاطب بها تعالى الكافرين والجاحدين والمتكبرين، أراد بهذا الخطاب تسفيه جهلهم ومحدودية تفكيرهم لعدم إدراكهم قدرة الله تعالى على كل شيء، قال تعالى: **(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً)** [الكهف: 37]

وقوله تعالى:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً) [فاطر: 11]

وقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) [الحج: 5]

وقوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً) [غافر: 67]

الإنسان كحقيقة ينطوي على نسبتين ، نسبة منه تعود للذات الإلهية وهي النفخة من روح الله كما ورد في خطابه تعالى: **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)** [الحجر: 28] أما النسبة الثانية: فهي **(الصلصال من حما مسنون)** الذي يعود للأصل الترابي ، وكل نسبة من هذه النسبتين تطلب جنسها ،فالجسد يحاول جر الروح إلى ميدان الحياة الدنيا وما يتوفر فيها من ملذات وأهواء مادية والروح تميل بالفطرة إلى العلو والسمو وتعشق جنسها من اللطائف والجمال ، ولذلك فهي تشعر بالغم والحزن إذا اغبر الجو المحيط بها أو تكلل بالغيوم وكثرة المطر ؛ ذلك لان نسبتها من غير جنس الكثافة المادية.

المجموعة الثانية: من الآيات تدعوا الإنسان لأن يتأمل بعمق حقيقته ونسبتها من التراب وما ليس منه بقوله تعالى: **(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)** [آل عمران: 59]

وقوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ) [الروم: 20]

وقوله تعالى:

(وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ) [الرعد: 5]

ما من مخلوق مادي إلا ومآله ونشوءه من التراب بدءا من الإنسان، وانتهاءا بكل كائن في الحياة الدنيا باستثناء الكائنات الأثيرية والنورانية مثل الجن والملائكة ، ويكفي الإنسان اتعاضا ملاحظة حياة النبتة، وما تنتجه من ثمر فإن ثمرها يأتي من التراب فنأكله فيعود للتراب تارة أخرى، ويعود

للنبات مرة أخرى فيكون ثمرا أو سواه وهكذا. كل هذا يجري بـــإرادة منـــه تعالى كذلك بعث الإنسان.

وبهذا القدر نكون قد تعرفنا على مدلولات اللون الترابـــي فـــي القـــران الكريم والفكر الصوفي.

الجوزي: يعرفه الباحث إجرائيا: هو اللون الذي له دلالة تتوسط ما بين مرتبة النفس الملهمة، ومرتبة النفس الراضية، ويأتي هذا اللون نتيجة امتزاج اللون الأخضر والأحمر.

للطاعة وجهان، وجه يكون في المطيع يطيع قسراً، ووجه يكون الطائع فيه يطيع اختياراً،والكون كله مجبول على الطاعة اختياراً فيما عدا الإنسان والجن لأنهما مخيرين في ذلك، قال تعالى: **(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)** [فصلت:11]

وللطاعة مراتب خيرها ما كان عن طريق العلم، والمعرفة، وللون الجوزي وجه يدل على هذا، ذلك لأنه وليد امتزاج مرتبتين لهما من الدلالات ما يشير إلى هذا الأمر، وهما مرتبة النفس الملهمة ذات النور الأحمر، ومرتبة النفس الراضية ذات اللون الأخضر، فاللون الجوزي له من الدلالة ما يقابل به اندفاع مرتبة النفس الملهمة، باتجاه اختصار المراتب التي تعلوها وصولاً إلى مرتبة النفس الراضية، فالطاعة هنا قد استحقت بجدارة أجنحة البراق لتختصر من خلاله المراتب الممتدة من مرتبة النفس الملهمة وصولاً إلى مشارف مرتبة النفس الراضية دون أن تستوقفها مرتبة النفس المطمئنة والمراتب التي تقع ضمن جاذبيتها نزولاً وصعوداً، فالجوزي الملهم الذي ارتضى لنفسه عالم اللاهوت عالماً له فاختار الحق، كافئه الحق على هدفه من الهجرة بالبقاء بعد الفناء بالحق تعالى.

الطريق لمن صدق وليس لمن سبق، والصدق براق الوصول، فمن تحقق صدقه من خلال عمله وصل إلى مطلوبه.

للجوزي: درجات عديدة، وله من التمكين ما يتقارب به مع النور الأسود، فإن لديه سلطة على إفناء إي لون يمر به، فلم تعد لذلك اللون هوية،

روحانيته غامرة كل لون حتى الأبيض، يختلف عن الأسود من كونه أحادي التوجه، فهو لا يرى غير سبيل الارتقاء سبيلاً، في حين أن اللون الأسود لــه وجهتين هابطة وصاعدة.

ولأجل الوقوف على مدلولات مرتبة اللون الجوزي لابد لنا من معرفــة دلالتي الأحمر والأخضر عند الصوفية:

الأحمر: لون النفس الملهمة، من صفاتها السخاوة، والقناعــة، والعلــم، والتواضع، والصبر،والحلم، وتحمل الأذى، والعفو عن الناس وحملهم علــى الصلاح، وقبول عذرهم، وشهود بأن الله تعالى آخذ بناصية كل دابة، فلم يبق له اعتراض على مخلوقٍ أصلاً ومن صفاتها كذلك الشوق والهيمان والبكــاء والقلق، والإعراض عن الخلق والاشتغال بالحق، وحب الذكر وبشاشة الوجه والفرح بالله. (الكيلاني، عبد القادر: ب ت، ص38)

الأخضر: لون النفس الراضية، من صفاتها راضية بقضاء الله، والزهــد فيما سوى الله، والإخلاص، والورع، والنسيان، والرضا بكل مــا يقــع فــي الوجود من غير اختلاج، ولا توجه لرفع المكروه منه، ولا اعتراض أصــلاً لأنه مستغرق في شهود الجمال المطلق، وقلبه مشغول بعالم اللاهوت، وســر السر. (المصدر السابق: ص 38)

ما بين القناعة التي تختزنها مرتبة اللون الأحمــر (الــنفس الملهمــة)، والرضا بقضاء الله تعالى الذي تزدان بها مرتبة اللــون الأخــضر (الــنفس الراضية) تجد مرتبة الجوزي بهجتها، ووجودها، فهي تأخــذ مــن القناعــة أعظمها، وأجلها، وتأخذ من الرضا تسليمه، وتفويضه، وحسن توكله، لتجعل من كل هذا، صياغة روحية محمولة على أجنحة ملكية عازمة على الوصول إلى الحضرة الإلهية.

والقناعة إذا ما نظرنا إليها من حيث الحقيقة هي، وجه من أوجه مرتبــة الرضا، ذلك لأن مرتبة الرضا ترى فعل الحق ساري في الوجود، وهذا يعني ليس هناك من فاعل غير الحق، وأن ما يصدر عن الحق حق، فتسقط بنــاءاً

على هذا كل مجالات الاعتراض، فلن تبقى إلا القناعة المطلقة والتـي هـي عين الرضا، فيكون قضاء الله تعالى خيره وشره مقبولاً، ولم يكن عليه ثمـة اعتراض، فالجلال كالجمال في عين العارف، غير أن الجلوس على بـساط القرب وما يرافق هذا القرب في حضرة الجمال يجب أن يقابل بهيبة وجلال وهذا من مقتضيات الآداب، أي يفترض أن يقابل الجمال بالهيبـة، ويقابـل الجلال بالقبول، والانبساط.

إن مرتبة الجوزي تأبى الوقوف في مرتبة دون الحق تعالى، وبذلك يعد صاحب هذا النور اللوني (الجوزي) من الذين اختزلـوا أهـم عقبـة وهـي الوقوف مع مرتبة النفس المطمئنة، أي هم من الذين لا يشملهم الزجر الإلهي الذي يقول فيه: (**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِـي إِلَـى رَبِّـكِ رَاضِـيَةً مَّرْضِيَّةً**) [الفجر:27– 28] لأنهم بذلوا جهـدهم وجاهـدوا أنفـسهم بـأنواع الرياضات والطاعات، ولم تستوقفهم الجنات المادية والمعنوية مع الوصـف والفعل والرسم، بل جميع عملهم يجري باتجاه تحصيل صـاحب الأفعـال، والصفات، وصاحب الجنان، ولذلك، واصلوا سيرهم تجاه الـنفس الراضـية ذات اللون الأخضر ومن ثم ليتواصلوا في سفرهم إلى مراتب الكمـال فـي الحق تعالى حتى ينالوا مقصودهم ومطلبهم في الفناء بـالله تعـالى وانتهـاء الأثنينية.

أما العفو عن الناس، والعمل على إصلاحهم، وقبول العذر منهم كل ذلك بداية مرتبة (الجوزي) وهو خلق حيادي، ومن المعروف عن خاصـية هـذا اللون كونه من الألوان الحيادية، ونتيجة لهذه الحيادية فإن نزوع صاحب هذه المرتبة (الجوزية) يميل إلى الزهد الخفي عن علم الناس، حتى يظن النـاس أنه ليس من الزاهدين كما يبدو عليه ظاهريا غير أنه في حقيقة الأمـر مـن المستغرقين في مقام الزهد، إن هذا الأسلوب يجعله في منأى عن الوقوع في دائرة الرياء الظاهر والباطن، وهنا تظهر الحيادية بمعناها الدقيق، ومن ثـم يتواصل في زهده شيئاً فشيئاً حتى يبلغ في زهده إلى حد، لا ينظر فيه إلى ما

سوى الله تعالى طرفة عين ، ثم يتطور الحال لدية فلا يرى في الوجود سوى الله، وكل هذا يمثل إعداداً واستعداداً لمرتبة (الأخضر) النفس الراضية (فالجوزي) هي مرتبة الذي شهد، وعرف، واطلع، وأدرك بأن الحق آخذاً بناصية كل دابة، فجعلته هذه المعرفة يغض النظر عن أي أذىً يأتيه من الخلق، كما أن المعرفة جعلته يدرك أن فعل الحق ساري في الوجود كما يقتضيه العدل الإلهي، وإن الصفات التي تخرجها الأفعال لا تخرج عن الصراط المستقيم مطلقاً، يقول تعالى: **(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)** [هود: من الآية56]

ولطالما إن (الجوزي) مستغرق في هذا المشهد، لم يبق له اعتراض على مخلوق أصلاً لأنه يرى أن الاعتراض خروج عن حد آداب الحضرة الإلهية، لذا فهو في هيبة وحذر دائمين، مع الرضا بكل ما يقع في الوجود،لانشغاله في مطالعة تنوعات جمال الحق، وانذهاله فيه، واستغراقه في تلك المشاهد المطلقة التي لا يحوم حولها خاطر يشغله عنها إلى غيرها، فلا رؤية له غير الحق، ولا شاغل له غير عالم اللاهوت، وما يبطن في السر من سر.

تطور الشوق، والهيمان الذي اتصفت به مرتبة (النفس الملهمة) ليصبح في مرتبة (الجوزي) أقصى حالات الوجد، فثمل صاحب هذا المقام بخمرة الجمال، وصيره الشوق كثير البكاء تارةً، وكثير الفرح تارةً أخرى ، مزاجه يتقلب في ريح أحوال الجانب الروحي، ولا مستقر له في حال، كثير القلق والتلون.

ولمرتبة (الجوزي) بوادر إخلاصٍ في كل الأحوال ظاهرا، وباطنا، قلبا، وقالبا، وهو يسير بخطى وعزم أكيد لا تستوقفه وساوس الشياطين، والخيالات، والأوهام الفاسدة، ولا تنفع معه كل مكائد الشياطين وغوايته كما جاء في قوله تعالى: **(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)** [الحجر:39- 40]، أي أن صاحب هذا النور في مراحله الأخيرة للخلاص من كل كيد وإغواء، أي

تكون لديه الأمور واضحة لما مكنه تعالى من المعارف التي تؤهله إلى معرفة جميع مكائد الشيطان وغواياته، أي: ما كان يخبأه الشيطان من مكائد مغلفة بالزخارف والزينة، كما أن صفة الإخلاص تجعله مستغرق في سيره إلى الحق تعالى بما مكنه تعالى بأنواع المذاقات الروحية التي لا ترقى إليها أية مذاقات أخرى دونها، وشتان ما بين المذاقات الحسية والمذاقات الروحية، وبذلك يكون صاحب المذاقات الروحية في منعة من الانحراف أو الهبوط وبالأخص إذا كان في مرتبة مثل مرتبة الأخضر، أو الجوزي.

إن صفة الورع التي تظهر بوادرها في صاحب هذا النور تمنحه نوع من المنعة من الانزلاق في الشبهة، أو في تلك الأشياء التي لا يمكن وضعها في جهة الحق، أو في جهة الباطل ذلك لما يمكن به تعالى صاحب هذا النور من علم الفرقان الذي يستطيع من خلاله أن يميز بين الحق، والباطل، كما إن صاحب هذا اللون، لكونه مستغرق في المرابطة مع الحق تعالى في كل خطوةٍ يخطوها، ولا يفارق الحق تعالى طرفة عين، لا يرى شيء إلا ويرى الله فيه، تملكه الورع حتى دعاه الحال أن يراقب باطنه، ويحاسب نفسه على كل شيء، حتى اللمم من الآثام الباطنة كالغفلة، وشرود الذهن، أو النسيان، أو السهو، وهذا ما يجعله متصفا بالورع.

أما محبة الذكر في النفس الملهمة (الأحمر) تتصاعد فاعليتها في مرتبة (الجوزي) حتى توشك أن تصل بصاحبها مرتبة الفناء في المذكور ذلك لما للذكر من نوافذ يفتحها باتجاه المعارف الروحية التي لا يحدها حد، فكل اسم من أسماء الحق تعالى تندرج، أو تكمن فيه ما لا يحصى من الأسرار الروحية، والمعارف اللدنية، وللذاكر فيض منها طالما هو مقيم للذكر، فيكون صاحب النور الجوزي محبا للذكر، لأنه من أحدى الوسائل التي تستنزل المعارف التي تقربه من الله تعالى، وتطلعه على الحقيقة.

ويبدو أن بشاشة الوجه، والفرح بالله في مرتبة النفس الملهمة، قد قابلها الحق بجزيل العطاء، لأنه تعالى عند حسن ظن العبد، فقابل تعالى البشاشة

بالجود الإلهي، وقابل الفرح في مرتبة(الجوزي) بالقربة والوصل حتى يبلغ العبد مأمنه.

إن مرتبة (الجوزي) لم تكن من المراتب ذات الطابع البرزخي، بل من المحطات التي يجد السالك فيها ما يعينه ويغريه على مواصلة السفر، إنها استراحة المسافر الذي لا يريد التوقف من أجل الراحة، بل من أجل أن تستمر معه تنزلات المشاهد، والمذاقات الإلهية، وديمومة تدفقات المعارف الربانية، فإن فيها ما يأنس به المشاهد، وينسى مشقة، وأعباء السفر.

وطالما أن مرتبة النور الجوزي هي وليدة مرتبة النور الأحمر، والنور الأخضر، أي: مرتبة النفس الملهمة، والراضية فإنها حتما سوف تتضمن صفات النفس المطمئنة، كالجود، والتوكل، والحكم، والعبادة، والشكر، والرضا، والجود لدى صاحب هذه النفس هو ليس من قبيل الجود المادي فحسب بل الجود المعرفي الروحاني كذلك فإن صاحب هذا النور لا يبخل بما تأتيه من معارف روحانية عن الناس الذين يرشدهم إلى الحق تعالى ويحبب إليهم الحق تعالى، ولا يحتفظ لنفسه إلا ما يختصه به الحق تعالى لنفسه، أما ما عدى ذلك فهو لا يبخل به للمستعدين إلى السفر لمعرفة الحقيقة.

كما إن لصاحب هذا النور (الجوزي) أحدى مقامات التوكل الثلاثة (التوكل والتفويض والتسليم) فله مقام التفويض يسير به في سيره حتى يصل إلى مقام التسليم، وهو المقام الذي يكون العبد فيه تاركاً لكل أشكال التدبير، مسيراً بالله، متخلقاً بتمام قول الحق تعالى: **(وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)** [غافر: 44] حتى يبلغ مستوى تطبيق أمر الله تعالى القائل: **(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً)** [الأحزاب: 56].

ويمتلك صاحب هذا النور الحكمة التي تتضمن المعارف، والعلوم اللدنية، إلى جانب الكرامات الخارقة لنواميس العقل، ذلك يمثل رضا الحق تعالى على صاحب هذا النور وإذن منه تعالى لهذا العبد المخصوص أن يتوجه إلى

إرشاد الناس لطريق الحق كما جاء في قوله تعالى: (**دَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً**) [الأحزاب: 46] ومن يدعو الناس إلى الحق تعالى وهو مأذون من قبل الحق يجعل له الحق تعالى خرق نواميس العقل علامة بارزة تؤكد صدق دعوته، وفي الوقت نفسه تؤكد صحة صلته بالحق تعالى ورضاه عنه.

فالحكمة: هي من المواهب الإلهية التي يهبها الحق تعالى إلى عباد مخصوصين متضمنة العلم والمعجزة للرسول أو النبي، أو الكرامة للولي كما هو الحال في زماننا وما نلاحظه يجري على يد المشايخ والصالحين والأولياء الكاملين، من خوارق وكرامات، من أجل أن يواجهوا بها أولياء الشياطين الذين تمدهم شياطينهم بأنواع من السحر، فجعل تعالى امتداد رحمته الحكمة، فمن يجد آثارها فليمسك ويتمسك بهذا الحبل الرحماني ويعتصم به كما جاء في خطاب الحق تعالى: (**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**) [آل عمران: 103] فالعداوة هي نتيجة الخروج من حصانة حبل الله المراد به الولي المرشد الكامل لأنه هو الأب الروحي الذي يرعى الأرواح ويؤلف بينها ويجعلها متحدة في محبة الحق، فالولي المرشد الكامل هو الأب الثاني بعد الأب الجسماني وإن زوجته هي الأم الثانية بعد التي ولدتك، يقول تعالى: (**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**) [الأحزاب: 6] ومعلوم أن الأولياء ورثة الأنبياء، هذا يعني أن الولي المرشد الكامل في كل زمان هو الوارث المحمدي وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهات المؤمنين، والمؤمنين من خلال هذا الوصف هم أخوة في الروح.

أما العبادة لصاحب هذا اللون تختلف عن سواه، ذلك لأن عبادة العامة تقف مع رسوم الحدود التي حدها تعالى ظاهرا، في حين أن عبادة الخاصة تنظر إلى توجهات القلوب وميلها فهي لا ترضى لقلوبها أن تميل إلى جهة غير جهة الحق تعالى، وهذا يتطلب منها أن تعرف من تحب ليكون ميلها،

ومحبتها صادقة لمن تتوجه إليه، فالعبادة الحقة تقتضي معرفة المعبود، ليكون إليه التوجه صادق، والميل إليه خال من الإشراك، أي: لا يكون للقلب ميول أخرى مثل ميلها للحق تعالى لأن هذا هو عين الإشراك الخفي، وإن العبادة الحقة هي الحب الخالص لله تعالى الذي لا يمازجه حب آخر لجهة غير جهة الحق تعالى.

أما الشكر فيراد به العمل وليس القول، بدليل قوله تعالى: **(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)** [سبأ: 13] والشكر كعمل يراد به إرشاد الناس وهدايتهم إلى طريق الحق تعالى كما جاء في قوله تعالى: **(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً)** [الإسراء: 19] فمن صفات صاحب النور الجوزي، التوجه للناس بالنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل على تحبيب الناس بالحق.

وللون الجوزي أسماء أخرى منها البني والقهوائي، وأغلب تسميات الألوان جاءت من خلال مقارنتها بأشكال من النباتات، أو الحيوانات، أو بعض الأشياء الحسية المحيطة، غير أن للألوان مدلولات روحية لأن لها لغة لا يمكن إدراكها إلا من خلال الروح، بدليل أن الروح تسر، وتنقبض، وتفرح، وتثار، وتنفعل، وتشتهي، وغير ذلك من الفعاليات نتيجة مشاهدتها اللون المخصوص، أو تلك الألوان وهذا يعني أن هناك نوع من الإدراك الروحي لهذه الألوان، فيتم للروح التفاعل مع ما يشاهد، غير إن عملية الفهم ستكون أدق إذا أصبح العبد روحاني السلوك والطبع، بعد أن يتخلص من الحجب المانعة لهذه المعرفة، ويتخلى عن جهة الطبع المادي الكثيف، ويتم ذلك من خلال السلوك الصوفي، وتحت إشراف ولي مرشد كامل فيتواصل معه في السلوك حتى يبلغ مرتبة الفناء في الحق، عند ذاك يرى بالله، ويسمع بالله، ويعقل بالله فيكون عندئذٍ جاهزا لكل المعارف ولا يغرب عنه معنى من المعاني.

يعرفه الباحث إجرائياً: البنفسجي: هو اللون الذي يأتي نتيجة مزج اللون الأزرق مع اللون الأحمر بنسبة متساوية، وهو أقرب ما يكون من لون ورد البنفسج، وله دلالات روحية سيعرض الباحث لها.

ما بين الأزرق والأحمر تتسع المسافة، لتحتل قسماً كبيراً منها مرتبة الأصفر (النفس اللوامة) تلك المرتبة التي تقع ما بين مرتبتي الأمارة بالسوء والنفس الملهمة، ومثل فعل الأخضر بالأزرق تكون فاعلية الأحمر فيه صفات الأزرق تحترق في الأحمر، وكأن الأزرق لم يكن شيئاً مذكورا، إنها عملية ذوبان هوية بهوية أخرى تلك نهاية انبجس عنها بداية تعرب عن صيرورة جديدة تنتمي إلى عالم اللاهوت، من هنا يعلن البنفسجي عن هويته، كونه قطع شوطاً باتجاه الولاية.

البنفسجي هو المعدن النفيس، الذي تحول من خلال خاصية التفاعل ما بين الأحمر الناري، ومعدن الأزرق الرديء، تماماً مثل معدن الذهب، الذي لا يظهر على حقيقته إلا بعد أن يمر بجملة من التطهير، كمعاملته مع بعض الحوامض ومن ثم مع بعض النيران المذيبة حتى يستخلص من شوائبه فيعود له لونه الناصع الذي تفتقر إليه المعادن الأخرى، كذلك البنفسجي فهو تحويل جذري وشامل للأزرق حتى عاد إلى سابق عهده (فطرته الأولى) بعد أن أُزيلت وتشذبت عنه صفات السوء، فأصبح بذلك نفيساً مثل نفاسة الذهب.

فمرتبة الأزرق كما تراها الصوفية، ذات دلالات (كالجهل، والبخل، والحرص، والكبر، والغضب، والشره، والشهوة، والحسد، وسوء الخلق، والخوض فيما لا يعني من الكلام، وغيره، والاستهزاء، والبغض، والإيذاء باليد واللسان لان هذه النفس هي المشار إليها بالخسران) (الكسنزان، محمد عبد الكريم: المصدر السابق، ص110)

ويبدو أن مرتبة البنفسجي هي أشبه ما تكون من طبيعة النار المحرقة، غير أن الوقود هنا تلك الصفات الذميمة التي تتحلى بها مرتبة النفس الأمارة

بالسوء ذات اللون الأزرق، فالأزرق وما يمتلكه من صفات هو الوقود الذي يديم فاعلية النار وديمومتها، وتنتهي مرتبة البنفسجي بانتهاء آثار مرتبة الأزرق، وعلامة ذلك نهاية حظ العبد بالفناء في مرتبة الحق، حيث لا لون، ولا وصف يمكن أن يحد به أو يقيد به، يعود كما كان عليه قبل أن يكون في عالم الأشباح، تلك النفخة التي تمثّل امتداد النور بكل ما يمتلكه من صفات الحق تعالى، وهو عالم أحسن تقويم، يقول تعالى: **(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)** [التين:4] بعد احتراق الصفات السفلية،**(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)** [التين:5] وقد تمت عملية الإحراق بحسب مقتضى الرحمة الإلهية التي اقتضت تنوير الروح بمدها بأسباب ترقيها بحيث يساعدها هذا الترقي بأن يجعل لها تمكيناً معرفياً ونوراً تمشي به يعينها على تجاوز الحجب الظلمانية،فاللون البنفسجي وكما يبدو عليه أشبه ما يكون بتلك النار التي أحرقت صفات الأزرق، فأحرق لهيب المعرفة قش الجهل، وأحرق لهيب الكرم، والجود أي اثر للبخل، وأحرق التواضع كل مظاهر الكبر، وأحرق اللطف كل مظاهر الغضب، وهكذا بقية الصفات تحرق الصفات الرديئة حتى تصبح عوالم خالية من أي دنس وتعلق.

إن مرتبة النفس الملهمة ذات النور الأحمر، وكما أخبرت الصوفية عنها تتصف بالسخاوة، والقناعة، والعلم، والصبر، والتحلم، وتحمل الأذى، والعفو عن الناس، وحملهم على الصلاح، وقبول عذرهم، وشهود بأن الله آخذ بناصية كل دابة، فلم تبقى لهذه المرتبة أي حال من الاعتراض على أي مخلوق أصلاً، ومن صفاتها الشوق، والهيمان، والبكاء، والقلق، والإعراض عن الخلق، والاشتغال بالحق، وحب الذكر، وبشاشة الوجه، والفرح بالله.(المصدر السابق:، ص 111)

وتلعب مرتبة الأحمر دوراً كبيراً من كونها وجه من أوجه الرحمة حين تتوجه بكل عزم على انتشال الأزرق من استغراقه في الضلالة فمرتبة الأحمر هي عين المدد، والإسناد للأزرق من أجل أن يتخطى محنته، **(وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)** [البقرة: من الآية105]

وبعد أن يتم له الجذب، والاجتباء بمقتضى **(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ)** [آل عمران: من الآية42] ومن ثم أوجد لها أرضاً طيبة من المراتب ليجد فيها غرسها منبتاً صالحاً للمكاشفات ومختلف المذاقات، يقول تعالى: **(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً)** [آل عمران: من الآية37] فأثمرت من بعد ذلك **(وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)** [الحج: من الآية5] من المعارف الحسية والروحية التي يكتمل بها نصاب المعارف الصحيحة، لأن الظاهر حق مثلما الباطن حق والجمع بينهما هو من سنينة الحقيقة المحمدية.

لقد أسفر الصراع بين مرتبتي الأحمر والأزرق عن ولادة مرتبة البنفسجي، فاصطبغت هذه المرتبة بصبغة الأحمر، أو لنقل أخذت منها ما يجعلها أكثر رقياً شكلاً، ومضموناً، ولم يبق من مرتبة الأزرق شيء في عالمها، لأنه تجرد وتخلى عن كل صفات مرتبة النفس الأمارة بالسوء، بفضل عناية الحق تعالى،**(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)** [الأنبياء:18].

ومرتبة البنفسجي هي ليست بالضرورة أدنى من مرتبة النفس الملهمة ذات النور الأحمر،صحيح أن البنفسجي انبجس عن فاعلية الأحمر إلا إنه تجاوز مرتبة الأحمر بفضل تقريب واعتناء الحق تعالى له بمقتضى **(وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)** [البقرة: من الآية105] أو لنقل بدقة أكثر إنها عبارة عن ارتقاء مرتبة الأحمر بعد أن تخلت وتخلصت بشكل نهائي من جميع شوائبها، وإن أوصافها بدأت تتقارب من أوصاف مرتبة النفس المرضية ذات النور الأسود، أي: بلغت مرتبة السيادة على الذات بفعل تمكين الحق لها، والسيادة هنا بالله تعالى، ومن تكن سيادته بالله فلا عودة ولا خسران، **(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)** [الروم: من الآية47] فالبنفسجي هنا هو ارتقاء مبارك لأنه اختصر الكثرة من المراتب باتجاه الحق في سفرٍ مبارك، وهو حال أهل العناية والتمكين من المرادين الذين يشملهم قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا**

مُبْعَدُونَ * لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ) [الأنبياء:101 ــــ102].

فالأحمر يمنح بعض من هويته للأزرق ذلك مقتضى الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء فمرتبة البنفسجي فيها بعض سمات النفس الملهمة، فالسخاوة التي جاءت من خلال النفس الملهمة عي عين الكرم المتجلي من قبل الحق أفاض به تعالى على تجلياته التي أرادها أن تظهر أسمائه الحسنى وصفاته الأسنى، والتي هي أرفع شأنا من الصفات، والأسماء المندرجة في النفس الهيولانية، ففي النفس الأمارة بالسوء يظهر البخل كأحد الصفات التي يصطبغ بها الأزرق يقابله السخاوة والكرم في النفس الملهمة، فيكون حاصل تحصيل اللون البنفسجي من الجود الإلهي هو التخلق باسمه تعالى الكريم، فتكون دلالة اللون البنفسجي هي الكرم وهذا يعني أن الأحمر قد ارتقى بالأزرق مرتبة تضعه في مصاف أهل العناية كما جاء في خطابه تعالى: **(مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)** [البقرة: 105] فالبنفسجي هنا هي التفاتة الحق لعبد كان على شفا حفرة من النار فأنقذه منها كما جاء في قوله تعالى: **(وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)** [آل عمران: 103] والغاية من ذلك عسى أن تتحقق الهداية إلى الحقيقة التي تطلبها الذات بقولها **(أحببت أن أعرف)** كما جاء في الحديث القدسي.

كما إن القناعة التي تزخر بها النفس الملهمة ذات النور الأحمر هي وليدة الغنى الإلهي المتجلي في صفة من هو قنوع غني عن غير الحق تعالى، وكأن آيته من القرآن الكريم: **(وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)** [آل عمران: 97] والقناعة هي رسوخ الاعتقاد بأن الله تعالى قد اختصك برزق مادي في دار الدنيا ورزق روحي يفيدك في دار الآخرة وكلا الرزقين قابلا للزيادة إذا أراد الله ذلك، وكلا الرزقين يحصل عليهما المخلوق قبل مماته لا محال.

فالقناعة هي ثقة العبد بخالقه أنه به محيط وهو أقرب من حبل الوريد، وليس هناك ما يستدعي العجالة في طلب الرزق أو المثابرة عليها على حساب بعض الأمور المهمة التي تخص العقيدة ومحبة الحق تعالى والعمل بشرائط الإيمان.

أما العلم بالله هو الوسيلة المهمة التي تنقذ المرء من مغبة الاستغراق في ظلمة الجهل، وتضعه على جادة المعرفة بما يراد منه تجاه الحق، والحقيقة، فالعلم الذي يتدفق لصاحب النور الأحمر بما تقتضيه مرتبته الملهمة يؤكد حضوره في البنفسجي مرتقيا بجهل الأزرق إلى أفق المعرفة، وهي رعاية الحق تعالى لمن يستحق الرعاية وكان من أهل الاختصاص، والعلم هنا في المرتبة البنفسجية يعد من بواكير الإلهام الإلهي للمستعدين تمهيدا لمرتبة يكون فيها تدفق الإلهام أكثر فأكثر حتى يبلغ العبد مأمنه فتكون نسخته هي عين النسخة المحمدية التي تعبر عن مقتضيات الرحمة الإلهية كما جاء في قوله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)** [الأنبياء: 107] والرحمة بمعناها الدقيق تحبيب الناس بالحق قولا وفعلا من أجل أن يتخلصوا من البقية البشرية بعد أن تكون صفاتهم ربانية كما جاء في قوله تعالى: **(وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ)** [آل عمران: 79] فالبنفسجي مرحلة تهيأ لتكون نسخة من الرحمة لها في رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أسوة، واقتداء، واتباع.

وللصبر مد من أسمه تعالى الصبور، يمتد بها الأحمر بمقتضى الرحمة ليجعل من الأزرق الذي تعصف به العجالة، والتسرع إلى مجافاة التأني، والكياسة، والحلم، إلى التوجه لهذه السمات الجميلة الرائعة ليغدو من بعد جهالته عارفا ومن بعد عجالته صبورا مجافيا لكل الحماقات التي اصطبغت بها الزرقة، والصبر من المقامات العلية التي يجب أن ترافق السالك أو المريد حتى يصل مرتبة الصديقية، يقول تعالى: **(وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)** [الأنفال:

46] ويقول: (**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ**) [الأحقاف: 35] فالصبر هنا من المقامات التي يجب التحقق بها، والتخلق بها ليكون الحق تعالى معك في كل شيء، والبنفسجي فيه صبغة من التحمل، والصبر قد أخذها من كرم الأحمر.

أما من الدلائل التي يضيفها الأحمر إلى البنفسجي فهي: إرشاد الناس، وحملهم على الصلاح، وقبول عذرهم، وهذا يعني أن مرتبة البنفسجي هي بداية لمرحلة يكون فيها صاحب هذا اللون مرشدا للناس إلى طريق الحق تعالى، ويحاول معهم إلى خلق قناعة لديهم بالتخلي عن الصفات الذميمة والتحلي بالصفات الكريمة التي يصبح عندها المرء متخلقا بأخلاق الله تعالى.

والإرشاد كما قلنا من قبل هو توجه من توجهات الرحمة، وهو أشبه ما يكون من النطق النيابي عن الحق تعالى، يقول تعالى: (**وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ**) [الأنفال: 23] وما صح لمرء أن يكلمه الحق تعالى إلا من وراء حجاب كما جاء في قوله: (**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**) [الشورى: 51] فإذا أراد الحق تعالى أن يسمع أحد يكلمه من خلال نوابه أي: من خلال المرشدين، فمن يكلمه مرشد ولي هذا يعني إن الله يسمعه، فإذا فيه خير سمع، وأطاع، وإذا كان خلاف ذلك يسمع، ولا يطيع، ويشمل هذا جميع الناس الذين لم يصل إليهم وليا مرشدا، لأن الله تعالى يعلم أنهم ليسوا على خير، وإن الإرشاد معهم ضائع لا جدوى منه.

وقبول العذر ينبع من صاحب المرتبة الحمراء، بسبب ما علم من المخطئين أنهم تحت سلطة النفس الهيولانية، وظلمتها وإن باب الرحمة يجب أن تكون مشرعة لكل من أراد طريق الحق، فالتوبة النصوح من الخطأ تجب ما قبلها، يقول تعالى: (**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا**

مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [الزمر: 53] فلم يكن الولي المرشد يوما مصدا لمن يُقبل إلى باب الرحمة، بل هو في خدمة كل تواب أواب للحق تعالى، فقبول العذر إدراك لمقتضيات الرحمة، وتعامل جميل للمتوجهين إلى جهة الحق تعالى.

فالبنفسجي هنا صبغة يتماهى فيها ويذوب كل وصف لا يرقى إلى مستوى النور، هذا يعني أن الأحمر له سلطة إذابة الأزرق، وتلاشيه في صياغة جديدة تسمى البنفسجي، تمهيدا لبلوغ مرتبة يكون فيها المرء مطمئنا في قربه من الحق تعالى، ويعد البنفسجي من الألوان الحارة بسبب تأثره بأحوال الأحمر، ويقترب البنفسجي من اللون الأسود وهذا ما يؤهله لأن يكون صاحب هيمنة على الألوان التي تمتزج معه فتغلب نورانيته على الألوان التي هي من جنسه فلا يبقى لها من أثر.

والبنفسجي لون الأوابين إلى الحق تعالى، المتخلين عن الخلق ولهم عزم أكيد على ترك كل الأوصاف السفلية، وخلع أوصاف البشرية والتخلق بأخلاق الربوبية.

اللون الفيروزي

لا تزال نظريات علم النفس تتلمس طريقها في الكشف عن عوالمٍ تكمن في بطون النفس الإنسانية فاتجهت أفقياً لتلج تخصصات مجاورة جاد بها الفكر الديني بخطابيه الإلهي ـ والتأويلي إلى جانب ما تمخض عن التفكير الوضعي، ومن بين هذه التخصصات، فلسفة الفن ونظريات علم الجمال، حاول علم النفس بكل جدية أن يجد بعض التفسيرات والتبريرات للمشاعر والأحاسيس النفسية التي يدهشها الجميل دون أن يكون لها مدخلا إلى فهمه وعقلنته ، إنه شعور بالجميل فحسب ، دهشة، وانشداد، وميل للون ما من الألوان، أو لموسيقى معينة ، أو لخطٍ أو حجمٍ هندسي معين ، وهكذا لكل إعجاب قد تجرد من معانيه الظاهرية.

حاولت نظريات علم النفس، ولا تزال تحاول فك هذه الطلاسم، ولكن دون جدوى ملحوظ، ذلك يرجع بحسب اعتقادنا إلى طبيعة المنهج، أو الطريقة التي تحاول الكشف من خلالها عن هذه الميول، فملاحظة الطفل، وملاحقة تصرفاته تحت عنوان التجربة، ومقارنتها بقرائن معينة وحدها غير كافية لإعلان عن نتائج سرعان ما تنحسر أمام تساؤلات من الصعب أن تجيب عليها.

لقد أثبتت التجربة الصوفية، وعبر كل مذاهبها الممتدة على صفحات التاريخ أن معرفة أي معنىً من المعاني النفسية - الروحية لا يمكن أن يمسك أو يستدل عليه من الخارج، اقصد من خارج الذات، وهنا يكمن وجه مهم من أوجه المشكلة، كما أن عملية الاستبطان هذه وحدها لا تكفي دون مقدمات ضرورية تهدف إلى معرفة النفس معرفة دقيقة، والوقوف على تفاصيل مكوناتها، أو تركيبتها الكونية، باعتبار أن الإنسان هو مختصر كوني شريف للكون الأكبر بما فيه من ثنائية الروح، والأجسام.

ومن اجل معرفة النفس معرفة دقيقة لابد للمرء من جملة إجراءات عملية ومعنوية تدخل جميعها تحت عنوان مهم ورئيسي يُوصف بـ**(رضا الله**

تعالى) فيكون لنتائج هذا لوصف علامات معرفية لا يشك في صحتها لأنها معطيات إلهية، يقول تعالى: **(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** [البقرة: من الآية282] إن عملية الربط بين الطريقة أو المنهج مع الله تعالى لم يُبنى على أساس افتراضي أو يخضع لتوجه عشوائي بل أن هذا الارتباط ينطلق من أساسٍ عميق كون النفس منحة إلهية لها وجه يتصل مع الله تعالى ووجهٍ مع الوجود، يقول تعالى: **(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)** [الحجر:29] فالنفس تبدو هنا امتداد النفخة، والحجب المانعة من النظر بنور الحق تعالى، هي السبب في خلق أزمة المعرفة، فإن المعرفة الحقة تقتضي إزالة التعلقات والشوائب (الحجب) لكي تتحقق النفس بالحق وتلتحق النفس بأصلها وامتدادها الطبيعي، فيكون الإنسان من خلال هذا التواصل نافذ البصيرة بالله تعالى ، فلا يحتجب عنه شيء سواء كان معنى، أو إشارة، أو معرفة مغزى لون، أو طعم، أو مذاق.

فالتجربة الصوفية تستند وتتبنى هذا المعطى الكشفي ـ المعرفي ـ الذوقي،ونتيجة لهذا فإنها تستحق الاعتناء ويفترض أن يخصص لها فضاءً تشغله إلى جوار فضاءآت المعارف، والنظريات الأخرى.

إن نظريات علم النفس تمنح اللون الأزرق بطاقة تعريف تؤكد من خلالها دلالات قدسية وتجعل منه لون متسامٍ يتصف بالإطلاق، والصفاء، وسمو الروح ولا أدري على ماذا استندت في الكشف عن هذه المعانِ ، في حين أن الخطاب الإلهي (القرآن الكريم) يمنحنا دلالات تختلف كل الاختلاف عن دلالات نظريات علم النفس بل تقع في النقيض تماماً، قال تعالى: **(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً)** [طه:102] فالدلالة هنا تشير إلى الإجرام، وللإجرام معانٍ كثيرة كلها تنغمس في الزرقة، وتصطبغ فيها.

وما بين الدلالات التي تعرضها نظريات علم النفس في مجال اللون من خلال وسائلها، وبين الخطاب الإلهي تتضح سعة الفجوة، الأمر الذي يجعلنا نستدعي الخطاب الصوفي باعتبارِه المجال الأقرب من خطاب الحق ليبين لنا حقيقة الإشارة الإلهية، وما تنطوي عليه من تفصيل الدلالة.

لقد كشفت معطيات الكشف الصوفي أن للنفس الإنسانية سبعة مراتب أدناها مرتبة النفس الأمارة بالسوء وأعلاها النفس الكاملة، فإذا استطاع الإنسان بلوغها فإن ذلك يؤشر تجاوزه وتخطيه عالم الحجب الفاصلة بينه وبين الله تعالى أي: رجوعه إلى ما كان عليه قبل أن يكون في عالم الأجسام تلك النفخة بصفائها، ونقائها، وكأنها تواً نفخت من روح الله تعالى، فترى بفضل امتدادها الإلهي بنظر الله تعالى، وتسمع به إلى آخره من تمكين.

وأظهرت معطيات الكشف أن لكل مرتبة لون يختص بها، له من الدلالة ما لتلك المرتبة، وبما أن كل مرتبة تكون مصحوبة، ومتسمة بجملة ميول، وصفات، ونزعات، فإن اللون يكون هنا مساوياً من حيث تعبيريته لتلك الصفات، والميول، والنزعات، ومعبراً عنها، ومن خلال اللون كذلك توصل المتصوفة إلى معرفة مراتب كل من يقع عليه النظر، كما توصلوا إلى كيفية معالجة كل مرتبة من هذه المراتب، ووضعوا بذلك الكثير من الكتب التي تدلك على من يمتلك الحكمة في تطبيب أمراض النفس، ويجعلها متعافية في كل زمان.

ويمكن إجمال مراتب النفس، وألوانها، وصفات كل مرتبة منها على النحو التالي:

النفس الأمارة بالسوء: يقول تعالى: **(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)** [يوسف:53] لون هذه المرتبة هو اللون(الأزرق) ، ويتصف صاحب هذه المرتبة بجملة صفات منها، الجهل، والبخل، والحرص، والكبر، والغضب، والشره، والشهوة، والحسد، وسوء الخلق، والاستهزاء، والبغض، والإيذاء باليد، واللسان، وبالنتيجة فإن هذه الصفات جمعيها تشكل الحجب الظلمانية. (الكسنزان، السيد محمد عبد الكريم: ب ت، ص 109)

ومن أجل أن يغادر صاحب هذا اللون زرقته متحولا إلى مراتب الكمال، لابد له من التخلي عن البقية البشرية، أي صفات النفس الأمارة بالسوء، أو ما يسمى بجهة الطبع، فالجهل مثلا هو أساس كل الحجب الظلمانية، وهذا

يعني أن على من يريد الحقيقة عليه بالتخلي عن كل ما من شأنه يديم الجهل لدى الإنسان، أي يعمل بشرائط التقوى حتى يبلغ مرتبة المتقين، ليحقق بذلك صلة يقينية بالحق تعالى، فيكون الحق تعالى هو المعلم له بلا واسطة كما جاء في قوله تعالى: **(وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** [البقرة: 282] يتضح من خلال ظاهر الآية الكريمة أن العلم الإلهي يمنحه تعالى للمتقين، وهذا يعني إن عملية الخلاص من الجهل لا يمكن أن يتم للفرد ما لم يسلك طريق التقوى. أما البخل فإنه نابع من حقيقة الاحتجاب بجهة الطبع كذلك، والخيالات، والأوهام الفاسدة، والظنون التي من خلالها يخيل للمرء أن أمله في الحياة يطول، وإن عليه أن يعد العدة، ويكثر من التدبيرات كما جاء في قوله تعالى: **(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ)** [التكاثر:1- 2]. كما أن الحرص يرجع إلى الأسباب نفسها، والتمسك بالحياة، والاحتجاب بزخرفها، والتعلق بلذاتها، والانشغال بها. أما الكبر فهو نقيض التواضع، وهو من أكبر الأشياء التي تحرض على عدم السماع من الفقراء، والصالحين، والتمسك بأهواء النفس، وعدم الإصغاء إلى المنطق الحق، يقول تعالى: **(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)** [الفرقان: 27] أي: يندم على ما فاته نتيجة هيمنة ظلمته عليه، واحتجابه بالغواشي البدنية التي صيرته غير ميال إلى جهة الحق تعالى. والغضب وهي من الصفات الكلبية أو الأسدية التي تنأى بالمرء عن جادة الصبر، وتضعه في جهة الضلالة، وهي من الصفات التي يبغضها الله تعالى، يقول تعالى: **(وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)** [الأنبياء: 87] فلولا الغضب ما كان له أن يقع في الظلمات، فالظلمات هي نتيجة لكل من يغضب، لذا فإن على المرء أن يستعين بالصبر حتى يصل إلى مراده، كما أن للغضب نتائج غير محمودة لأنها تخرج الإنسان من طوره الإنساني لتضعه في مصاف المراتب الوجودية التي هي أقل من مرتبته ورتبته، في حين أن الحق تعالى خلق الإنسان على الصورة الإلهية، ويفترض به أن يرتقي ويسمو عن كل الصفات

التي هي أقل رتبته من رتبته، أما بخصوص الشره فإن هذه الصفة تؤكد على تمسك صاحبها بالشهوات واللذات الحسية بكل قوة، وهي كذلك تعبر عن حال الاحتجاب بالحجب الظلمانية، فلو عرف صاحبها المذاقات النورانية والمعرفية والروحية وتم له الكشف عن تلك المذاقات لما تمسك باللذة المحدودة الزائلة، كما أن الشهوة لدى صاحب اللون الأزرق محدودة بحدود الإطار الحسي، مثله بذلك مثل الحيوان الذي لا يعرف غير الأكل والشرب والنوم بل هو أضل من ذلك كما جاء في قوله تعالى: **(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)** [الأعراف: 179] ذلك لأن الأنعام تدرك علم الصلاة والتسبيح بعلم، كما أخبرنا تعالى عن ذلك بخطابه: **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)** [النور: 41] فمن لا يدرك علم الصلاة، والتسبيح، وغفل عن الحق تعالى هو أنزل درجة حتى من الأنعام، أما الحسد، فإن لصاحب هذا اللون صفة الحسد، والحسد من الصفات السفلية التي يتوجه بها صاحبها على حسد من تفوق عليه ماديا أو معرفيا أو بجاه أو بسلطة وما شابه ذلك وهي أمور دنيوية لا تستحق من حاسد أن يحسد أحد عليها، والحسد هو نوع من التنافس غير الشريف يهيأ له، ويحرض عليه الشيطان، يقول تعالى: **(وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)** [الفلق: 5] فالحسد شر كله، ويؤدي إلى الشر، ويعرض صاحبه إلى الإفلاس من كل شيء كما جاء في الحديث الشريف: **(الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب)**، في حين أن هناك شكلا من أشكال الحسد يحثنا إليه تعالى بقوله: **(خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)** [المطففين: 26] أي: يجب على المؤمن أن يتنافس في عمل الخير، والبر، وذلك بمتابعة، واتباع أولي الأمر من المشايخ، والأئمة الكاملين، وطاعتهم، والعمل بما أمر به تعالى من الوصول إلى الختام الذي تبيض من خلاله الوجوه وتحظى بمحبوبها وتسعد بالنظر إليه، يقول تعالى: **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ**

نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةَ) [القيامة:22- 23] في حين أن أهل الحسد سيؤذي بهم شرّه: (كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) [المطففين: 15]، أما سوء الخلق، فلأن النفس الأمارة بالسوء قد تخلت عن كل الفضائل واحتجبت بالغواشي البدنية، ووقفت مع لذاتها الدنيوية المؤطرة بإطار الحس المحدود، ولم تتطلع إلى الصفات السامية ولم تحاول أو تسعى إلى الترقي عن أفق النفس، فإنها بذلك تكون قد حرمت نفسها من التجليات الإلهية الباطنة في الوجود ومن جميع المعاني، واللطائف التي تجلى بها الحق تعالى في مراتب الوجود، فهم محجوبين منها كما أنهم محجوبين من جميع تجليات الذات في الآخرة فضلا عن احتجابهم عن رؤية الرب في الدار الآخرة، فإن رؤية، ومعرفة اللطائف، والمعاني الروحيه لا تتم إلا لذوي الأرواح اللطيفة التي تنورت بنور الحق تعالى، وعادت كما كانت عليه قبل أن تكون في عالم الأشباح، فإن ذلك يمنح الروح فرصة الإطلاع على هذا العالم لأنها أصبحت من جنسه النوراني، أما إذا كانت الروع خلاف هذا الوصف، فإنها تبقى مختلفة عن جنس عالم الروح والمعاني، وأقرب منها إلى عالم المادة والكثافة فلا ترى غير الحدود الحسية المادية لأنه من جنس طبعها، أما الاستهزاء، والاستخفاف بأهل الله تعالى من قبل صاحب النفس الأمارة بالسوء فإنه جزء من طبع هذه النفس لرؤيتها القاصرة المحدودة للأشياء التي لا ترى أن هناك عوالم غير العالم المادي الكثيف الذي احتجبت به، فإنها ترى أن العمل بمراد الحق تعالى خروج عن مألوفاتها، وهي لا ترى أن هناك حقائق غير الحقائق المادية، ولذلك فإن الاستخفاف هو من طبيعتها المظلمة. أما البغض فهو نتيجة لما يخالف طبع النفس المحجوبة، فكل ما يخالف الظلام هو نور، ومعلوم أن النور هو الماحي لهوية الظلمة فمن البديهي أن يكون هناك شيء من البغض الناجم عن التضاد، أو ثنائية النور، والظلمة، يقول تعالى: (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ) [آل عمران: 182] فمن صفات الحق تعالى أنه غير ظلام، لأن الظلم يقع نتيجة الظلمة، فالمرء الذي هو على بينة من ربه لا يظلم لأن الظلم ليس من طبع صاحب البينة، ونورها يأبى أن يفعل فعل

الظلام. أما الإيذاء باليد، واللسان فهي كذلك انعكاس لجهة الطبع فمن كانت طباعه ظلمانية فإن أفعاله لا بد لها أن تكون انعكاس لأخلاقه، فالأذى هو من صفات النفس الأمارة بالسوء، كما أن اللسان يترجم عن المكنون، ويعكس عن الكوامن الدفينة في قعر دركات ظلمة النفس، ويعبر عنها.

النفس اللوامة: يقول تعالى: **(وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)** [القيامة:2] اللون النوري لهذه المرتبة (الأصفر) يتصف صاحب هذه المرتبة: بالعجب، والاعتراض على الخلق، والرياء الخفي، وحب الشهوة، والرياسة ، وله من الصفات الإيجابية اللوم على أي فعل غير صحيح، ويتصف كذلك بتنور الفكر، والميل لتطبيق الشريعة، ورغبة للمجاهدة في سبيل الله، وله أعمال صالحة، كالصوم والصلاة والصدقة، ومن صفات هذه المرتبة كذلك إنها تبعث على السرور. (المصدر السابق نفسه: ص110)

النفس الملهمة: يقول تعالى: **(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)** [الشمس:7 – 8] اللون النوري لهذه المرتبة (أحمر) من صفات صاحب هذه المرتبة:ملهم، وسخي، وقنوع، ويتصف بالعلم، والتواضع، والصبر، والحلم، وتحمل الأذى من الناس، وحملهم على الصلاح، والشوق لله تعالى، والهيمان، والبكاء خشيةً، والقلق، والإعراض عن الناس، والعمل باتجاه الحق، ومحبة ذكر الله تعالى، وبشاشة الوجه، والفرح بالله.(نفسه: ص 110)

النفس المطمئنة:يقول تعالى: **(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)** [الفجر:27] اللون النوري لهذه المرتبة (الأبيض)، يتصف صاحب هذه المرتبة:بالجود، والتوكل على الله،والحلم، والعبادة، والشكر، والرضا بالقدر خيره وشره من الله تعالى،والصبر على البلاء.(نفسه: ص111)

النفس الراضية: يقول تعالى: (ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) [الفجر:28] اللون النوري لهذه النفس (الأخضر) صفات صاحب هذه المرتبة:راضٍ بقضاء الله وقدره، الزهد، والإخلاص، والورع، والنسيان، والرضا في كل ما يقع، والاستغراق في مشاهدة جمال الحق المطلق.(الكيلاني، عبد القادر: ب ت، ص38).

إن من صفات صاحب هذه المرتبة رضاه بما يأتي من جهة الحق تعالى سواء كان المقدر عليه خيرا أم شرا، وهذه القناعة ناجمة من كون صاحب هذه المرتبة قد أبصره تعالى، وكشف له عن معرفة لدنية جعلت صاحب هذا المقام يعرف تماما أن الذي يجري في الوجود ما هو إلا تمظهرات الحق تعالى كما أن القائم في تلك التمظهرات باطنا هو الحق تعالى فالكل قائما بالله تعالى، وبذلك فإن الرضا به هو إدراك وعلم قائما بالله تعالى كذلك، وإن ما يصدر عن الحق تعالى هو الجلال، والجمال، أي ما اقتضاه الحق تعالى، وما قدره من خير، وشر، وإن من الأدب الرضا بالجلال، وقبوله تماما يتم مثلما نقبل الجمال، وسروره، فالقاهرية لديه، والسعادة شيء واحد لأنها من جهة الحق تعالى. أما الزهد فهو من صفات هذه المرتبة، وهو يعني التخلي عن التجليات مع التمسك بالمتجلي أي: الزهد بما سوى الله تعالى، والتخلق بالأخلاق الإلهية، والتخلي عن الصفات البشرية، أو ما يطلق عليه التخلص من البقية، ويراد به التخلص من بقية طبع النفس الهيولانية التي كثيرا ما تنزع باتجاه اللذات الحسية المحدودة. أما الإخلاص: فيراد به العمل الجاد الذي يهدف إلى التوحيد الذاتي، أي: رجوع الروع إلى موطنها الأصلي كونها نفخة من روح الحق تعالى، وهذا يعني عودتها إلى مستواها الأول، فالإخلاص يعني صيانة الأمانة الإلهية التي أودعها تعالى لدى الإنسان، والعمل على الوصول بها إلى مستواها الأول المغبر عنه بمستوى أحسن تقويم كما جاء في قوله تعالى: (**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**) [التين:4- 5] فالإخلاص يعني صيانة الأمانة الإلهية، وهذا يتطلب العزم، والتوكل، والعمل الجاد لبلوغ تلك المرتبة أي عودت الروح لمرتبتها (**أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**). أما فيما يخص الورع: فإنه يعني تجنب المحارم بكل أشكالها الظاهرة والباطنة، مع عدم قبول التعامل مع شيء تقع عليه الشبهة أي: مجهول من حيث حكم الشارع، فالوقوف عنده وتجنبه يقي المرء من احتمالية الوقوع في الخطأ أو الزلل، لذا ومن باب التقوى تجنب هذا الشيء من خلال الورع. أما النسيان: فإن لصاحب هذه المرتبة رحمة النسيان لجميع أنواع الأذى الذي يأتي عن طريق الخلق ذلك لكون صاحب هذا المقام يعلم تماما أن ما يجري هو بفعل الحق تعالى فلا

تستوقفه الكثرة وما يصدر عنها، لأنه غير محتجب بها ولأنه يرى أن الأفعال التي تظهر من خلال مراتب الوجود هي عينها تظهر من خلال الوحدة، فالواحد الأحد له يعود كل شيء، ولم يعد هناك من سبب يتذكر فيه العارف أن ما يتبدى لنا في العيان له عائدية لغير الحق تعالى وعليه فإن نسيانه يكون نتيجة طبيعية لهذا الفهم، كما أن ترقيه المعرفي الجديد يدعوه دائما إلى نسيان المعارف القديمة، فيكون دائم النسيان للماضي لما استجد له من مذاقات، ومعاني جديدة فتراه كثير النسيان لانشغاله بالجمال الإلهي، وانذهاله به عن الغير. أما الرضا في كل ما يقع فهو أيضا من صفات صاحب هذا المقام ذو اللون الأخضر ويعتمد الرضا على مخزون الوعي والمعارف الإلهية، إذ كلما كانت حصيلة المرء كبيرة من العلوم والمعارف كلما كان المرء موصوفا بالقناعة والرضا بكل ما يقع عليه من خير وشر.

النفس المرضية:يقول تعالى: (**ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً**) [الفجر:28] اللون النوري لهذه المرتبة (الأسود) صفات صاحب هذه المرتبة:إدراك رضا الله تعالى عنه، عارف وعالم، مفيد للخلق بالنصيحة والعمل،فانٍ في الحق. (الكيلاني، عبد القادر: المصدر السابق، ص، 38)

النفس الكاملة:يقول تعالى: (**وَادْخُلِي جَنَّتِي**) [الفجر:30] ليس لها لون فهي كالنور، من صفات صاحب هذه المرتبة، لا يقبل الوقوف مع أية مرتبة من المراتب السابقة لاتجاه رغبته إلى الفناء بالله تعالى، وجميع الصفات الحسنة التي مرت بنا سابقاً، كما جاء في قوله تعالى: (**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى**) [النجم:42]. (الكيلاني، عبد القادر:ب ت، ص38)

ويرى الكيلاني، قدس سره، أن لباس الصوفية (يراد به لون المرتبة) متلون مثل البياض، والخضرة، وعمل المنتهي خالٍ عن الألوان، مثل نور الشمس فنورها لا يقبل الألوان، وكذا لباسهم لا يقبل الألوان مثل السواد، وهو علامة الفناء، وهو نقاب نور معرفتهم، كما أن الليل نقاب نور الشمس، يقول تعالى: (**يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ**) [الأعراف: من الآية54] كما أن لباس الأسود لباس العزاء من كون له دلالة على إماتة مراتب الأنفس طوعاً من اجل الدنو من الحق.(الكيلاني، عبد القادر:2005، ص 28)

أما بخصوص الألوان التي كان يفضلها الرسول صلى الله عليه وسلم فهي عديدة منها: اللون الأحمر، والأبيض، والأصفر، والأخضر، والمحبر، والأسود، ولم يرد عنه محبته للون الأزرق، وكان يفضل اللون الأخضر لأنه لباس أهل الجنة، والأبيض ؛ لأن فيه دلالة الاطمئنان، قال فيه صلى الله عليه وسلم: **(إن من خير ثيابكم البياض، ليلبسها أحياؤكم وكفنوا بها أمواتكم)** (الحسني، ابن عجيبة:2000، ص 106)

ويبدو أن مشاهدة أنوار الألوان بات مألوفاً لدى كبار الصوفية في كل شيء، طبقات السماء وطبقات الأرض وفي كل ما خلق الله تعالى.

كما لا تفوتهم مشاهدة أنوار الآيات، وألوانها، ويرى الدباغ في إبريزه أن الآيات القرآنية تتلون بحسب طبيعة الآية، فإذا كان الخطاب لله تعالى فإن لون الآية المنطوق بها أخضر،أما إذا كان الخطاب على لسان المؤمنين فإن لون نوره أبيض، وأما إذا كان الخطاب على لسان الكافرين، فإن لونه أسود فيقع لدى العارف التمييز في الإشارة.(الدباغ، عبد العزيز: 1988، ص152)

مدلول اللون الفيروزي في القباب والمآذن

كثيراً ما نلاحظ بعض الأماكن المقدسة، وقد اصطبغت باللون الفيروزي، يشدنا هذا اللون ويجذبنا نحوه بقوة ليشعرنا بشكلٍ أو بآخر بهيبة، وجلال المكان، وكأن لهذا الشكل سلطة على الروح، واضعاً إياها وجهاً لوجه أمام مرابطةٍ مع الحق، إنها إشارة معنوية لروحٍ سرمدية ما تفتأُ تذكرها بعالمها، وموطنها المقدس الذي جاءت عنه، يقول تعالى: **(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)** [التين:4 – 5] إنها إحالة ذكية لفنان ذكي، جمع في إحالته جدلية الرجوع، وتصارع الأضداد، فهو من جانب يحيلنا إلى الخطاب الإلهي، ومن جانبٍ آخر يطلب منا المجاهدة للارتقاء من الأزرق إلى الأخضر أي: من النفس الأمارة من خلال مجاهدتها، إلى الرضا في السفر للحق تعالى.

فالتكوين في بناء القبة، وما يرافقه من كساء للون الفيروزي، وتجاوره مع ألوان الذهبي أو لون الآجر الترابي من كل ذلك يكاشفنا الفنان ويطلعنا

على دلالات استخدم فيها الإشارة وكأنه يقول لنا: (إن الحليم بالإشارة يفهم)، وقد لجأ الفنان إلى الإشارة لأنها تدعونا إلى التعمق في التأمل، فثنائية اللونين الذهبي والفيروزي ترجع في حقيقتها إلى الواحدية، فهي وإن تبدو لنا حقيقتين غير أنها ترجع إلى حقيقة واحدة جامعة للكل.

ولو أجرينا تحليلاً لتركيبية هذا اللون (الفيروزي) لوجدناه ُ مكـــون مـــن اللون الأزرق بنسبة الثلث إلى الثلثين من الأخضر، وأصبح من المعلوم لدينا من دلالة اللونين عند المتصوفة فالأزرق الإجرامي يعلن عن دلالته، ويفضح معانيه المتصفة بالجهل، والحرص، والكبر، والغضب، والــشره، والــشهوة، والحسد، وسوء الخلق.. وهلم جرى.

يقابله الأخضر الراضي في تواضع صفاته وتخلقه بأخلاق الحق تعالى الذي ألبس الجنة حلةً منه فاصطبغت به ليعلن هو الآخر عن هوية صفاته المتسمة: بالزهد، والإخلاص، والورع، والنسيان، والرضا في كل ما يقع لأنه راضٍ بقضاء الله وأقداره، فترى صاحبها مستغرق في مشاهدة جمال الحق.

والأخضر في حقيقته مكون من نسبتين متساويتين من الأصفر والأزرق فإلى جانب دلالة النفس اللوامة التي فيها ما هو جيد وما هو دون ذلك إلا أن الجيد منها أفاد الأخضر، وهذا يعني أن الأخضر يتضمن كذلك الدلالات الجيدة من مرتبة النفس اللوامة التي أشرنا إليها من قبل فلها من الصفات الإيجابية اللوم على أي فعل غير صحيح، ويتصف كذلك بتنور الفكر، والميل لتطبيق الشريعة، ورغبة للمجاهدة في سبيل الله، وله أعمال صالحة، كالصوم، والصلاة، والصدقة، ومن صفات هذه المرتبة كذلك إنها تبعث على السرور.

فاللوم على أي فعل غير صحيح هو عين التحول إلى مقامات الورع، أي أن اللوم هو عين التأسيس لمقام الورع الذي يشكل دلالة واضحة لمرتبة الأخضر، وهي صفة إيجابية بلا شك لأنها تحث النفس باستمرار على تجنب الأعمال غير الصحيحة، وتحثها كذلك على مغادرة الأفعال الخبيثة التي تؤدي بها إلى النزول إلى قعر الطبع الظلماني.

كما أن الاتصاف بالفكر النير يؤدي بالعبد إلى البحث عن المسارات الصحيحة النيرة التي تجعله يبتعد شيئا فشيء عن الارتماء في أحضان الغفلة، والحجب المانعة من الترقي، وهذه كذلك من الصفات التي تقرب العبد من الحق تعالى وتضعه على جادة الحقيقة، وهي من صفات الكمال، ذلك لأن الكمال يتضمن جميع الصفات الجيدة التي تدل عليها مراتب النفس الخمسة وهي: اللوامة والملهمة، والمطمئنة، والراضية، والمرضية.

أما الميل إلى تطبيق الشريعة: فهو كذلك تأسيس لبناء صحيح لأن الطريقة تعتمد على أسس الشريعة، فمن لا شريعة له لا يمكنه أن يتواصل في الطريق بشكل صحيح؛ ذلك لأن المكر الشيطاني لا يمكن التخلص منه إلا من خلال الشريعة ومجساتها، فكل مكر شيطاني لا يمكننا الكشف عنه ما لم يكن عندنا أساس نسند إليه كل مستجد من المواقف التي تفاجئنا في المحيط أو في تعاملنا اليومي.

أما الرغبة في المجاهدة في سبيل الله: فهي بوابة القبول، والدخول إلى الحقائق الإلهية ذلك لما خاطبنا به تعالى في قوله الكريم: **(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)** [العنكبوت: 69] فالمجاهدات كالرياضات، والخلوات، ونوافل العبادات، والتسبيح بعلم، وغيرها من الأمور التي يتطوع العبد فيها للتقرب إلى الله هي التي تصل بالعبد إلى مرتبة الفناء، فالرغبة في هذه المجاهدات تعد أساسا مهما في الوصول لأن الرغبة هي استعداد قبلي يهيأ الإنسان بموجبه نفسه ويستعد للسفر إلى الحقيقة المطلقة، وإن هذا الاستعداد القبلي شرط من أهم شرائط السفر إلى الله تعالى.

أما الأعمال الصالحة كالصوم، والصلاة، والصدقة وغيرها التي تسعى النفس اللوامة ذات النور الأصفر أن تؤديها بحب، وتطوع فإنها كذلك تعد من الأساسيات التي تمتن من سبل الوصول بشكل صحيح وإن الفارق بين من يصلي ويصوم ويتصدق من قبل بلوغه مرتبة النفس اللوامة وبين من يصلي ويصوم ويتصدق وهو في مرتبة النفس اللوامة، فالثاني يجري هذه الأفعال بحب وتوجه مبني على الشوق باتجاه الحق تعالى، في حين أن الذي هو دون

هذه المرتبة فإن عبادته تجري بما يشبه إسقاط الفرض ليس إلا، فالعبادة هنا أتم وأصح من تلك التي يجريها العبد قبل بلوغه مرتبة النفس اللوامة، وشتان ما بين عبادة تقوم على الخوف والخشية والمحبة وبين أخرى تقوم على الوساوس وعدم المرابطة، إذ الفرق بين الطرفين كالفرق بين الأبيض والأسود، وبذلك جاء في الحديث الشريف بما معناه (إن الله تعالى لا يقبل الصلاة السوداء) وهي الصلاة الخالية من المرابطة مع الحق تعالى، أي: تلك الصلاة التي تكون خالية من الحضور والمراقبة القلبية.

إن السرور الذي يدركه العبد وهو في مرتبة النفس اللوامة نابع من خلال قبول الحق للعبد، ذلك لأن الحق تعالى يقبل على عبده ضعف إقبال العبد إلى الله تعالى، فحين يتوجه العبد طوعا للقاء الحق تعالى فإن الحق تعالى يقابل هذا الإقبال بتزيين الصدور بالمحبة في التوجه إليه تعالى، ويحبب إليه الإيمان من خلال المواهب الذوقية، والمعنوية التي تسهم بقدر كبير في مواصلة السير إلى المراتب التي تعلوها حتى يصل المرء مقامه المعلوم لدى الحق تعالى.

فالسرور في العمل هي الحلاوة الممنوحة من لدن الحق تعالى للعباد المخصوصين الذين لديهم الاستعداد لمواصلة السفر إلى جناب الحق تعالى، وبلوغ مرتبة الفناء فيه تعالى.

قال تعالى: (**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ**) [الحجرات: 7] فالسرور هي هبة إلهية للمحبوبين، وهو كذلك نسيم إلهي يحتضن المقبلين إليه تعالى.

إن ثلثين النسبة للأخضر جعلت له السيادة، والتمكين، والإرادة لمواصلة السير قدماً باتجاه الحق فأفنى بهذا السير أي هاجس يدعوهُ للخلف، وأحرقت نارهُ زرقة الإجرام فجعلته هباءً منثورا فلا وصف له، ولا أسم، ولا رسم، وكأنه لم يكن مذكوراً. إن دلالة اللون الفيروزي تصبح أكثر وضوحا حين تتزوق، وتتخلق القباب بها،حيث الألفة الجامعة التي يتآخى فيها حجم القبة،

وشكلها الهندسي إلى جانب الخطوط التي تتجه للأعلى لتلتقي في النهاية في نقطة واحدة فتشير إلى البدء، والمنتهى،إلى الخلق، والحق إلى الدنيا، والآخرة إلى الحقيقة الأزلية السامية، والمشار إليها بالعلو تلك النقطة التي حظيت هي الأخرى بجدية استبطان الصوفية لها، فتم لهم الكشف عن بعض ما اكتنزته من معانٍ، يقول الجيلي: ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(كل ما في الكتب المنزلة فهو في القرآن، وكل ما في القرآن فهو في الفاتحة، وكل ما في الفاتحة فهو في بسم الله الرحمن الرحيم، وورد كل ما في البسملة فهو في الباء وكل ما في الباء فهو في النقطة تحت الباء)**، والنقطة التي تحت الباء لها البدء في كل سورة من كتاب الله تعالى لأن الحرف مركب من النقطة ولا بد لكل سورةٍ من حرفٍ هو أولها ولكل حرفٍ نقطة هي أوله، فلزم من هذا أن النقطة أولُ كل سورة من كتاب الله تعالى.(الجيلي، عبد الكريم: 1340هجري، ص4-5)

فالنقطة هنا لها دلالة علم الخطاب الإلهي، واللون الفيروزي في القبة هو محل انجذاب النظر والروح معاً إليه، ليحيلنا بدوره إلى كتلة القبة ومن ثم إلى حدودها المتجهة إلى الأعلى والتي سرعان ما تلتقي نهاياتها في النقطة، لتشير النقطة بدورها إلى جهة السماء، وكأننا أمام مشهد يقدم لنا قراءة موجزةً لما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين العبد، والمعبود بتوسط العلم. فالدلالة هنا لا تخضع لقوانين العقل، وقياسا ته ذلك لأن من شأن العقل عدم الفلاح إلا في جس القشر بتوسط البصر أما الولوج في المعاني فذلك من اختصاص البصيرة وحدها بدافع يقظة القلب، وفاعلية الروح.(صالح، ضاري مظهر: 2001، ص74)

ذلك لأن المعنى الذي يحمله اللون له دلالة روحية، فالروح وحدها تنسجم، وتتذوق مدلول اللون لأن اللغة التي يحملها اللون تتسامى عن الحس، والإدراك الذهني، إن هذه القطيعة في عملية الإدراك مقصودة وقد جرت بفضل ومقتضى الرحمة الإلهية، ذلك من أجل أن يستمر البحث والتطلع للمعاني الروحية، والكشف عنها مع التخلي عن الوقوف مع المعاني الظاهرية الحسية، والاعتقاد بأنها نهايةِ المطاف.

فالكشف الصوفي من هذا الباب شكل لنا رصيداً معرفياً تصلح تأسيساته لأن تشيد عليها مفاهيم، ونظريات لا تقل أهميةً عن مفاهيم، ونظريات سادت،ولا زالت تسود ذهنية الحضارة والتحضر. الفيروزي أو الشذري هنا رسالة معلنة تفصح عن سيادة الحق على الباطل، وتستدعي على الدوام قوله تعالى: **(وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)** [الإسراء: 81] فالأزرق قد انمحت هويته بفضل هوية الأخضر الذي انجذب تجاه الجمال المطلق، تجاه جنة المشاهدة، وللفيروزي دلالة السمو، والرقي لأن فيه مسحة كبيرة من الرضا في السير، والسفر لطلب الحق تعالى، كما أن له دلالة الجذب، والانجذاب تجاه اللامتناهي، وهو يتطلع إلى رضا الحق تعالى، فإن لهذا الرضا علامة يمنحها الحق تعالى للعبد، وذلك بظهور سلطة الربوبية، واستحواذها على عرش القلب فيدك عند أول إشراقة لنور الربوبية، ويصعق كل موجود لآثار البشرية فلم يبق إلا الوجود الحق الذي لا تغيب شمسه، ولا تأفل.

والفيروزي له دلالة الجنة التي ينزلها الحق تعالى لعباد مخصوصين، وهي جنة الفردوس (جنة المعارف) قال تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً)** [الكهف: 107] فالمكاشفات، والمعارف، والعلوم الذوقية، والمشاهدات كل ذلك يشكل شكلا من أشكال الجنان التي ينزل بها تعالى للعباد الذين استحقوها في دار الدنيا، أما في دار الآخرة فلهم المزيد كما جاء في قوله تعالى: **(لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)** [ق: 35] فالمواهب الإلهية ليس لها نهاية في الدارين، والفيروزي هو عنوان لكل هذه الدلالات.

إن من الألوان التي تشكل تضادا مع اللون الفيروزي هو اللون الذهبي، واللون الذهبي يأخذ قيمته اللونية كما تستحق إذا تجاور مع اللون الفيروزي، كما أن اللون الفيروزي يأخذ قيمته اللونية إذا جاوره اللون الذهبي، وكلا اللونين لهما حضور في الجنة كما أن لهما حضور في دار الدنيا، وفي دار الدنيا لهما دلالات متضادة كذلك.

الحشيشي لغة

الحشيشُ: ما يبس من الكلإ، ولا يقال لــه رطبــا حــشيشٌ، والمحــشُّ: بفتحتين المكان الكثير الحشيش، والمِحَش: بكسر الميم ما يقطع به الحــشيش، وحش ًّ : الحشيش قطعه وبابه رد وأَحشه، طلبه وجمعه.(الرازي، محمد بــن أبي بكر: 1983، ص137-138)

يعرفه الباحث إجرائيا: هو اللون الذي يتولد من مــزج اللــونين الأزرق والأصفر بمعدل نسبتين للأصفر مع نسبة واحدة للأزرق، وله مــن الدلالــة التي تتوسط مابين النفس اللوامة والنفس الأمارة بالسوء.

ما من شك أن للــون الأخــضر ســلطة علــى الــنفس بكــل أشــكاله ودرجاته،تشعر النفس معه بالهدوء والراحة وتهجر قلقها، وكأنها تتفرغ مــن همومها المادية فتطالع في وقفةٍ لها صفحات الوجــدان ومــن ثــم تتــسلل وتُستدرج من حيث لا تدري إلى عالم الروح، تلك إطلالة الحق لها من خلال تجليات اللون الأخضر، ودرجاته، وتلك آثار تجليات الجمال في الوجود.

فالجمال هو عين الرحمة، والرعاية بوصفه يشكل منطقة جذب لمحبــي الجمال، وكلما اقترب المجذوب لجاذبه وجد جمالاً أرقى يلوح لــه بالــسعي والسفر، وحين يسعد المسافر بمطلوبه ناداه جمال آخر يغري بلــذةٍ روحيــةٍ أرقى وهكذا دون انتهاء.

واللون هو ذلك النداء الذي اتخذ على عاتقه عملية الإغواء والاستدراج، وله وجهين: وجه يدعو إلى عالم الغيب، وفضاءاته الواسعة المطلقة، ووجــه يدعو إلى العالم الدنيوي المحدود، والوقوف مع مراتــب الوجــود الماديــة، ولأرباب الذوق اختيار، ومعرفة مشاربهم،يقول تعــالى: (**اضْــرِبْ بِعَــصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُــلُّ أُنَــاسٍ مَــشْرَبَهُمْ كُلُــوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**) [البقرة: من الآية60].

اللون الأخضر من الألوان التي يمكن تقسيمها إلى مجموعتين: المجموعة الأولى تبدأ من الأخضر المصفر ثم تتدرج حتى تصل إلى الأخضر القــاتم، والمجموعة الثانية تتدرج من الأخضر القاتم حتى تصل إلى الأخضر المعتم، كما نصت عليه الآية الكريمة: **(مُدْهَامَّتَانِ)** [الــرحمن:64] وهــو الأخــضر الغامق الجميل وهو من ألوان الجنة ذكرهُ تعالى لأن جماله يليــق بأوصــاف الجنة، من هنا يتضح أن دلالات اللون الأخضر القاتم ودرجاته القاتمة التــي تصل إلى درجة السواد هي ذات صفات ومعان روحية، وهي مــن ألــوان الجنة بكل ما تمتلكه من خواص سواء كانت مادية أو روحية.

واللون الأخضر المصفر لون متولد من امتزاج اللون الأصفر مع اللون الأزرق بنسبة مقدارين من الأصفر إلى مقدار واحد مــن الأزرق، كمــا أن اللون الحشيشي قد يكون نتيجة امتزاج الأخضر واللون الأصفر، ومن أجــل الوقوف على دلالة اللون الأخضر المصفر، لابد لنا من معرفــة مــدلولات الأزرق، والأصفر لدى المتصوفة هذا إلى جانب مدلولات اللون الأخــضر، ومن ثم ليتسنى لنا معرفة مدلولات اللون الأخضر المصفر.

الأصفر: وهو نور مرتبة النفس اللوامة، تتصف هــذه المرتبــة بــاللوم والفكر والعجب والاعتراض على الخلق والريــاء الخفــي وحــب الــشهوة والرياسة ولقد سماها تعالى باللوامة لأنها تقلب صاحبها في أكثــر أحوالهــا، وتفعل ما يخالف أمر الله إلا أنها ترجع باللوم على ما وقع: قال تعــالى: **(لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ*وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)** [القيامة:1،2]

ويرى السنوسي:أن صاحب هذه المرتبة له ميل وتعلــق فــي مجاهــدة النفس، وموافقة الشرع، وله نزوع باتجاه عمل الخير والعمل الصالح من قيام الليل والصيام والصدقة وغير ذلك من أفعال البر لكن يدخل عليهــا العجــب وكذلك لرياء الخفي بأن يحب صاحبها أن يطلع الناس على ما هو عليه مــن الأعمال الصالحة.(الكسنزان:ب ت،ص 109 ــ110)

الأخضر: وهو نور مرتبة النفس الراضية، وصاحب هذه المرتبــة راضٍ بكل ما يقع في الكون، ليقينه بأن القدر خيره وشــره مــن الله تعــالى، ولا راد

لقضائه تعالى،ومن صفات هذه المرتبة: الزهد فيما سوى الله، والإخلاص والورع، والنسيان، والرضا بكل ما يقع في الوجود من غير اختلاج، ولا توجه لرفع المكروه منه، ولا اعتراض أصلاً لأنه مستغرق في شهود الجمال المطلق، وقلبه مشغول بعالم اللاهوت. (الكسنزان: نفس المصدر السابق، ص112)

الأزرق: كما تراها الصوفية، ذات دلالات (كالجهل والبخل والحرص والكبر والغضب والشره والشهوة والحسد وسوء الخلق والخوض فيما لا يعني من الكلام، وغيره، والاستهزاء والبغض والإيذاء باليد واللسان لان هذه النفس هي المشار إليها بالخسران) (الكسنزان،محمد عبد الكريم: المصدر السابق، ص 110)

إن مرتبة الحشيشي أو الأخضر المصفر إذا أخذت من خلال امتزاج اللونين الأزرق، والأصفر فإن دلالة هذا اللون تكون أقل من مرتبة النفس اللوامة، أي أن صاحب هذا اللون يسير بخطى واسعة باتجاه مرتبة النفس اللوامة التي أقسم بها تعالى بقوله: **(وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)** [القيامة: 2] ولقد أقسم بها تعالى لأن هذه المرتبة تعد أساسا للانطلاق للمراتب التي تليها، والتي يستنزل فيها العبد المعارف اللدنية من لدن الحق تعالى، فاللون الحشيشي يعد الانطلاقة العازمة على التحلي، والتخلي، وصولا إلى معرفة حقيقة التجلي، ومثلما يكاشفنا هذا اللون في الطبيعة عن حقيقة النبات وما سيؤول إليه من نتيجة مثمرة كذلك الحال مع مرتبة الحشيشي لدى السالك أو العازم على السفر إلى الحقيقة، فاللون الحشيشي له دلالة ما سيؤول إليه الحال من أمر عظيم أو لربما العكس إذا ضعفت عزيمة المرء فإنه سيؤول الأمر إلى الذبول والرجوع إلى زرقة الطبع والاحتجاب بالحجب الظلمانية، فإذا بلغ العبد مرتبة يكون فيه راضيا بسيره جادا في همته وليس له هم غير مواصلة الرحلة إلى الحي القيوم فإن ذلك يعني قد التحق بمرتبة اللون الأخضر وهي النفس الراضية.

فالحشيشي هنا أقرب ما يكون من إشارة لمسار، أي: دلالته دلالة مؤقتة، مثله بذلك مثل بعض الحشائش التي تظهر في فصل الربيع قسم منها ينتهي

بانتهاء فصل الربيع، والقسم الآخر يبقى لسنين طويلة يزهي بعطائه، ويكـــرم بثمره، فأما أن ينتهي بالذبول وأما أن يستمر فيكون شـــجرة طيبـــة كثيـــرة العطاء، فالحشيشي ليس له دلالة المقامات الكبيرة كما هو الحال مـــع دلالات الألوان الأخرى الأساسية كالأخضر، والأحمر، والأصفر، والأبيض.

أما إذا أخذنا دلالة اللون الحشيشي بالرجوع إلى أن أصل هذا اللون قـــد جاء من امتزاج اللون الأخضر والأصفر بكمية متساوية، فإنه يكون ذا دلالة الشروع إلى الرضا، أي: التوجه السليم باتجاه تحصيل مرتبة النفس الراضية، فيكون بناءا على هذا اللون الحشيشي يهدف إلى العزم الأكيد لبلـــوغ مرتبـــة النفس الراضية التي تطمح إلى استكمال فضائلها وصولا إلى مراتب الكمـــال من خلال الفناء في الله تعالى.

وبما أن صاحب المرتبة الخضراء (النفس الراضية) راضٍ بكل ما يقـــع في الكون، ليقينه بأن القدر خيره، وشره من الله تعالى فإن صـــاحب مرتبـــة اللون الحشيشي، أو الأخضر المصفر تظهر لديه بوادر الرضا، والقناعة في كل شيء ذلك لإيمانه بأنه لا موجود إلا الحق تعالى، وما يصدر عنه حـــق، قال تعالى: **(رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)** [آل عمران: 191] فطالما إن الخلق لم يجري بالباطل بل جرى بالحق فإنـــه حـــق بكـــل تفاصيله، فمن خلال هذه الحقيقة يحصل الرضا في كل ما يقع فـــي الكـــون لصاحب هذه المرتبة.

فالرضا بكل ما يقع في الوجود من غير اختلاج، ولا توجه لرفع المكروه منه، ولا اعتراض أصلاً لأنه مستغرق في شهود الجمال المطلق، ذلـــك لأن الحق تعالى خلق الكون على صورته، وهو جميل ويحـــب الجمـــال، فكـــل مخلوق جميل لأنه يحمل تجلي من تجليات الجمال، وهو في الوقـــت نفســه يحب وينزع إلى الجمال، وطالما أن الحقيقة الكونية على هـــذا الحـــال فـــلا انزعاج منه وما يحصل فيه هكذا هي مشاهدة صاحب المرتبة الراضية، أمـــا صاحب مرتبة اللون الأخضر المصفر فإنه بالتأكيد له بوادر من هذه الرؤيـــة التي لا ترى في مراتب الوجود شيئا من القبح، كما أن من صفات صـــاحب

الحشيشي قد انشغل توا بما انكشف له من أن العالم بما فيه ما هو إلا تجلي الحق باسمه الظاهر والباطن والأول والآخر، أي: لا يزال صاحب هذا اللون (الأخضر المصفر) يسير في طريق معرفة هذه الحقيقة التي ستصل به في نهاية المطاف بجمال الحق المطلق.

وكذلك تكون دلالات مرتبة اللون الأخضر المصفر، ترك اللوم بحصول بوادر التمكين من ضبط النفس، وإلزامها طريق الحق، وتنور الفكر بنور المعارف، والمعاني الروحية، وضمور تكرار العجب لما تحمله نسائم الحق من معارف ورتب، واستقرارها في قلب من توجه لعالم اللاهوت، ورغب، فإذا تمكن الحال واستقر به لطيف الخاطر، والمقال، وذاق، وعرف، فلا اعتراض يكون لديه على الخلق، لأن النظر قد تحول عنه فلا يرى سوى الحق، وحين يكون المرء بهذا الوصف، فلا رياء خفي، ولا شهوة، ولا حبٍ للرياسة إلا رياسة النفس بغية إرغامها في طلب الحق تعالى.

إذا كانت مرتبة الأصفر تقضي بالميل، والرغبة في المجاهدة، فإن مرتبة الأخضر المصفر تتبنى المجاهدة من اجل إصلاح الذات، وتتخذ من خطى الشرع منهجا أوليا لها، وأساسا مهما لتشيد عليه بناء الحقيقة، من غير أن يخالط هذا التوجه شيء من الرياء، أو العجب، كما أن مرتبة الأخضر المصفر تمثل اجتهاد، وجدية صاحب هذه المرتبة في إزاحة بقية آثار مرتبة النفس الأمارة بالسوء بشكل كبير، ولم يبق فيها إلا بعض الميول المشروعة البسيطة إلى جهة عالم الخلق.

وإذا كانت مرتبة الأخضر (النفس الراضية) لها من الصفات، الزهد فيما سوى الله تعالى، فإن مرتبة (الأخضر المصفر) لم تزل في طريقها إلى الزهد الذي يفضي في نهاية الأمر إلى التخلي الكامل عن التعلقات بالسوى، فالزهد هنا يمثل بداية الشروع، وهذا يعني أنه في طور المجاهدة، وعندما تتضح مصداقية المجاهدة من خلال العزم على المضي بها قدما ،يقابلها الحق بما تستحق من معارف لدنية وعلوم ربانية بحسب قابليتها واستعدادها، يقول

تعالى: **(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)** [العنكبوت:69] فالهداية هنا جاءت حاصل تحصيل جهاد العبد، إذ كلما كانت المجاهدة أعلى وأتم ودائمة، كانت الهداية الإلهية للعبد بما يتناسب وفاعليته وعزمه فينال من الترجيح والتفضيل بما يستحق.

قال تعالى:

(فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً) [النساء: من الآية 95]

وإذا كان مقام الإخلاص أحد عناوين النفس الراضية ذات النور الأخضر، فإن السير على طريق التخلق بهذا المقام هو من أهداف مرتبة الأخضر المصفر، ولعل من الأمور الطبيعية التي تستحق التأمل،أن أغلب النباتات حين تظهر للوجود في بداية نشأتها، تظهر في لون (الأخضر المصفر) وحين تبلغ مدى من النضج فإن لونها يتجه إلى الأخضر الغامق وهكذا يبلغ أعلى مدى من الخضار فيؤدي مهامه على أتم وجه ثم يبدأ بالانتقال تدريجياً إلى الأصفر ثم يموت، وفي هذا الصدد يقول تعالى: **(ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ)** [الزمر: من الآية21] من هنا يتضح أن عملية الاكتمال في مرتبة الأخضر المصفر تتم حين يبلغ مرتبة الأخضر أما مرتبة الأصفر فهي مرحلة برزخية لها وجهين وجه يقابل مرتبة النفس الأمارة بالسوء ذات النور الأزرق، ووجه يقابل النفس الملهمة صعوداً إلى الكاملة، والأصفر له دلالة الموت بكلا الوجهين فهو حين يستقر مع مرتبة النفس الأمارة بالسوء ويحجب بها فهو من الناحية الاعتبارية موت لأن الجهل بالمعاني الروحية السامية والمعارف الإلهية هو عين الموت، كما أن مرتبة الأصفر إذا اتجهت ومالت إلى جهة المراتب العلا، كالملهمة، والراضية فإن هذا يعني الموت كذلك أي:إماتة النفس عن أهوائها، ولذاتها، وحظوظها الدنيوية، قال تعالى: **(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)** [الأنفال:

من الآية24] فهم قبل الاستجابة أموات، والحياة الحقيقية تبدأ بعد الاستجابة لله وللرسول، وحين يستجيب العبد فإنه بهذه الاستجابة يكون قد أمات رغبات نفسه المستجيبة لغير الله تعالى، فلأصفر هنا دلالة الموت، إلى ترى كيف يصبح لون الإنسان حين يفارق الحيات فإنه يكون ميالاً للأصفر.

لما كان الإخلاص صفة من صفات الأخضر وإن مختبر الإخلاص هو الورع، إذ لولا الورع عند المحارم لما ثبت الإخلاص، وإن الورع كذلك هو صفة من صفات الأخضر، فإن دلالة الأخضر المصفر هو محاولة إرغام النفس على عدم الشروع في المحارم، ليست الظاهرة فحسب بل الباطنة كذلك كالرياء، والحسد، والنفاق، والبخل، والحقد، والغضب، وما شابه ذلك.

فالورع منهج كبير شرعه الأخضر، ومرتبة الأخضر المصفر طالب يسعى إلى تطبيق المنهج بكل دقة ، متخذا من أستاذه الأخضر الأسوة الحسنة في السلوك.

الفعل في السلوك المادي له ما يقابله من رد الفعل لأن طبيعة المادة خلقت على هذا النحو، أما في الحياة الروحية، أقصد حين تطغى الجوانب الروحية على المادية في الإنسان فإن امتصاص الفعل يصبح سمة من سمات الإنسان، ولم يعد يهتم بموضوع رد الفعل لترفعه عن هذا المستوى بسبب رجاحة فهمه، وعلمه، وفي الأخضر تترشح كفة الجوانب الروحية على غيرها فلم يعد هناك اهتمام أو مبالاة بالدوافع المنفعلة التي تظهر من الآخر، كما أن صفة النسيان تصبح من صفات صاحب هذه المرتبة فلم تعد تبقى لديه أحقاد مبيته لانشغاله بما يغنيه كونه مستغرق، ومأخوذا في جمال الحق وما ينبجس عن هذا الانشغال من معاني روحية ومعارف إلهية، أما في مرتبة الأخضر المصفر فإن الحال يختلف بعض الشيء، فصاحب هذا المقام في دور الصيرورة، والإعداد ليكون مؤهلاً لمرتبة الأخضر، فهو تماماً كالتلميذ الذي يحتاج لتخرجه أو إكمال دراسته اجتياز سلسلة من المراحل لبلوغ هدفه، فإن الصفات التي اتسمت بها مرتبة الأخضر هي هدف مرتبة الأخضر المصفر، وبذلك فأن السعي باتجاه التخلق بها جار.

الحشيشي كمرتبة كلما اقترب من الأخضر كلما كان تمكينه وتـــصريفه للأمور أعظم وأدق وقربه من الحق تعالى أكثر، وهكذا كلما ازداد خـــضارا كان أقرب إلى أن يصبح النور الأخضر مائلا إلى السواد فتكون دلالته دلالة النفس المرضية، فإذا أصبح كذلك كان مؤهلا للتماهي فـــي نـــور الربوبيـــة فيتغير النور تبعا لحال الكمال الذي يصله المسافر في طريق الحقيقـــة حتـــى تنتهي لديه اللونية الوصفية أي لا يكون له لون نوري ذلك لرجوعه إلى مـــا كان عليه قبل أن يكون في عالم الأشباح، أي: بمستوى النفخة التـــي نفخهـــا الحق تعالى في الجسد الآدمي فإذا أصبح كذلك زال عنه صفة اللون ورجـــع نورا صمدانيا متماهي في التوحيد الذاتي لا هوية له غير هوية الحق تعـــالى فتنتهي عند ذاك الأثنينية أي: (أنا والحق) ولم يبق غير الحق تعالى على مـــا كان عليه نور سرمدي أزلي.

فالحشيشي هنا هو أشبه ما يكون من مرحلة مهمة باتجـــاه الكمـــال، لا ينقصه إلا العزم المستمر في مواصلة السير حتى يبلغ النهايات ليخرج مـــن تلوين الفعل والاسم ويدخل في تلوين الذات فيكون عندئذٍ كل يوم هـــو فـــي شأن، كما جاء في قوله تعالى: (**يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَـــوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**) [الرحمن: 29] أي:كل لحظة هو في شأن في الفعـــل والقـــول والحال، له وجود بشري وروح ربانية، فتكون جميع العوالم عوالمه ومتصل بجميع المراتب، فهو وحدة في كثرة وكثرة في وحدة يشهد العوالم ببـــصيرة الحق تعالى التي لا يحجبها حجاب.

الوردي لغة

الوَردُ: الذي يشم، الواحدة وردة، وقوله تعالى: **(فَإِذَا انـشَقَّتِ الـسَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)** [الرحمن: 37] قال ابن عرفة: سمعت أحمد بن يحيى يقول: هي المهرة تنقلب حمراء بعد أن كانت صفراء، وقال الأزهري: أي فصارت وَردَةً أي: كلون الورد تتلون ألوانا يوم الفزع الأكبر، كما تتلون الدهان المختلفة، وهو جمع دُهن. قيل: إذا احمرت السماء كالورد قامت القيامة، وعشية وردة: إذا احمر أفقها عند غروب الشمس وكذلك طلوعها، وذلك علامة الجدب، والورد خلاف الصدر، والوِرد أيضا: الوُرَّاد: وهم الذين يردون الماء. وقوله تعالى: **(وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)** [مريم: 71] قال ابن عرفة: الورود عند العرب موافاة المكان قبل دخوله، وقد يكون الورود دخولا، ويبين ذلك حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: أنه ليس بدخول، ويؤيد ذلك القرآن، ألا تسمع قوله: **(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ*لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا)** [الأنبياء:101- 102].(الفيرزابادي، مجد الدين: ب ت، ج5، ص، 196-197)

الوردي: يعرفه الباحث إجرائيا: هو لون له دلالة تتوسط ما بين النفس الملهمة، والنفس المطمئنة، يتولد هذا اللون من مزج اللون الأحمر واللون الأبيض.

واللون الوردي، كباقي الألوان له من الدرجات(التونات) ما لا حصر لها ولا عد، وإن أي إعداد لأي درجة أو (تون) يتطلب ذلك إضافة مقدار من اللون الأبيض إلى اللون الأحمر، فينتج عند المزج، درجة من درجات اللون الوردي، وهكذا إلى ما لانهاية لها من الدرجات منا ما يميزها النظر العادي ومنها ما يتعذر على البصر تمييزها ومن اجل الوقوف على دلالات اللون الوردي لابد لنا أولاً من الوقوف على دلالات اللونين الأحمر والأبيض، ذلك لأن الوليد له صفات من:

اللون الأحمر: له من الدلالة وكما تراه الصوفية: السخاوة، والقناعة، والعلم، والتواضع، والتوبة، والصبر، وتحمل الأذى، وهو لون مرتبة (النفس الملهمة).

واللون الأبيض: له من الدلالة كما تراه الصوفية:الجود، والتوكل،والحكم، والعبادة، والشكر، والرضا، وهو لون مرتبة (النفس المطمئنة). أما اللون الوردي وبناءاً على معطيات ودلالات اللونين الأحمر والأبيض فإن له دلالة التوسط والبرزخية من الصفات، فالسخاوة التي هي إحدى أوصاف مرتبة(النفس اللوامة) الأحمر، تتصاعد في فاعليتها لتصبح أكثر سخاءاً حين تصل مرتبة الوردي، ثم ترتقي لتصل إلى مرتبة الجود فتكون بذلك وصف لمرتبة (النفس المطمئنة) وذلك حين يتماهى الوردي في الأبيض وعندما تكون القناعة من صفات مرتبة (النفس الملهمة) ذات النور الأحمر، وأن للقناعة مديات وأبعاد لا يمكن حصرها أو حدها ؛ ذلك لأن لها قابلية الإطلاق بحسب مقتضى من تخلق بصفات الحق تعالى، ومعلوم أن لأسماء الحق تعالى قابلية الإطلاق، فالصبور مثلا،هي صفة من الصفات التي تقترب من حافة القناعة، ذلك لأن الصبر إذا استند إلى المعرفة فإن الصابر يدرك تماما أن لصبره فرج باتجاه الجمال المطلق فإنه يجد في صبره عذوبة لا تجعله يسأم من الصبر مهما طال مكوثه أو بقائه، وهذا يعني أنه راضٍ بما يأتي من جهة الحق تعالى، أي أنه قنع بحاله، ولم تجد لديه رائحة الاعتراض، فتزداد القناعة رسوخاً وغنىً كلما ازداد المرء علماً ومعرفةً ؛ ذلك لأن من شأن المعرفة أن تجيب على أي إشكال قد يهز القناعة، أو يزلزل تواجدها، وهكذا فإن المعرفة غذاء القناعة، وديمومتها، حتى تصل إلى مستوى الرضا بكل شيء تبعا للإحاطة المعرفية بكل شيء المنبجسة من الفناء في الحق تعالى.فاللون الأحمر، ومن خلال هذا المعنى له خاصية، ودلالة القناعة المتواجدة في اللون الوردي، فحمرة الوردي ناجمة عن تواجد القناعة بأعلى مستوى يمكن توصف به النفس الملهمة، بمعنى آخر إن ترقي الروح من مستوى النفس الملهمة باتجاه النفس المطمئنة يتطلب منها زيادة التخلق بالأخلاق الإلهية، ومن جملة هذه الزيادات أن تكون القناعة قد شملتها

الزيادة كذلك حتى وصلت بها من الاقتراب من حافة مقام النفس المطمئنة فذاقت من الاطمئنان ما أسهم في زيادة الطلب، والميل إلى جهة الحق تعالى، فالأبيض الذي أخذت منه حمرة الملهمة هو بمثابة المذاقات التي نالها العبد خلال ترقيه في أفق المرتبة التي تعلو مرتبته، فالوردي من خلال هذا الفهم هو أقرب ما يكون من المذاقات الروحية للنفس الملهمة أثناء سيرها إلى مرتبة المطمئنة، فهو لون قد خمد فيه التطلع السريع لما بعد الاطمئنان، ذلك لحصول النفس إلى مرادها المعرفي الذي يقابل تماما شوطها التي قطعته في عملية التخلي، أي أن التجلي الحاصل لها، خلق لديها قناعة بالوقوف مع جمال المعطيات الروحية الموهوبة من خزانة الجود الإلهي الذي خصص لهذه المرتبة.

إن النفس المطمئنة تدعو صاحبها دائما إلى الرضا، والقناعة بما أتاها من الحق تعالى، وإن لون النفس المطمئنة كما يراه أهل الكشف هو اللون الأبيض، وإن اللون الوردي فيه نسبة غير قليلة من اللون الأبيض هذا يعني أن القناعة التي يحصل عليها السالك المستمر في سيره باتجاه النفس المطمئنة ستزيد قناعته خلال، وصوله إلى مشارف مرتبة النفس المطمئنة.

اللون الوردي هنا له دلالة ارتقاء القناعة الروحية التي تقبل وجهي الخير والشر بكل أشكاله دونما اعتراض أو رفض لإدراكها أن القدر الإلهي يجري بهذه الثنائية وأن من آداب الحضرة الإلهية أن يتقبل العبد وبقناعة مجريات القدر خيره وشره برحابة صدر دون ضجرٍ أو مللٍ.

كما أن اللون الوردي يحيلنا لدلالة أخرى تضعنا ما بين العلم والحكم، فالنفس الملهمة صيرها الحق عالمة من خلال الوارد الإلهي، وجعل لها فرقاناً ترى من خلاله، وتميز ما بين الفجور والتقوى، واستناداً إلى هذه المعطيات فإن صاحب هذه المرتبة يتخلى عن كل أشكال الفجور وأشكاله ليتبنى علم التقوى، وعندما يصل إلى التمكين، يجعله الحال متحكماً في نفسه، ومتصرفاً بغيره من مراتب الوجود، فتطمئن نفسه لهذا وتدرك قربها من الحق، فيتحول لونها تبعاً لذلك من الوردي إلى الأبيض، والعلم هنا ليس بحدوده النظرية فحسب بل العملية كذلك، والحكمة.

إن مرتبة اللون الوردي، هي حضرة جمع الضدين الصاعد والهابط، ويراد بالهابط: أي: التنزلات، والفيوضات الربانية التي جاءت من حضرة الاعتناء والاجتباء، هو تنزل وليس نزول، تنزل من خزائن الجود الإلهي وبحسب مقتضيات الرحمة، وإن التوبة التي هي صفة من صفات الأحمر (النفس الملهمة) يتطلب منها برهنة على صدقها في التوجه، وعن تخليها عن الأغيار، وذلك بالسير، والمواصلة في السفر إلى الحقيقة، أي الفناء في الحق، وهذا ما يؤكد سلامة نيتها قولاً، وعملاً، كما يجب أن تظهر عليها آثار الإيمان، وآثار الإيمان تظهر من خلال الأعمال الصالحة **(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)** [الفرقان:70] ثم يأتي الاعتناء الإلهي من حضرة الجود بتبديل السيئات حسنات، والتبديل هنا عين الترقي، والوصول إلى المراتب العلا، فتصل مرتبة الأحمر (النفس الملهمة) إلى مرتبة الوردي ومن ثم إلى مرتبة الأبيض (النفس المطمئنة).

الوردي: هو العلامة التي تتمناها مرتبة النفس الملهمة في عزمها، وسيرها من اجل الوصول إلى مرتبة النفس المطمئنة، فالوردي هنا علامة، وبشارة الاطمئنان للنفس الملهمة (الأحمر)على قبول العمل، والوصول بنفس الوقت.

قال تعالى:

(فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) [الرحمن: 37]

يرى ابن عربي في فتوحاته: أن جوهر السماء هو جوهر الدخان وتبدلت عليه الصور، فالجوهر الذي قبل صورة الدخان هو الذي قبل صورة السماء كما قبل جوهر الطين، والحجر صورة البيت فإذا تهدم البيت ويبس الطين ذهبت صورة البيت والطين وبقي عين الجوهر، وكذلك العالم كله بالجوهر واحد وبالصور يختلف فاعلم ذلك، فيكون الاستثناء في حق أهل النار لمدة عذابهم، ويكون الاستثناء في حق أهل الجنة على معنى: **(إلا أن يشاء ربك)** وقد شاء أن لا يخرجهم فهم لا يخرجون فإن الله ما شاء ذلك

بقوله (عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ) [هود: 108] ولم يقل في أهل النار عذابا غير مجذوذ فافهم. فإن الخبر الصحيح المتواتر قد ورد فقال تعالى: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ) [إبراهيم: 48] ووصف السماء بأنها تصير كالدهان ووصفها بالانشقاق وأنها تمور وقال تعالى: (فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) أي مثل الدهن الأحمر في اللون والسيلان، فهذا كله أخبار عن ذهاب الصورة لا ذهاب الجوهر. (ابن عربي: 2006، مجلد4، ص474–475)

ويرى القشيري في تأويله لهذه الآية: (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) ينفك بعضها عن بعض وتصير في لون الورد الأحمر، ويقال: بها الفرش الموردة كالدهان وهو جمع دهن، أي كدهن الزيت وهو دردي الزيت، ويقال: كما أن الوردة يتلون لونها، إذ تكون في الربيع إلى الصفرة، فإذا اشتدت الوردة كانت حمراء، وبعد ذلك إلى الغبرة ــ فكذلك حال السماء تتلون من وصف إلى وصف في القيامة.(القشيري: 1999، ج6، ص77–78)

في حين يرى البروسوي في تأويله للآية: (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) أي: انصدعت يوم القيامة وانفك بعضها من بعض لقيام الساعة أو انفرجت فصارت أبوابا لنزول الملائكة كقوله تعالى: (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً) [الفرقان: 25] وفي الخبر نار جهنم إذا كشف عنها (فَكَانَتْ وَرْدَةً) كوردة حمراء في اللون وهي الزهرة المعروفة التي تشم والغالب على الوردة الحمرة، وقيل في هذا المعنى:

ولو كنت ورداً لونه لعشقتني ولكن ربي شانني بسواديا

وقيل: لأن أصل لون السماء الحمرة وإنما ترى زرقاء للبعد والحوائل ولأن لون النار إذا خالط الأزرق كساه حمرة (كالدهان) خبر ثاني لكانت أي: كدهن الزيت فكانت حمرة في حمرة الوردة وفي جريان الدهن أي: تذوب وتجري كذوبان الدهن وجريه فتصير حمراء من حرارة جهنم وتصير مثل الدهن في رقته وذوبانه وهو إما جمع دهن أو اسم لما يدهن به كالإدام لما يؤتدم به وجواب إذا محذوف أي: يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به دائرة المقال، قال سعدي المفتي ناصب إذا محذوف أي: كان ما كان من

الأمر الهائل الذي لا يحيط به نطاق العبارة أو رأيت أمرا عظيما هائلا وبهذا الاعتبار تتسبب هذه الجملة عما قبلها لأن إرسال الشواظ يكون سببا لحدوث الأمر الهائل أو رؤيته في ذلك الوقت. (البروسوي، إسماعيل حقـــي: 2003، ج9، ص300)

أما الحسني فيرى في تأويله للآية: **(فَإِذَا انشَقَّتِ الـسَّمَاء فَكَانَـــتْ وَرْدَةً كالدهان)** أي: انصدعت يوم القيامة **(فكانت وردة)** فــصارت كلــون الــورد الأحمر **(كالدهان)** كدهن الزيت، كما قال: **(كالمهل)** وهو دُردي الزيت، وهو جمع دهن، وقيل: الدهان: الأديم الأحمر. وجواب **(إذا)** محذوف، أي: يكــون من الأهوال والأحوال ما لا به دائرة المقـــال.، وهــذا الانــشقاق يحــصل للسماوات والناس في المحشر. (الحسني، ابن عجيبة: 2005، ج7، ص275)

وفي تأويل آخر يرى فيه ابن عربي: **(فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء)** أي: الــسماء الدنيا وهي النفس الحيوانية، وانشقاقها انفلاقها عن الروح عنــد زهوقــه إذ الروح الإنساني نسبته إلى النفس الحيوانية كنسبته إلى البدن، فكما أن حيـــاة البدن بالنفس فحياتها بالروح فتنشق عنه عند زهوقه بمفارقة البــدن **(فَكَانَــتْ وَرْدَةً)** أي: حمراء لأن لونها متوسط بين لون الروح المجــرد وبــين لــون البدن، ولون الروح أبيض لنوريته وإدراكه اللذات ولون البدن أسود لظلمتــه وعدم بال لذات، والمتوسط بين الأبيض والأسود هو الأحمر، وإنما وصــفها في سورة البقرة بالصفرة وها هنا بالحمرة لأن هناك وقت الحيـــاة والــصفاء وغلبة النورية عليها وطراوة الاستعداد وها هنا وقت الممات والتكدر وغلبـــة الظلمة عليها وزوال الاستعداد **(كالدهان)** كدهن الزيت فـــي لونـــه ولطافتـــه وذوبانه لصيرورتها إلى الفناء والزوال. (ابن عربي: 2001،ج2، ص304)

ويبدو أن ابن عربي يريد بالأحمر هو اللون الوردي الذي غالبا ما يميل إلى الأحمر، ويرى أن له الوسطية ما بين الأبيض، والأسود، ذلك من كــون الأبيض هو أصل الألوان جميعها، واللون الأسود هو كذلك ينجم عن مــزج جميع الألوان التي تتولد من تحليل اللون الأبيض، فالأسود في حقيقتـــه هـــو

عين اللون الأبيض، إذا ما نظرنا إلى حقيقة أصله، وإن اللون الأحمر له أهمية كبيرة في تشكيل هويته كلون أسود، وبذلك يعتبر اللون الأحمر من الألوان الوسطية، لأنه يقع ما بين اللون الأحمر ذا الدلالة الإلهامية، وبين الأبيض ذو الدلالة المطمئنة، وكأنه ترجمة عن جمال يعبر عن حال الاطمئنان الذي يرتكز عن استمرارية تدفق الإلهام، والفيوضات الربانية .

والوردي هنا هو بمثابة المجال الذي ترد عليه الواردات الربانية، والإشراقات النورانية، والعلوم اللدنية التي من شأنها أن ترتقي بصاحب هذا اللون إلى حضرة أو مقام الاطمئنان، أي: أن اللون الوردي له دلالة الانجذاب نحو اللامتناهي، وبداية الافتراق عن الاحتجاب، والسير مع المتناهي، أو بالأحرى هو البرزخية، أو الباب الذي يلتقي عنده العالم المادي الحسي، وعالم الملكوت تمهيدا لمواصلة السفر إلى العالم اللامتناهي، أو ما يعبر عنه بالجمال المطلق.

ويرى نجم الدين كبري أن دلالة الخدود الوردية التي وردت في شعره (ذوات الخدود التي تشبه الشقائق وأصلهن من شجل، يا رب من أية طينة عجينتهم الطاهرة ؟ إنهن يسلبن القلب، ثم يتوجهن إلى الروح. وهذا بلاء، وليس للشكوى منهن سبيل.) فيشير بذوات الخدود الوردية تجليات الجمال الإلهي في الكون، تلك التجليات التي تذهب بعقول المحققين من الأولياء، المندهشين تحت سطوة الجمال الأزلي ن فلا يملكون اعتراضا أو شكوى، وأخيرا، يرمز للواردات الإلهية بحبة الشعير، ويقول بوجوب التضحية في سبيل تلك الحبة بالدنيا وما فيها. (كبري، نجم الدين:1993، ص106)

الأسود لغةً

(سودهُ قومه بالتشديد، وهو أسود من فلان، أي: أجل منه، وتقول سيد قومه إذا أردت الحال، فأن أردت الاستقبال قلت سائدُ قومه) (الرازي: 1981،ص 93)

ويرى الراغب: (السواد: اللون المضاد للبياض، يقال أسود وأسوادٌ، قال: (**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**) [آل عمران: 106] فابيضاض الوجوه عبارة عن المسرة، واسودادُها عبارةٌ عن المساءَةِ، ونحوه: (**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ**) [النحل: 58] وحمل بعضهم الابيضاض والاسوداد على المحسوس، والأول أولى، لأن ذلك حاصل لهم سّودا كانوا في الدنيا أو بيضا، وعلى ذلك دل قوله في البياض: (**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ**) [القيامة: 22]، ويعبر بالسواد عن الشخص المرئي من بعيد، وعن سواد العين، قال بعضهم: لا يفارق سوادي سواده، أي: عيني شخصه، ويعبر به عن الجماعة الكثيرة، نحو قولهم: (عليكم بالسواد الأعظم) والسيد: المتولي للسواد، أي: الجماعة الكثيرة، وينسب إلى ذلك فيقال: سيد القوم، ولا يقال سيد الثوب، وسيد الفرس، ويقال: ساد القوم يسودهم، ولما كان من شرط المتولي للجماعة أن يكون مهذب النفس، قيل لكل من كان فاضلا في نفسه سيدٌ. وعلى ذلك قوله: (**وَسَيِّداً وَحَصُوراً**) [آل عمران: 39]) (الأصفهاني، الراغب: 1437، ص432)

يعرفه الباحث إجرائيا: اللون الأسود: هو من الألوان التي تحيلنا إلى دلالة فاعلها وهو على قسمين، صبغة ونور، فالصبغة لها دلالة، والنور الأسود له دلالة قرآنية، وصوفية، ذلك لأن للألوان معنى روحي وبحسب المرتبة الروحية.

أهتم العرب في كيمياء اللون وقد قسموا الألوان إلى قسمين منها من هو بسيط ، كاللون الأبيض والأسود وما عدا هذين اللونين فمركب منهما على قدر أجزائها.(فارس:1952، ص 38)

وجعلوا للون الأسود دلائل، ومعاني ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بحياتهم الاجتماعية، وبالتأكيد فإن استعاراتهم الرمزية لم تكن لتأتي من قبيل الصدفة، أو مبتورة الجذور، بل تستند بشكلٍ أو بآخر إلى الطبيعة ومعطياتها، كما أنها تستند من جانبٍ آخر لانفعالات النفس، والعقائد الدينية.

ويبدو أن العرب قد استعارت معنى السيادة من سيادة اللون الأسود على باقي الألوان، ذلك لعدم ظهور هوية أي لون إذا مازج، واختلط مع اللون الأسود، إلا اللون الأبيض فإنه يغير من درجة السواد إلى درجات الكحلي، والرصاصي بحسب كمية اللون الأبيض المضاف إلى الأسود، فتنتفي هوية كلا الطرفين،فلم يعد هناك أسود، ولا ابيض.

واللون الأسود إذا ما نظرنا إليه حقيقةً فإنه حاصل تحصيل مزج الألوان الأساسية (الأصفر والأزرق والأحمر) كذلك الحال مع تحليل الضوء الأبيض، فإنه يتحلل إلى سبعة ألوان تسمى ألوان الطيف الشمسي، ثلاثة ألوان رئيسية (الأزرق والأحمر والأصفر) وما ينجم عن تجاورهما من الألوان الوسيطة كالأخضر والبرتقالي والبنفسجي، فإذا اجتمعت هذه الألوان المضيئة بعضها فوق بعض تكوَّن اللون الأسود.

قال تعالى:

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) [آل عمران:106]

وقوله تعالى:

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ) [الزمر:60]

وقوله تعالى:

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ) [النحل:58]

ففي الآية الأولى:

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) تدل هذه الثنائية على يوم الفصل، وهو اليوم الذي يجرى فيه الحساب، وهو يوم (السيماء) إذا صح التعبير، ذلك لظهور خفايا الأعمال على ظاهر الإنسان ويقصد بخفايا الأمور هي تلك الأعمال التي كانت غير مرئية بالنسبة للخلق، غير أن الحق والرسول وبعض المؤمنين قد اطلعوا عليها كما جاء في قوله تعالى: **(وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)** [التوبة: 105]، وبما أن الملأ سوف يطلعون على أعمال الكافرين فإن ذلك مدعاة إلى الخزي الذي تظهر سماته على الوجوه.

(فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) ويبدو أن هذه السمة تظهر على من يكفر بعد الإيمان، ليتميز بها عن المؤمن الذي تظهر عليه سمة البياض تكريما له أمام الخلق.

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ) ومن ثم يضاف صنف آخر لهم السمة نفسها وهم الذين يكذبون على الله، أي المراد بهم هم الذين يكذبون على الرسول الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم أو من ينيبه، وقد يكون لهذا السواد ميزة أو سمة يتميز بها عن سمة الكافرين، فيعرف الملأ أن هؤلاء، من الذين الكافرين من خلال ظهور صبغة سوداء تميزهم عن الذين يكذبون على الله.

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ) دلالة السواد هنا للحزن الدفين العميق الذي لم يجد له منفذا ليخرج إلى المحيط، بدلالة الوصف من كونه (كظيم) والكظيم هو الحزن العميق الذي لا يستطيع صاحبه الجهر به، أي: أن هناك سيادة للحزن في داخل المرء.

يرى البروسوي: في تأويله للآية **(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوه)** أن

اسوداد الوجه كناية عن كمون الخوف فتبدل لونه وتبدلت صورته وقد تكون هذه الصفة حقيقة يوسم بها أهل الباطل.(البروسوي: 1990، ص 264)

دلالة اللون الأسود هنا للخوف وسمة من سمات أهل الباطل ،أما بخصوص ما ذهب إليه البروسوي من أنها كناية عن كمون الخوف فإن الباحث لا يرى في هذا كنايةً، لتأكيد خطاب الحق تعالى بأنها سمة الكافرين في الكثير من الآيات، كما ويعتقد الباحث أن اللون الأسود الذي تصطبغ به وجوه الكافرين هو ليس من جنس النور بل صبغة حقيقية متأصلة في الوجه يظهرها الحق تعالى عليهم من باب الخزي، لاحتجابهم بالسوى عن الحق.

ويرى السلمي في تأويله لقوله تعالى: **(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ)** أي: أشد الناس عذابا يوم القيامة من ادعى في الله ما لم يكن له ذلك وأظهر من أحواله ما هو خال عنها، ويقال هم الذين ادعوا محبة الله ولم يكونوا فيها صادقين.(السلمي، أبي عبد الرحمن: 2001،ج2، ص202)

ويضيف السلمي في تأويله للآية: **(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوه)** فيرى: تبيض وجوه بنظرهم إلى مولاهم، وتسود وجوه باحتجابه، ويقال: يوم تبيض وجوه بالشهادة وتسود وجوه بالفرار من الزحف، ويقال: تبيض وجوه بالقناعة وتسود وجوه بالطمع. (السلمي: المصدر السابق، ج1، ص118-119)

أما القشيري فيرى في تأويله للآية الكريمة: **(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوه)** أي: أرباب الدعاوى تسود وجوههم، وأصحاب المعاني تبيض وجوههم، وأهل الكشوفات غدا تبيض بالإشراق وجوههم، وأصحاب الحجاب تسود بالحجبة وجوههم، فتعلوها غبرة، وترهقها قترة، ويقال: من ابيض ـ اليوم ـ قلبه ابيض ـ غدا ـ وجهه، ومن كان بالضد فحاله العكس، ويقال: من أعرض عن الخلق ـ عند سوانحه ـ أبيض وجهه بروح التفويض، ومن علق بالأغيار قلبه عند الحوائج اسود محياه بغبار الطمع، فأما الذين ابيضت

وجوههم ففي أنس وروح، وأما الذين اسودت وجوههم ففي محن ونوح.(القشيري، عبد الكريم: 1999، ج1، ص256–257)

ويرى أبن عربي إن هذه الصفة تلازم من توجه قلبه بمجاراة واتباع النفس التي تطلب حظوظها في تحصيل لذاتها وشهواتها فتكون بذلك بعيدة عن جهة النور الحقية، فتكون تابعة لهواها في تحصيل لذاتها (وذلك إنما يكون باتباع السبل المتفرقة الشيطانية **(فأما الذين اسودت وجوههم)** فيقال لهم **(أكفرتم بعد إيمانكم)** أي: احتجبتم عن نور الحق بصفات النفس الظلمانية وسكنتم في ظلماتها بعد هدايتكم،وتنوركم بنور الاستعداد وصفاء الفطرة وهداية العقل فذوقوا عذاب الحرمان باحتجابكم عن الحق.(ابن عربي:ج1،1978، ص 209)

ويرى ابن عربي في فتوحاته: الذكرى بشرى المذكرة بالوراثة وهي في حق المعتنى به بشرى بالقبول، وفي حق غير المعتنى به بشرى بالحرمان، أهل العناية يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان، وأهل الحرمان فبشرهم بعذاب أليم لأن كل واحد أثر في بشرته ما بشر به قال تعالى: **(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ)**. (ابن عربي: 2006، مجلد8، ص184)

أما ابن عجيبة الحسني فيرى في تأويله للآية: **(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوه)** قد نهى تعالى أهل الجمع عن التشبه بأهل الفرق، في اختلاف قلوبهم ووجوههم وآرائهم وأنظارهم، من بعد ما جاءتهم الدلائل الواضحات على طلب جمع القلب على الله، والتودد في الله، وصرف النظرة في شهود الله، وأولئك المفترقون لهم عذاب عظيم، وأي عذاب أعظم من الحجاب ؟ يوم تبيض وجوه العارفين، فتكون كالشمس الضاحية، يسرحون في الجنان حيث شاءوا، وتسود وجوه الجاهلين، لما يعتريها من الندم، وسوادها باعتبار وجوه العارفين في النقص عنها، وإن كانت مبيضة بنور الإيمان، لكن فاتهم نور الإحسان، فيقال أكفرتم بالخصوصية في زمانكم، بعد إيمانكم بها فيمن سلف

قبلكم ؟ فذوقوا عذاب القطيعة عن شهود الحبيب في كل حين، وأما الذين ابيضت وجوههم وأشرقت بنور البقاء، ففي رحمة الله، أي: جنة المعارف. (الحسني، ابن عجيبة: 2005، ج1، ص357)

وللصوفية في اسوداد الوجه دلالة يراد بها إسقاط الجاه وسواد الوجه في الدنيا والآخرة، وقيل: معنى السواد المذكور في الدارين هو رؤية المرء سقوط قدره وتفاهة قيمته وحقارة منزلته في الدنيا والآخرة، فهو لا يرى له عملا منجيا في الآخرة، ولا على أحد في الدنيا، وذلك لتحققه بفقر الصوفية، وهو الانحباس في بيد التجريد الذي عرفته بأنه المقام الذي يبيد فيه كل ما سوى الحق تعالى، أي: يعدم، وقد يتحقق صاحب هذه الحالة بالفقر الحقيقي، الذي هو فقد الأنانية في وجود حقيقة الحقائق، وقد يرى سواد وجهه، وهو ظلمة عدمية في الدارين، أي في الدنيا والآخرة، وقال صدر الدين الرومي قدس سره حين سئل عن معنى سواد الوجه في الدارين، فقال: وجه الكامل لكونه مواجها لحضرة الغيب، وهي تشبه الظلمة، والوجه يراد به حقيقة العبد، وذاته، وعينه ويقال: إن المراد بذلك بقاؤه مع رؤية عبوديته مستصحبا الحال فيها، بحيث لا يرى له ربوبية بوجه من الوجوه، ولا بنسبة من النسب. (القاشاني، عبد الرزاق: 2004،ص255-256)

ويبدو من خلال التأويلين أن السواد هو الاحتجاب، أي: سيادة الحجب الظلمانية على غيرها من الألوان فجعلتها تصطبغ بصبغتها فانمحت بذلك هوياتها فلم يبق إلا الحجب، فيظهر صاحب هذه الحجب بسمته السيادية التي اكتسبها في الحياة الدنيا والتي تعلن عن هويتها السوداء، دلالة على أن صاحبها ساد بجهالته على نفسه ولن يسمح بنمو أية ولادة للنور في كيانه، أما في حال كونها باديةً على الوجه لا على غيره من أجزاء الجسم،لكون أن الوجه هو الأقرب إلى القلب والعقل والحواس، وبسبب عدم استثمار هذه اللطائف بشكلٍ صحيح وسليم وكما ينبغي فإن الحق يجعل لها وسماً يخزي صاحبها به ليشهدهُ جميع الناس، قال تعالى:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) [الأعراف: من الآية179]

وقوله تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [البقرة:164]

فلأن المرء لم يحسن استخدام عقله وحسه وقلبه بشكلٍ صحيح، فإنه بذلك يستحق هذه العقوبة الإلهية.

ويذهب البروسوي مذهباً آخر في تأويله لنفس الآية فيرى، أن صفة السواد التي تعم وجوه المكذبين ذلك لما ينالهم من شدة الوقفة كما أن تلون الوجه يكون يوم القيامة بلون القلب، والقلوب التي ابتعدت عن الحق لابد لها أن تسود بالاتجاه المعاكس.(نفسه:ج3، ص 397)

فالسواد هو علامة المحجوب كما يرى ابن عربي، والمحجوب هو الذي يحتجب بما سوى الله تعالى سواء كان هذا السوى مادياً أو روحياً..(ويجوز عليه ما يمتنع عليه من الصفات لاحتجابه بالمواد **(وجوههم مسودة)** بارتكاب الهيئات الظلمانية ورسوخ الرذائل النفسانية في ذواتهم **(أليس في جهنم)** الطبيعة الهيولانية **(مثوى للكافرين)** الذين احتجبوا بصفات نفوسهم المستولية عليهم) (نفسه:ج2، ص348).

فاللون الأسود اتخذ نفس الدلالة في تأويلي ابن عربي والبروسوي، باعتباره حجاب الظلمة التي تسيطر على قلوب الكافرين وتجري نفس الدلالة على الآيات الأخرى.

قال تعالى:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ) [البقرة: من الآية187]

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ) [فاطر:27]

يحلينا البروسوي في تأويله للآية الأولى إلى ما جاء في ظاهر الشرع وتحديداته ويرى أن الخيط الأبيض هو البداية الأولى لسطوع الفجر،في الوقت التي تبدأ فيها بعض الأشياء بظهور ملامحها وسط الظلام، في حين تخفي ملامح الأشياء الأخرى وتتماهى في الظلام.(نفسه:ج3، ص145).

في حين يرى أبن عربي أن هذه الآية يراد بها الأرزاق الروحانية للسالكين، أي:حصة السالك من المعارف الذوقية والمشارب العرفانية حال حضور اللوامع (الواردات الإلهية) التي بواسطتها يتم التغلب على خيط سواد الغفلة وظلمتها.(ابن عربي:ج1، ص116)

ويرى ابن عربي في فتوحاته: غيبوبة الشمس هي انقضاء مدة الحكم الاسم الإلهي رمضان في الصوم فإنه الذي شرع الصوم، فانتهاء مدة حكمه في الصوم هو مغيب الشمس، وإن كان اسم رمضان كما هو لم يزل عن ولايته فإن له حكما آخر فينا وهو القيام وتولي الحكم في المحل الذي كان موصوفا بالصيام الاسم الذي هو **(فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)** [الزمر: 46] ولكن بتولية أسم رمضان إياه فهو النائب عنه، كما أنه في الصوم رفيع الدرجات وممسك السماوات والأرض أن تزولا أو أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فأفطر الصائم وبقي حكمه مستمرا في القيام إلى الحد الذي يحرم فيه الأكل الاسم الإلهي رمضان، فتولى الاسم الممسك ويبقى الاسم الفاطر واليا على المريض والمسافر والمرضع والحامل، وذلك الحد هو الفجر الأبيض المستطير، وهو الأولى من الفجر الأحمر إلا عند من يقول بفار التنور أنه الفجر، كما أن الأخذ بالتواتر أولى من الأخذ بالخبر الواحد الصحيح والقرآن متواتر وهو القائل: **(حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)** فإن أصل الألوان البياض والسواد، وما عداهما من الألوان فبرازخ بينهما تتولد من امتزاج

البياض والسواد، فتظهر الغبرة والحمرة والخضرة إلى غير ذلك من الألوان، فما قرب للبياض كانت كمية البياض فيه أكثر من كمية السواد، وكذلك في الطرف الآخر. وجاءت السنة في حديث حذيفة بالحمرة دون البياض فقال: إلا أن الشمس لم تطلع وهو محتمل، والبياض المذكور في القرآن ليس بمحتمل، فرجحنا الأبيض على الأحمر بوجهين قويين: القرآن وعدم الاحتمال واعتبارهما حكم الإيمان وهو الأبيض فإنه مخلص لله غير ممتزج والأحمر للنظر الاجتهادي وهو حكم العقل، ونظر العقل ممتزج بالحس من طريق الخيال لأنه يأخذ عن الفكر عن الخيال عن الحس إما بما يعطيه وإما بما تعطيه القوة المصورة وهو قاطع بما يعطيه إلا أنه تدخل عليه الشبهة القادحة، فلهذا أعطينا الشفق الأحمر لنظر المجتهد، إذ الحمرة لون امتزاج البياض والسواد وهو امتزاج خاص.(ابن عربي: 2006، مجلد2، ص337)

لقد مكن الكشف لابن عربي إمكانية معرفة أصل الألوان، ذلك لأن الألوان إنما تأتي من تحليل الضوء الأبيض، كما يظهر ذلك جليا في أفاق السماوات، وعند سقوط المطر نهارا والشمس ظاهرة في جهة، فيتحلل ضوئها من خلال سقوط المطر ليظهر لنا في السماء ألوان الطيف الشمسي بألوانه الأساسية الأحمر، والأزرق، والأصفر، وما ينشأ من تجاورها.

ويبدو أن ابن عربي لم يكن ضليعا في خبرة الألوان، ذلك حين اعتبر أن الأسود هو لون مستقل في حين أنه وليد من مزج جميع الألوان، وإن جميع الألوان لها أصل واحد وهو النور الأبيض، أي: أن جميع الألوان وإن كانت كثيرة فإنها ترجع إلى الوحدة، فالألوان عبارة عن وحدة اللون الأبيض في الكثرة من الألوان وتنواعاتها، وهي إشارة لنا وآية تحيلنا إلى تمكين الحق تعالى وقدرته على التجلي في جميع المراتب الوجودية، فكل لون ظاهر في الوجود أصله الأبيض، ولذلك جاء خطاب الحق تعالى ليكاشفنا بهذه الحقيقة: **(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ**

لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [النور: 35] فكثرة نور المراتب أصلها النور الإلهي المتجلي فيها، ولولا ظهوره فيها لما كان لها وجود أصلا.

فالسواد هنا وكأنه لون الدنيا، لأنه حصيلة جمع الألوان الظاهرة في الوجود، وهو لون مضاد للون الحقيقة البيضاء، فمن أراد الوقوف مع الدنيا، كمن طلب السواد والظلمة، ومن أراد الحق تعالى كمن طلب البياض، وإن عليه تقع مسؤولية البحث عن الوسيلة التي تصل به إلى البياض وهو المستوى الأول المعبر عنه بمستوى أحسن تقويم، أو مستوى النفخة الروحية التي تشكل امتدادا لروح الحق تعالى، أي: عودة الروح على ما كانت عليه قبل أن تكون في عالم الأجساد.

إن ظهور هذه الثنائية من خلال الواقع، والتجربة العملية هي من آيات الحق تعالى التي يجب على اللبيب أن يتأملها بتروي، لكي يصل من خلال ذلك إلى المراد الإلهي في هذه الآية، فالأسود هو أشبه ما يكون بنهاية التجليات، في حين أن اللون الأبيض، هو بداية التجليات، أو إشراقاتها، والمطلوب عودة الروح على ما كانت عليه بعد تخليها عن سواد الحجب، وتحليها ببياض الرب حتى تتخلص من البقية البشرية فتعود مرة أخرى إلى أصلها، أو موطنها الأصلي، المعبر عنه بالفطرة.

ويرى ابن عجيبة الحسني في تأويله للآية: **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)** أي: ومنها غرابيب سود، أي: ومن الطرق سود غرابيب، جمع غربيب، وهي الذي أبعد في السواد وأغرب، ومنه الغراب. قال الهروي:هي الجواد ذوات الصخور السود، والغربيب: شديد السواد، وفي الصحاح: تقول هذا أسود غربيب، أي: شديد السواد، وإذا قلت: غرابيب سود، تجعل السود بدلا من غرابيب لأن توكيد الألوان لا يتقدم، تقول: أصفر فاقع، وأسود حالك، ولا يتقدم الوصف، **(وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ)** أي: من الجبال ذو جدد بيض، وحمر، وسود غرابيب، حتى يؤول إلى قولك:

ومن الجبال مختلف ألوانه. الإشارة: ألم تر أن الله أنزل من سماء الغيوب ماء الواردات الإلهية، فأخرجنا به ثمرات، وهي العلوم والأذواق والوجدان، مختلف ألوانها، فمنها علوم الشرائع، وتحقيق مسائلها، ومنها علم العقائد، وتشييد أدلتها وبراهينها، ومنها علوم اللسان بإتقان قواعدها، ومنها علم القلوب وتصفيتها من العيوب، وهو علم الطريقة، ومنها علم الأسرار، وهي أسرار الذات والصفات، وهو علم الحقيقة، ومن جبال العقل طرق بيض، وحمر، وسود فالبيض: طرق الكشف والبيان، وحلاوة الذوق والوجدان، والحمر: طرق الدليل والبرهان، لأنها قد تظهر وتخفى، والسواد الغرابيب: عقول الفلاسفة والطبائعيين، أهل الحدس والتخمين، إذا لم يقتدوا بالكتاب المبين، وشرع النبي الأمين.(الحسني، ابن عجيبة: المصدر السابق، ج6، ص118-119)

فتكون دلالة اللون الأسود هي الغفلة والظلمة؛ ذلك لأن شدة الظلام تحجب الناظر عن النظر في ملاحظة الأشياء، وبالتالي يجهل حقائقها ومعانيها.

دلالة السواد في الحجر الأسود

ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه قال عن الحجر الأسود: (**أكثروا استلام هذا الحجر فإنكم توشكون أن تفقدوه بينما الناس يطوفون فيه ذات ليلة إذا أصبحوا وقد فقدوه، إن الله عز وجل لا يترك شيئاً من الجنة في الأرض إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة**). (الأزرقي:1979،ص 342ـــ343)

وقال صلى الله عليه وسلم وهو يحدث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها خلال رفقتها معه إلى البيت الحرام: (**لولا طبع على هذا الحجر، يا عائشة من أرجاس الجاهلية وأنجاسها إذاً لاستشفي به من كل عاهة وإذا لألفي اليوم كهيئته يوم أنزل الله عز وجل وليعيدنه إلى ما خلقه أول مرة، وإنه لياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة، ولكن الله غيرهُ بمعصية العاصين**

وستر زينته عن الظلمة والآثمة لأنه لا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيء كان بدؤه من الجنة) (الأزرقي: ص 323)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلاً عن الترمذي وابن عباس: (نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بني آدم) (ابن عربي: 1997، ج1، ص 890)

ظهرت سيادة آدم عليه السلام على الأرض جراء خطيئته، كما يرى أبن عربي،وبهذا الفعل تحقق قضاء الله تعالى وإرادته في جعل خليفةً له في الأرض كما نصت عليه الآية:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ) [البقرة:30]

فآدم لولا خطيئته (ما ظهرت سيادته في الدنيا فهي التي سودته وأورثته الاجتباء، فما خرج من الجنة بخطيئته إلا لتظهر سيادته) والحجر كذلك هو الآخر حين خرج من الجنة بالأمر الإلهي كان أشد بياضاً من اللبن كما ورد في الخبر، وعندما وضع في الكعبة ونتيجة للملامسة وتقبيل الناس له والخاصية التي وضعها تعالى به من كونهِ قابل أن تتعلق به أرجاس وخطايا بني آدم، فهو على هذا الحال حين يقتضي الحق تعالى رجوعهِ إلى الجنة فإنه يسود ويتميز على أمثاله من الحجر، فتكون له السيادة هناك، فسوادهُ يمنحه السيادة والقرب من الله تعالى، فتظهر (عليه خلعة التقريب الإلهي فأنزله الله تعالى منزلة اليمين الإلهي التي خمر الله بها طينة آدم حين خلقه،فسودته خطايا بني آدم، أي: صيرته سيداً بتقبيلهم إياه، فلم يكن من الألوان من يدل على السيادة إلا اللون الأسود، فكساه الله لون السواد.) (ابن عربي: نفسه، ص890)

لقد اكتسب اللون الأسود على وفق التأويل الصوفي للحجر الأسود، دلالة السيادة، كما اكتسب آدم السيادة للأرض بعد سواد خطيئته، إلا أن التوجه قد

اختلف في مكان السيادة، فالحجر الأسود يكون مكان سيادته على أمثاله في الجنة، في حين أن سيادة آدم جرت على الأرض.

اللون الأسود ومراتب النفس

يقع تسلسل نور اللون الأسود لمراتب النفس في المرتبة السادسة، وهي مرتبة النفس المرضية، إذ بعد أن تقطع النفس مراتب الرقي لتحصيل كمالها من خلال الطاعات ونوافل العبادات، فتبدأ أولاً بمغادرة مرتبة النفس الأمارة بالسوء ذات النور الأزرق ومن ثم مرتبة النفس اللوامة ذات النور الأصفر، من بعد ذلك مرتبة النفس الملهمة ذات النور الأحمر ومع مواصلة العبادة والنوافل ترقى إلى مرتبة النفس المطمئنة، ذات النور الأبيض ومن ثم ترقى إلى مرتبة النفس الراضية ذات النور الأخضر فتصل بعد هذا إلى مرتبة النفس المرضية ذات النور الأسود، فيحصل لها التقريب الإلهي والاعتناء فتفنى في الله وتكتمل به تعالى وهي آخر المراتب وتسمى مرتبة النفس الكاملة التي لا لون لنورها.

ويبدو أن هناك مماثلة من حيث السيادة بين الحجر الأسود والعبد الذي يبلغ مرتبة النفس المرضية، ذلك لأن الحجر الأسود كما قلنا بلغ مرتبة السيادة بفتوته، كونه تحمل خطايا بني آدم، وعند عودته إلى أصله في الجنة تكون له السيادة على جميع الحجر هناك، كذلك العبد المطيع فإنه يبلغ مرتبة السيادة عند وصوله إلى مرتبة النفس المرضية ذات النور الأسود فيسود بذلك على كونه الصغير،إذ بات من المعلوم أن الإنسان كون صغير انطوى فيه العالم الأكبر ، فهو مختصر شريف جامع لكل مراتب الكون الوجودية، لأن حقائقه تقابل جميع الحقائق الوجودية كثيفها ولطيفها، فهو حين يصل مرتبة النفس المرضية ذات النور الأسود فإن تلك إشارة على بلوغه مرتبة السيادة على نفسه، وبالعكس من هذا فإن الإنسان الذي يخضع للنفس الشهوانية ويلبي مطالبها فإنه يكون عبداً للشهوة لسيادتها عليه عند ذاك تكون علامته يوم القيامة (اسوداد الوجه) فيلقى في جهنم لتتولى تطهيره من دنس التعلقات حتى يعود كالدرة الصافية.

ومما يذكر عن جهنم أن لونها أسود، وهي لا ترى فيها ضياء اللهب كما هي عليه الحال في نار الدنيا، لأن الضياء فيها خاصية تستأنس لها الذات الإنسانية إلا وهي خاصية النور، في حين أن صفة جهنم هي الظلام الدامس وإنه لو أُخرج منها قدر معين، وفرق جرمه في الهواء حتى يصير في تفريقه مثل الدخان فإنه لا يظهر فيه الضياء والاشتعال.. ولو جمعت نار بقدر الدنيا، وضمت بعضها إلى بعض وجمعت جمعاً شديداً حتى صارت مثل الصندوق فإنها ترجع سواداً محضاً وظلاماً خالصاً.(الدباغ:1988،ص377)

ويبدو أن لسواد نار جهنم سلطان على سواد المجرمين من سكنتها فهي تفعل فيهم فعل الجلي للحديد الصدأ، يبقى حالها معهم إلا ما شاء الله، وجهنم بهذا الوصف يكون لها السيادة على المجرمين طالما بقي منهم بقية.

أما النفس المرضية ذات اللون الأسود فإن سيادتها تظهر كذلك في الجنة،يقول تعالى: **(وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)** [فصلت: من الآية31] فإن صاحب الجنة كالملك الذي لا يعوزه شيء كلما أراد شيء وجده حاضراً كمثل لمح البصر، وهذه عين السيادة.

وتتصف مرتبة النفس المرضية ذات النور الأسود بجملة صفات كما يراها الكيلاني منها، حسن الخلق،وترك ما سوى الله، واللطف بالخلق، والتقرب إلى الله تعالى، والتفكر في عظمته، والرضا بما قسم تعالى.(الكيلاني:1988، ص 38).

ولو تأملنا هذه الصفات لوجدناها تتصف بالسيادة ؛ ذلك لأن حسن الخلق هو السيادة على سوء الخلق،وترك ما سوى الله هو سيادة الإرادة بالله على إمكانية الترك، واللطف بالخلق هو عين السيادة الصفة الغضبية في النفس التي تميل إلى جهة الانتقام والبطش، والتقرب إلى الله هي سيادة الروح على النفس الحيوانية التي ترغب في إشباع ملذاتها وأهوائها بشكل غير مشروع، والتفكر في العظمة هو سيادة الروح على الجهل وعدم التفكر، والرضا هو السيادة على الشره وعدم القناعة.

من هنا يتضح أن اللون الأسود له دلالة البعد السلبي إذا سادت النفس الأمارة بالسوء وأمعنت في ضلالتها واحتجبت بجهلها وسادت في هواها ولذاتها وإمعانها في الكفر، ولم يعد فيها مجال لظهور أي لون من النور، تماماً كالليل البهيم الذي يحجب نور الأشياء فلا يبدو معه لون من الألوان، يقول تعالى: **(جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً)** [الفرقان: من الآية47] واللباس هو الستر الذي يحجب عورة الإنسان، ولم يكن الليل لباساً لولا سواده، لأن النور يعطي الحقائق حقها واستحقاقها.

من دلالات اللون الأسود كذلك هو البعد، كما يرى أبن عربي،فالضلال في الطبيعة فيها ضرب إلى العتمة والسواد وهي إشارة إلى ما فيها من الخفاء لبعد المناسبة بينها وبين أشخاص من هي ظل له ؟.. وإن كان الشخص أبيض فظله بهذه المثابة، إلا ترى الجبال إذا بعدت عن بصر الناظر تظهر سوداء وقد تكون في أعيانها على غير ما يدركها الحس من اللونية وليس ثم علةٍ إلا البعد. (ابن عربي:1989، ص102)

البعدُ والسيادة للون الأسود أخذت مجالاً واسعاً في مجال التطبيق حتى في المناسبات الاجتماعية،فلباس الأسود دلالة على سيادة الحزن على أي شيءٍ آخر في مناسبات الوفيات، كما أن هناك طبقة من النبلاء تصر على لبس الأسود في المناسبات، والاحتفالات الخاصة لتدل بذلك على رفعتها وسيادتها على الطبقات التي تحتها من المجتمع ودلالة على علو مرتبتهم وسمو شرفهم في المجتمع.

والأسود يترك لدى المتلقي،أو المشاهد انطباع روحي يصعب تفسيره، إلا لدى أهل الأذواق، فمن يرى هذا اللون يخاله شعور بالرهبة، والخوف، وهو شعور نابع من خلال المعطيات الروحية لهذا اللون، فهو شعور امتزج فيه الخوف من الحجب الظلمانية، أو اسوداد الوجه والخزي في الآخرة، أو هو عنوان لما سيحصل لمن كانت صفاته صفات الكافر ذو اللون الأسود أو المؤمن الناكث الذي سيقابله الحق بالطرد من رحمة المعارف المطلقة يوم القيامة.

وربما أن الخوف والرهبة نابعة من الشعور بالتقصير إزاء الحق تعالى من كون المتلقي لم يعمل على التخلي عن الصفات الظلمانية ويعمل على التخلق بالأخلاق الإلهية، ليصل إلى مرتبة النفس المرضية ذات النور الأسود، ليرضيها الحق بأنواع المعارف والعلوم اللدنية، حتى يصل الإنسان من خلالها إلى مرتبة الفناء في الحق تعالى، لينال من خلال هذا الفناء البقاء في الحق بانتهاء الأثنينية، وبقاءه في حقيقة الحق ليكون من بعد ذلك من الذين أشار إليهم تعالى: (**مَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**) [البقرة: 38] .

وترمز الصوفية بالموت الأسود إلى من يتحمل أذى الخلق، فإذا تحقق السالك بالمقام الذي يصير فيه، بحيث لا يجد في نفسه حرجا مما يناله من أذى الناس، وسبهم، وشتمهم، وغير ذلك، فقد مات الموت الأسود، ويحيا بالإمداد من حضرة الجواد، لأنه يصير ممن قد شاهد النعم الباطنة عن غيره حين صارت في حقه ظاهرة، لا يرى صدور الكل إلا من محبوبه. (القاشاني، عبد الرزاق: 2004، ص440)

فالسالك حين يتحمل أذى الخلق فإن ذلك يصل به إلى مقام الصبر، ومعلوم أن مقام الصبر هو من المقامات العلية لأن صاحب هذا المقام يحظى بمنزلة المعية مع الحق تعالى كما جاء في قوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**) [البقرة: 153] فلا يمكن للعبد بلوغ مقام المعية مع إلى من خلال الصبر والصلاة أي: الصلة الدائمة مع الحق تعالى، فإذا تحققت الصلة بتوسط الصبر حصل الفناء، فيكون الحق هو القيوم بحقيقة العبد، وعند ذاك يكون العبد مسددا ومسيرا بالله تعالى، فإذا كان كذلك أصبح من جملة المخاطبين بقوله تعالى : (**فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**) [البقرة: 38] فإذا تحقق العبد بهذا المقام حصلت له السعادة في الدارين الدنيا ولآخرة وهذا هو المراد من وجودنا في هذه الحياة.

البرتقالي: يعرفه الباحث إجرائيا، هو لون مزيج من اللون الأحمر، والأصفر بنسب متساوية، وله دلالات روحية.

إن هذا المزيج الذي التقى عنده اللون الأصفر، والأحمر، وهما من الألوان الحارة، فجاء اللون البرتقالي حاراً كذلك، وسميت بالألوان الحارة لأنها الأقرب إلى ألوان اللهب الناري أو إشعاع الشمس، ومن اجل أن نقف على مدلولات اللون البرتقالي، لابد لنا أولاً أن نعرض لمدلولات اللونين الأصفر، والأحمر من منظور المتصوفة.

الأصفر:اللوم، ،الفكر، والعجب، والاعتراض على الخلق، والرياء الخفي، وحب الشهوة.

الأحمر: السخاوة، والقناعة، والعلم، والتواضع، والصبر، والتحلم، وتحمل الأذى، والعفو عن الناس، كما أن من صفاته الشوق، والهيمان، والبكاء، والقلق، والإعراض عن الناس، والاشتغال بالحق.(الكسنزاني، محمد عبد الكريم: ب ت، ص110)

البرتقالي من خلال ما تقدم له توسط بين اللونين فتكون دلالاته لها وجهين وجه يقابل بها اللون الأصفر، ووجه يقابل به اللون الأحمر، وهذا يعني أن دلالة البرتقالي دلالة برزخية جامعة بين أدنى دلالات اللون الأحمر وما ستؤول إليه أمر دلالات اللون الأصفر من زوال وفناء.

اللوم أو ما يسمى تأنيب الضمير هو من طبيعة، وأوصاف النفس اللوامة (الأصفر) ومنه اكتسبت تسميتها، يقابله الاشتغال بالحق في الملهمة، وكأنما البرتقالي هو القرار الحاسم باتجاه التوجه إلى جهة الحق تعالى، والخلاص من تأنيب الضمير ذلك بفضل الحق تعالى الذي ألهم صاحب اللون البرتقالي، بالتوجه إلى الخطوات الصحيحة نحو العمل الذي لا يترك معه مجال لتأنيب

الضمير، كما أن لهذا النور البرتقالي محفز روحي يدعو صاحبه إلى طلب المزيد، ذلك لأن هذا اللون هو لون الشهوة المزدوجة، شهوة باتجاه المطالب المادية، وشهوة باتجاه المطالب الروحية، ويدخل هنا جمال الزينة ليحسم توجه المريد، فالمراد يزين له الحق طريق الإيمان، والمريد يواجه إغراء زينتين، زينة إبليس، وزينة الحق تعالى، وللمريد ما يختار من أحدى الزينتين، قال تعالى:

(ولَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) [الأنعام: 43]

وقوله تعالى:

(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) [الحجرات: 7]

فتكون للشهوة انجذاب باتجاه الزينتين، ومعلوم أن النفس مجبولة على محبة الجمال، والميل إليه فمن اعتاد على تذوق المذاقات الروحية تجنب في ميله زينة جهة الحس ومال إلى جهة الروح، ومن كان قليل التذوق للمذاقات الروحية انجذب بشكل أو بآخر باتجاه المذاقات المادية الحسية واحتجب بها ووقف معها إلا ما شاء الله.

فالنور البرتقالي هو الذي يغري وبه تستيقظ الشهوة ولا تخمد إلا بالسير في أحدى الاتجاهين السفلي أو العلوي.

كما أن للفكر في اللوامة له ما يقابله في الملهمة، فالشوق، والهيمان هما خلاصة ما وصل إليه الإلهام الإلهي المفاض به على صاحب مرتبة النفس الملهمة، وفي مرتبة النور البرتقالي يكون لبداية الشوق أثر واضح، وللدموع مسوغ تبحث عن حبيب بدت أوصافه تظهر ملامحها فمرة ينجذب إلى صاحب تلك الملامح، ومرة يرجع إلى جهة الطبع، والحس لأنه لا يزال لم ينعتق من ميوله تجاه محبة التشخيص المؤطرة بالأطر الحسية، وما بين هذا وذاك تتوزع، وتتوجه ميول الشهوة.

إن عملية الاعتراض على الناس في اللوامة تبدأ بالتلاشي شيئا فشيء في البرتقالي ومن ثم يكون مآلها إلى الزوال في مرتبة النفس الملهمة فلم يبق لها من بقية، ذلك لأن للعلم اللدني له سلطان على النفس من كونه يزكيها، ويشذبها حتى يجعلها تتسامى عن الأفعال المستقبحة، ويرقى بها إلى مستوى تكون فيه أقوى من الميول إلى جهة الطبع.

كما أن الاعتراض على الناس الذي هو من سمات النفس اللوامة ذات النور الأصفر بدأ يقل لدى صاحب النور البرتقالي، ليحل محله الإعراض عن الناس ومسامحتهم فالبرتقالي مرحلة تحول كبيرة من حال أدنى إلى حال أرقى.

والصبر، والحلم هما من صفات النفس الملهمة (الأحمر)، والوسط الجامع بينهما توجه مسار الشهوة إلى المعطيات الروحية والعلوم الإلهية (البرتقالي) فيكون البرتقالي هو عين التخلص من التعلقات باللذات غير المشروعة بالإضافة إلى التخلص من التعلق، والميل إلى جهة المرتبة المادية المشروعة، وهذا يشكل أول بوادي الاستعداد، والتقبل للفيض الإلهي.

فالشهوة هنا تأخذ منحى آخر غير المنحى المادي، والشعور، والميل للون البرتقالي هو في حقيقته ميل روحي، غير أن المقام يفسر هذا الميل تبعاً لحصيلته المعرفية، فمن كان مقامه متوغل في الجانب الروحي فإن الميل الذي يشبع حاجاته هو استنزال المعاني الروحية، والعلوم اللدنية، ومن كان مقامه مع المراتب الوجودية المادية فإن ميله وشهوته تتجه إلى تلك المراتب وتقف معها، فالبرتقالي يثير الشهوة دون أن يتدخل في تسييرها، لأن التسيير من مهام المقام.

وبما أن اللون البرتقالي هو عبارة عن الأصفر الذي حظي بسخاوة اللون الأحمر، لأن عملية تنزل اللون الأحمر عن مرتبته (النفس الملهمة) والاعتناء بغيره ممن هو دون المرتبة (النفس اللوامة) يعتبر سخاءاً ورحمةً وكرماً، كما أن عملية تنزل الأحمر تمثل امتداد الرحمة الإلهية المضاعفة والمجزية لرقي، وإقبال العبد تجاه الحق ، كما جاء في الحديث القدسي: **(إذا تقرب إلي**

العبد شبراً تقربت إليه ذراعاً وإذا تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً وإذا أتى مشياً أتيته هرولة.) رواه البخاري عن أنس وأبي هريرة.

وهذا يعني أن النفس الأمارة بالسوء (ذات اللون الأزرق) حين عزمت على التقرب فكان لها الارتقاء إلى مرتبة النفس اللوامة (ذات اللون الأصفر) فكانت مكافئة الحق لها جذبها إلى عالم المعاني (عالم الأنوار والروح) الذي يبدأ (باللون البرتقالي).

واللون البرتقالي يمثل هنا بداية العناية، وبنفس الوقت بداية الاستعداد لقبول الفيض النوراني فكلما يقبل حقيقة من الحق تعالى كلما ترقى إلى مرتبة أعلى (البرتقالي المحمر) وهكذا وصولاً إلى استعداد قبول فيض الإلهام بشكل مستمر وهو ما يسمى مرتبة النفس الملهمة(اللون الأحمر).

إن لدلالة الشهوة في اللون البرتقالي وجوهٍ عديدة، فالوجه النازل باتجاه الأصفر (النفس اللوامة) فيه نزعة وميل باتجاه ملذات الحياة الدنيا لا سيما المادية منها، والوجه الصاعد باتجاه الأحمر (النفس الملهمة) فيه نزعة وميل باتجاه اللذات المعنوية والروحية والكشف عن المعاني النورانية،أما الوجه الثابت بين،(في البرتقالي) فإن برزخيته تعطيه درجات متفاوته ومتباينة من الميول والدرجات ما لا يمكن عدها أو حصرها، صعوداً وهبوطاً.

غير أن الشهوة الصاعدة، والتي وجدت استقراراً لها في (الأحمر) أي:النفس الملهمة لم يستهويها الاستقرار بشكلٍ مستمر، فبعد أن يتضح لها جدل الفجور، والتقوى من خلال علم الفرقان الممنوح لها كما جاء في الآية الكريمة: **(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)** [الشمس:7، 8] فيكون توجه الشهوة فيها(بعد أن تتخلص من الفجور بحضور العلم)، متجهاً إلى مسار التقوى الصاعد، والقاطع للمراتب العلا كالإحسان، والصديقية، ومراتب الرضا وصولاً إلى الكمال بالله تعالى.

لأن الصوفية في توجهاتها لن تجد لها مستقراً سوى الفناء في الله تعالى، فالسير لديهم متواصل، والسعي باتجاه الأفضل حاصل، وكلما استهوتهم

مرتبة أعلى عملوا من أجل الوصول إليها وحين يتم لهم ذلك، دعتهم مرتبة أعلى منها، وهكذا لا قرار ولا استقرار لهم إلا في المطلق، وهناك تنتهي الألوان فلا يبقى إلا نور واجدها.

إن من بعض برزخيات البرتقالي كون له وجهين، وجهٌ يقابل توجه الأصفر في اعتراضه على الخلق، ووجه يقابل الأحمر الذي يدعو إلى الإعراض عن الخلق، الأحمر تخلي والأصفر وقوف مع مرتبة من مراتب الوجود، ويبدو أن لجاذبية اللون البرتقالي الأثر الكبير في انجذاب صاحب صفات النفس اللوامة باتجاهه ومن ثم إلى مرتبة النفس الملهمة (الأحمر).

إن عملية اللوم على ارتكاب الخطأ لا يكفي ما لم يكن هناك إقلاع، وتخلي كامل عن الخطأ، وهذا لا يتم إلا من خلال انتهاج طريق الصبر، والتروي أمام المغريات الهابطة، ومرتبة البرتقالي تمثل أول بوادر الصبر الذي يغري بظفر معرفي، وروحي ومذاقات، وجدانية ومعنوية أفضل بكثير من المذاقات المادية، فالبرتقالي هنا يُوعدنا، ويحيلنا بنفس الوقت إلى ما تنطوي عليه مرتبة النفس الملهمة، والبرتقالي هنا أقرب ما يكون صفةً من نهاية الظل، فهو من جانب يمثل نهاية الضوء وفي نفس الوقت بداية الظل، كذلك الحال مع البرتقالي فهو من جانب يمثل نهاية الأصفر ومن جانبٍ آخر يمثل بداية الأحمر.

إن الأساس الذي يستند عليه الرياء الخفي هو الجهل بجهة الحق تعالى،فلولا ظلمة الجهل لما مال المرء إلى كفة رضا الناس ولم يشغله رضا الحق تعالى، ولعل من أبرز صفات النفس الأمارة (الأصفر) الرياء الخفي، ومعلوم ما للرياء من وجه يمتد باتجاه رضا الخلق واستمالة إعجابهم، هنا تدخل العناية الإلهية وتمتد يد الرحمة لتذيق صاحب هذه المرتبة (النفس اللوامة) مذاقات رضا الحق من باب (**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ**) (لأعراف: من الآية156) فلما ذاقت ترقت فتخلت عن ريائها الخفي فتقدمت لطلب تعليم

الحق لها فكانت الاستجابة من باب **(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** [البقرة: من الآية282] فكان لأول دخولها عالم الإلهام لابد لها أن ترتدي حلة البرتقالي وتأخذ حصتها منه بالتدريب والإعداد والاعتناء، لتكون مهيأة إلى مرتبة أعلى (البرتقالي المحمر) ومن ثم (الأكثر احمراراً) حتى تتحد في مرتبة اللون الأحمر وتتماهى فيه، وحين يتم لها ذلك فإنها تنشغل بالحق عن الخلق، وعندما تصبح صفتها بهذا الوصف، فإن الحق تعالى يكافئها بما تستحق، ويعطيها بما تتسع قابليتها،يقول تعالى: **(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَاها * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)** (الشمس:7،8) فذاقت وعرفت وبكت ندماً لما ارتكبت من حماقات الفجور، وهامت شوقاً إلى الحق تعالى.

لصفة العجب في النفس اللوامة وجوه كثيرة، منها وجه تجد من قبله الحسد، وآخر تجد من قبله الدهشة الممزوجة بالحيرة، ووجه تجد من قبله حب الذات أو النفس (النرجسية) ووجه تجد من قبله حافزاً يدفعك باتجاه البحث والمعرفة، وهذا الوجه هو الذي يستحق محبة وعناية الحق به فيجذبه إليه عبر الترقي في المقامات والمراتب فلابد له أن يمر بمرتبة التوسط (البرتقالي) ومن ثم يتصاعد إلى مرتبة الأحمر ومن بعد إلى المراتب الأخرى.

من هنا يتضح أن اللون البرتقالي يغري بالشهوة ويحيل بإغرائه إلى طرفي نقيض ومنه تنطلق إشارتين واحدة إلى المحدود والأخرى إلى المطلق، يحلينا إليها بحيادية تامة، أن توسطه ما بين الأصفر والأحمر مع ميله إلى كفة الأحمر لأن نسبة الأحمر في البرتقالي تكون أكثر من نسبة اللون الأصفر الليموني فإن ذلك تأكيد لجر الشهوة باتجاه الجانب الروحي، وذلك لأن اللون الأحمر هو لون مرتبة النفس الملهمة.

قائمة المصادر

- القرآن الكريم

1- ابن عربي، محي الدين: تفسير ابن عربي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001.

2- --،--:--، تحقيق: مصطفى راغب، دار الأندلس، بيروت،1978.

3- --،--:عجائب العرفان في تفسير إيجاز البيان، ط1،دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.

4- --،--: الفتوحات المكية، دار إحياء التراث العربي، بيروت،1997.

5- --،--:--، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006.

6- --،--: فصوص الحكم، ط1، شرح:عبد الرحمن الجامي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

7- --،--: --،تحقيق: أبو العلا عفيفي، مطبعة الديواني، بغداد، 1988.

8- الأزرقي، أبو الوليد محمد: أخبار مكة وما ورد بها من آثار، تحقيق: رشدي صالح، دار الثقافة، بيروت، 1979.

9- الأصفهاني،الراغب: مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ط2، تحقيق: عدنان داودي، طليعة النور، قم، 1437هجري.

10- البروسوي، إسماعيل حقي: روح البيان في تفسير القرآن، ط1،تحقيق: عبد اللطيف حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

11- --،--: --، تحقيق: محمد علي الصابوني،الدار الوطنية، بغداد، 1990.

12- التستري، أبي محمد سهل: تفسير التستري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،2002.

13- الجيلي، عبد الكريم: الإنسان الكامل، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة: ب ت.

14- --،--: الكهف والرقيم في بسم الله الرحمن الرحيم، ط3، دائرة المعرف العثمانية، حيدر آباد، 1340هجري.

15- الحسني، أحمد بن عجيبة: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ط2، تحقيق:عبد السلام العمراني، دار الكتب العلمية، بيروت،2005.

16- --،--: الفتوحات الإلهية،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000.

17- الدباغ، عبد العزيز: الإبريز، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.

18- الرازي، محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح، دار الرسالة، الكويت، 1983.

19- --،--: --، دار الكاتب اللبناني، بيروت، 1981.

20- رسائل صوفية مخطوطة: تحقيق: سعيد عبد الفتاح، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،2007.

21- السامرائي، يونس الشيخ إبراهيم: الأحاديث القدسية، مكتبة الشرق الجديد، بغداد، 1988.

22- السلمي، أبي عبد الرحمن محمد: حقائق التفسير، ط1، تحقيق: سيد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001.

23- الشرتوني، سعيد الخوري: أقرب الموارد، طبع بلبنان: ب ت.

24- الشيبي، كامل مصطفى: ديوان أبو بكر الشبلي، مطبعة البيان، بغداد، 1967.

25- --،--: ديوان الحلاج، دار آفاق عربية، بغداد، 1984.

26- الشيرازي، محمد بن إبراهيم: المبدأ والمعاد،ط3، مركز النشر للإعلام الإسلامي، إيران، 1422 هجري.

27- --،--: تفسير القرآن الكريم، ط3، بيدار، قم، 1361هجري شمسي.

28- صالح، ضاري مظهر: المعطيات الجمالية للون الفيروزي في القباب والمآذن العربية الإسلامية، الموقف الثقافي، دار الشؤون الثقافية، بغداد العدد: 35، 2001.

29- الغراب، محمود:رحمة من الرحمن من كلام الشيخ ابن عربي،ط1، إيران، 1431هجري

30- الغزالي، أبي حامد: مجموعة رسائل الإمام الغزالي، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 2003.

31- فارس، بشر: سر الزخرفة الإسلامية، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة،1952.

32- الفيروزابادي، مجمد الدين محمد: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، ب ت.

33- القاشاني، عبد الرزاق بن أحمد: لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ب ت.

34- القشيري، عبد الكريم: لطائف الإشارات، تحقيق: سعيد قطيفة، المكتبة التوفيقية، مصر، 1999.

35- كبري، نجم الدين: فوائح الجمال وفواتح الجلال، ط1، تحقيق: يوسف زيدان، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993.

36- الكسنزان، السيد محمد عبد الكريم: الطريقة العلية القادرية الكسنزانية، من إصدارات التكية ببغداد، ب ت.

37- الكيلاني، عبد القادر: سر الأسرار، ط1، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005.

38- --،--: تفسير الكيلاني، ط1، تحقيق: أحمد فريد المزيــدي، دار الكتب العلمية،بيروت، 2009.

39- --،--: الفيوضات الربانية، المكتبة الوطنية، بغداد، 1988.

40- --،--:--،تحقيق: إسماعيل ابن السيد محمد القادري، بيروت، ب ت.

41- اليسوعي، بولس نويا: نــصوص صــوفية غيــر منــشورة، دار المشرق، بيروت، 1986.

المحتويات



في القرآن والفكر الصوفي

نحن نعشق اللون، وننشد إليه لكننا غير عارفين حقيقة هذه المشاعر مثل ذلك مثل المتلقي للموسيقى المجردة يجد فيها لذة وراحة لكنها غير مفسرة، والكثير يقف أمامها عاجزا عن تفسير أسباب الارتياح، أو نقيضه على حد سواء.

لقد عجزت نظريات علم النفس أن تعطيَ لنا تفسيراً واضحاً لكثير من الإشكالات التي نتذوقها، ولا نعلم أسرار قبولنا لها أو الرفض، غير أن ثلة قليلة في كل زمان تعمل بشكل خفي على استبطان عالم الروح لتكشف عن علوم كثيرة، ومن بين تلك العلوم اللون، والخط، والشكل الهندسي، وغيرها من التجريدات لكنها بقيت في منأى عن الكثير من طلاب الحقيقة، هنا في هذا البحث يحاول الباحث أن يسلط الضوء على تلك المكاشفات التي دونها الصوفية، وتحت سلطة وتأثير خطاب الحق تعالى لعلها تسهم إلى حد ما في توضيح ما غاب عنا في مجال المعرفة الذوقية.



دار الزمان
للطباعة والنشر والتوزيع



مكتب التفسير
للنشر والإعلان



الغلاف: م. جمال ابطح